

مذكرات زوكوف

موسى يوسف اللبني

في مذكراته التي كتبها تحت عنوان
نكريات وتاملات : والتي اهداها الى
الجندي السوفيتي : : يقدم مارشمال
الاتحاد السوفيتي زوكوف من خلال حياته
الشخصية عرضاً مثيراً لكثير من اخطر
احداث العصر . وتبدأ الاحداث من
الحرب العالمية الاولى : الى قيام ثورة
اكتوبر الاشتراكية في روسيا فبناء
الجيش الاحمر في معمة كفاح الشعب
الروسي ضد القصر والراسمالية
والتدخل الاجنبي المسلح : فالحرب
الروسية اليابانية عام ١٩٢٩ : ثم بوادر
الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين
المستبعدة للقضاء على النازية في بداية
عدوانها على اوروپا : فمعاهدة عدم
الاعتداء بين المانيا النازية والاتحاد
السوفيتي : فالهجوم الالماني على روسيا
وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية في
بداية الحرب . فالقوة البطولية
للفوز : فالانتصار التاريخي في
ستالينجراد الذي كان بداية لمطاردة
القوات الفاشية والنازية حتى غمر
دارها ودحرها في برلين .

وهو في مذكراته يكشف لأول مرة
عن كثير من الوثائق والمفاوضات السرية
والاحداث الخطيرة التي دارت وراء
الوكاليس وفي ادارات المخابرات
واجتماعات العسكريين والسياسيين .
ثم هو يقدم شهادته التاريخية في
تقييم اسباب هزيمة وانتصار الاتحاد
السوفيتي ودور ستالين في ذلك كله
مع ابداء رايه الشخصي في كثير من
رجال الغرب والشرق البارزين مثل
ايزنهاور وديجول وخوروشوف وتشوشا
ومنتصري هتلا



هـسإبرهف (الربوئى)

مئاح للئهمفل ؤمن مءموءة كبفرة من المطبوءاء من صفءة
مكئبئف الءاصة
على موقع ارشفف الانترنت
الرباط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مءكراء زوكوف

وائرءماء الئلاءة

جسار يوسف (الدمشقي)



مذكرات جسار يوسف

في مذكراته التي كتبها تحت عنوان
مذكرات ونابات : والتي أهداها إلى
الجندي السوفيتي : يقدم جيسار
الاتحاد السوفيتي زوكوف من خلال حياته
الشخصية عرضاً مشرقاً لكثير من أخطر
أحداث العصر ، وتبدأ الأحداث من
الحرب العالمية الأولى : إلى قيام ثورة
أكتوبر الاشتراكية في روسيا غداً
الجيش الأحمر في مهمة كبح الضمب
الروسي ضد القصر والبراسموية
والثقل الأجنبي المسلح : فالتصوب
الروحية العالمية عام ١٩٢٨ : ثم يوازي
الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين
المستبعدة للقضاء على النازية في بداية
عدوانها على أوروبا : ثم إعادة عدم
الاعتناء بين ألمانيا النازية والاتحاد
السوفيتي : فالحجج الأثافي على روسيا
وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية في
بداية الحرب : فالحقبة البطولية
للفئرو : فالتصام السوفيتي في
مطالعة الجراد الذي كان بداية كطردة
القوات النازية والقارية حتى عقر
دارها ودجرها في برلين .

وهو في مذكراته يتكسب لأول مرة
من كثر من الوثائق والمفاوضات السرية
والأحداث الخطيرة التي دارت وراء
الكواليس وفي آدارات الحسيارات
واجتماعات المستكرين والسيسيين .
ثم هو يقدم تسهاته التاريخية في
تقديم استيف هزيمة والتصام الاتحاد
السوفيتي ونور ستالين في ذلك كاه
مع أبدأ رايه الشخصي في كثير من
وجمل الحرب والشرق أبايرين مثل
أولهاور ويجول وخروشوف وتشرشل
وهو الجعري وهتلر .

والزعماء الثلاثة

مع وصف صادق للزعماء الثلاثة ستالين ، وهتلر ،
وتشرشل الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات ... اثناء
الحرب العالمية الثانية .

اشرف على نشرها واختيارها

عمر أبو النصر

(تصدر عن مكتب « عمر أبو النصر » للتأليف والترجمة والصحافة)

بناية درويش - شارع سورية - بيروت

هـسإبرهف (اللمبى)

آمىع الهقوق مءفوظة للناسر

١٩٧٠

مءاح للءءمىل ضمن مءموعة كبىرة من المءبوعات من صفءة
مءءبءى الءاصة
على موقع ارشىف الانءرنء
الرابء

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تقديم هذه المذكرات

يقسم هذا الكتاب الى قسمين خصصت القسم الاول منه .. بوصف الاشخاص الثلاثة الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات اثناء الحرب العالمية الثانية ، ستالين وهتلر وتشرشل واغفلت (روزفلت) الذي جاء في آخر المطاف ، وذهب لآبته قبل انتهاء الحرب ..

واما القسم الثاني فخاص بمذكرات الجنرال زوكوف اوجوكوف القائد الروسي الكبير الذي صدء الهجوم الالمانى ، عن ستالينغراد ، ومضى يطارد الالمان حتى احتل برلين ، قبل وصول الحلفاء اليها ..

وزوكوف يعطينا في مذكراته صورة دقيقة صادقة عن المعارك التي وقعت في الجبهة الروسية ، والتي خاضها ، او شارك فيها مع القواد الآخرين ، والصورة صادقة لا دماية فيها ، ولا تزوير للتاريخ والحوادث ..

وهو بالاجماع من اعظم القواد المعاصرين وابعدهم نظرا واكثرهم حيلة واشدهم عزما ..

يعرف اين يجب الهجوم واين يكون الدفاع ومذكراته تقدم للقارىء صورة كاملة للحرب على الجبهة الروسية بقلم قائد روسي شارك فيها وكان من المنتصرين ...

القسم الأول

الزعماء الثلاثة

الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية ، والربوا في مصايرها ،
وكانت لهم اليد الطولى في توجيهها ..

ستالين

هتلر

تشرشل

الخصمان وجهها لوجه

سَنَالِيْن



ستالين

الرجل الفاسد

لسنوات خلت انتقل (ستالين) لآبته وحلّ مكانه آخرون ؟ فمن يكون هذا الرجل الذي وقف في وجه هتلر وحكم روسيا حكما حديديا لم يحكمها به شخص قبله ولا بعده ..

لقد اجتمع (هيولومنجن) الذي كان مترجما لونستون تشرشل رئيس الوزارة الانكليزية اثناء الحرب اليه اكثر من مرة ونفذ الى مجالسه الخاصة التي لا يدنو منها الا المقربون . وفي هذا الفصل يقدم الكاتب البريطاني دراسة دقيقة للرجل الرهيب الذي بقي اسمه مغلفا بالغموض :

« مات ستالين منذ اكثر من عشر سنوات ودفن مرتين المرة الاولى في مقبرة العظماء بالساحة الحمراء اثناء حفل كبير والمرة الثانية بعيدا عن الانظار عند اقدام جدار الكرملين .

وفي الاتحاد السوفياتي ، قبل ١٨ شهرا قال لي ثلاثة اشخاص « ان ستالين قد ولى الا ان ظله ما زال معنا » .

ولكن واحدا منهم ، وهو رجل مسن ، قالها بصوت مرتجف كما لو ان الروح يمكن ان ترد الى صاحبها .

ويقول زعماء الحزب الشيوعي الذين خلفوه ، وعلى راسهم نيكيتا خروشوف ، ان الرجل الذي القى ذلك الظل الطويل الامد كان بالتأكيد رجلا شرسا اجرم بارتكاب جرائم وفظائع لا توصف كما قتل السكان بالجملة ، ومع ذلك فان المرء يمكن ان يخرج بانطباع اخر عنه لدى الاجتماع اليه .

لقد استمعت ورايت زعماء الغرب اثناء المؤتمرات والمآدب التي اقيمت اثناء الحرب .. يمتدحون ستالين ويتملقونه في السر والعلن كما كان ستالين يتملقهم بدوره .

رايتهم يصافحون بحرارة تلك اليد التي قال عنها خروشوف انها كانت السبب في مقتل آلاف الاشخاص الابرياء .

ولو كنت في وضع يمكنني من ان اكيل بدوري المديح واتعلق الرجل ، لفعلت ذلك بلا ريب . فانا لم يراودني الشك في حقيقته الا في الآونة الاخيرة وربما كان ذلك لتمكني ، بصفتي مترجما ان اجلس عن كتب وراقب الرجل وادرس تصرفاته .

البوليس السري

ان بعض الجواب على اللغز يكمن في الفموض الذي احاط ستالين نفسه به ، فذلك الجو المصطنع من التعتيدات الذي يلمسه المرء حتى قبل ان يلج بوابة الكرملين ، يترك في الغالب اثره عليه حتى ولو بصورة لا شعورية .

لقد كنا دائما ، وكذلك جميع الزائرين الاجانب ، يطلب اليانا ان نتوجه الى بوابة بورفيتسكي التي تقع على ابعد مسافة من مكتب ستالين ، وكنا نتوجه بالسيارة الى الكرملين عبر مجموعات من رجال البوليس تتألف كل مجموعة منها من رجلين او ثلاثة يرابطون بصورة مستديمة عند كل تقاطع طرق ويتصلون هاتفيا بتقاطع الطرق التالي فيسمع لنا عندئذ بالمرور .

وكانت سيطرة سوداء تؤدي مهمة ارشادية تقودنا مسافة الخمسين مترا المؤدية الى البوابة الرئيسية . وعندما نجتاز البوابة الخارجية يبدأ جرس بالدق بصورة مستمرة ، وتحتوي البوابة المقببة على غرف للحراس من الجانبين ، وكان احد ضباط البوليس السري برتبة ماجور يدق باوراق السائق لم ينظر الى داخل السيارة بينما يقف من حوله ثلاثة او اربعة من ضباط الصف في حالة تأهب . وكانوا جميعا يحملون المسدسات .

ولم يكن الجرس يكف عن الدق الا عندما نخرج من بوابة التفتيش . وعند مدخل قاعة مجلس الشيوخ كان يحيينا فريق آخر من الحراس حاملي المسدسات ، مؤلف من كولونيل وضابطين او ثلاثة برتبة كابتن وعدد من الملازمين . وكان مصعد ينقلنا ببطء مسافة طابقيين بمصاحبة الكولونيل ثم نسير في ممرات طويلة مرتفعة السقوف يقف عند كل منعطف منها حارس مدجج بالسلاح .

وعدا عن الحراس المسلحين ، كانت الممرات مهجورة . كان هناك في داخل البناء نفس السكون الرهيب المخيم على الساحة في الخارج . وبدا المكان مشعبا برائحة التبغ الروسي الاسود .

كانت هناك ابواب ضخمة مغلقة بالجلد الاخضر والبني وقد دخلنا من احدها الى شقة مجاورة لمكتب ستالين .

كان هناك عدد صغير من الضباط المسلحين ، يؤلفون الحرس الشخصي واقفين في ركن من الغرفة ، وقد وقف على رأسهم ضابط يحمل وثبة جنرال . وبدون ان يعلن عنا فتح بهدوء الباب المفضي الى غرفة المطالعة والمؤتمرات .

وعند الطرف الآخر من الغرفة وعلى مسافة خطوات قليلة من المكتب وقف رجل مسن يبدو عليه التواضع الهم وكانت ذراعه اليسرى الشبه مشلولة محنية عند الكوع بحيث استندت يده على خصره . كان يرتدي بزة رمادية بسيطة ترزرر حتى العنق ويضع وساما واحدا فقط هو نجمة بطل الاتحاد السوفياتي المذهبة وقد بدا بنظونه واسما جدا بحيث كاد يخفي مقدمة حدائه وبدا كرجل مسن من طراز قديم .

وعند دخولنا خطا خطوة واحدة او اثنتين نحونا فوق السجادة الفاخرة وكان مترجمه يقف الى جانبه ولكن الى مسافة قليلة الى الورا .

انحنى قليلا وامال راسه جانبا بحيث تجنب النظر الى اي شخص مباشرة . وصافح ستالين جميع اعضاء فريقنا وكانت قبضة يده محكمة ولكن غير قوية ولم تكن راحة يده كبيرة ولكنها كانت لينة .

دعانا ستالين للجلوس حول مائدة المؤتمر الطويلة التي تحتل ثلثي الغرفة التي طولها ٣٠ قدما على المقاعد القريبة من مكتبه . وكان على المكتب ثلاث علب مستديرة تحتوي على عشرات من اقلام الرصاص المدببة ومجبرة كبيرة من الرخام وشمعدان من المعدن يرتكز الى قاعدة رخامية .

لا كهول ..

لم يجلس ستالين عند رأس الطاولة بل تجاهنا وظهره الى الجدار الذي كانت تعلق عليه صور بعض العظماء السوفيات امثال سوفوروف وخضم نابليون كوتوزوف وكانت ظهورنا متجهة الى النوافذ التي تغطي في الليل بستائر حريرية بيضاء .

وكانت على الطاولة منافض للسجائر وعدد من العلب الخضراء الموشاة بالذهب تحتوي على سجائر دوكانت ولوكس وهي اشهر انواع السجائر

الروسية . وكان ستالين يدخن من هذه السجاير في غالب الاحيان . . وقد رأيت مرة واحدة فقط او مرتين خلال ست سنوات يدخن من غليونه .

وخلال الحديث كان ستالين يلتقط قلم رصاص ويخطط على الورق فيرسم في بعض الاحيان اشكالا هندسية تتحول الى حيوانات ذات نظرات وحشية . وفي احيان اخرى يرسم سهاما سوداء عريضة كتلك المستعملة على الخرائط الحربية .

وبعد ساعة او نحو ذلك تقدم زجاجات الشاي مع شرح الليمون داخل اوعية فضية مع قطع الشوكولا . ولم تكن تقدم الكحول في امثال هذه المناسبات .

ان ستالين لم يكن يتجاوز بحال الخمسة اقدم وخمس بوصات طولا وكان قوي البنية الا انه لم يكن عريض المنكبين . وفي هذا الوقت ، اثناء الحرب كان في الرابطة والستين الا ان حركاته كانت خفيفة كحركات القط وكان شعره رماديا كثيفا وشارباه كبيرين الا ان بشرته كانت مفضنة .

وما ان يفیق المرء من دهشته لدى مشاهدة صورة الامبراطور تنكمش امامه الى اقل من حجم الرجل العادي حتى يحدث صوت ستالين صدمة ثانية له . انه ايضا كان بلا لون ولا نبرات وكان على وتيرة واحدة . ويتميز بلهجة جيورجية . وكنت اسمع اللهجة الجيورجية عند الاستهزاء فقط ، واثناء الثواني القليلة الاولى وجدت من الصعب اخذ كلمات ستالين مأخذا جديا . لقد جعلته لفترة من الوقت يبدو مضحكا .

وقد تبين لي فيما بعد ان ستالين كان يتصنع المواقف ويتخذ لنفسه مظاهر مختلفة فحينما كان يبدو امام الزائرين بمظهر الرجل المتواضع الذي يدين بكل شيء الى الشعب وحينما كان يظهر بمظهر الزعيم المتفطرس امام زملائه . وانما خلال فترة ست سنوات لم اسمعه مرة واحدة يضحك ضحكة طبيعية عالية ، واهلى ضحكة سمعتها منه كانت عندما راح المارشال مونتغمري يمازح مولوتوف في حفلة بالكرملين .

فقد تحدث لوزير الخارجية العبوس عما اشيع من انه كان يحيا حياة صاخبة اثناء زيارته لنيويورك . واخذ ستالين يعلق على النكتة ويتوسع بها مطولا بحيث بات المرء يشعر ان هناك بعض التهديد متصلا بالنكتة . وكان مولوتوف يستلم لكونه هدفا لنكات ستالين الا انني لم لاحظ اية ادلة على وجود مضايقة متبادلة .

ولكنني رأيت وجه مايسكي يشحب شحوب الموت عندما شرب ستالين
نخبه في حفلة مشيرا اليه على انه الشاعر الدبلوماسي . فقد سبق ان كان
هناك شاعر دبلوماسي في السلك الخارجي الروسي هو الكساندر
غريبودوف سفير القيصر لدى ايران وقد اغتيل في سفارته بطهران ولم
يثار القيصر لمقتله .

وفي احد الايام رأيت ترجمان ستالين بافلوف يرتعد خوفا من
سيده . فقد اهدى احدهم لبافلوف نسخة او نسختين من كتاب لشاعر
بريطاني ويبدو ان ستالين علم بالامر فقال في حضرته وهو يتصنع المزاح،
« ان بافلوف اصبح على علاقة ودية جدا بالاجانب » .
وبعد ذلك غدا من المتعذر علي ان ابادل الاحاديث الودية مع بافلوف
قبل الاجتماعات وبعدها . وقد حاولت ان ادموه الى المادب ولكنه كان
يعتذر عن عدم قبول جميع الدعوات .

مثل القبر

وفي الحفلات كان يخيم على افراد الوفد السوفياتي صمت شبيه
بصمت القبور وتسري في اوصالهم قشعريرة تكاد تحبس انفاسهم لدى
ظهور ستالين . وعندما يتكلم كان التوتر يخف قليلا ولكنه لا يتلاشى . ولا
اذكر اني شعرت بالاسى للعلاقات بين مخلوقين بشريين الا عندما رأيت
فيشنسكي ، الدبلوماسي والنائب العام السابق القاسي القلب ، في حضرة
ستالين . كان فيشنسكي يتصرف مثل كلب ملغور فينحني ويوميء براسه
موافقا ويتراجع امام سيده وكان ستالين يحتقره بوضوح . وفي احدي
جلسات مؤتمر يالطة سمعت ستالين يقول لعدد من مرافقيه بينهم فيشنسكي
نفسه : « مع فيشنسكي كل شيء ممكن . انه يهب لعمل اي شيء نقوله له » .

وكانت درجات الخوف من ستالين التي تتراوح بين افراد الخدم
المرتبجين في مادب الكرملين حيث يقف رجال البوليس السري خلف كل
واحد منهم بالثياب العادية (بمعدل واحد لكل خادمين) .

وقد كان يعامل كبار الدبلوماسيين امثال ماليك وزورين وغروميكو
وكبار الضباط امثال بولغانين وفاسيلفسكي وكونييف وفورونوف كما لو
كانوا سعاة وكانوا يتصرفون على ذلك النحو في حضرته .
وبين الدبلوماسيين بدا لي ان ليتفينوف كان اكثرهم احتفاظا بكرامته

ومهابته . الا ان ليتفينوف كان يبدو دائما منطويا على نفسه .
وبدا ان مولوتوف فقط كان متحررا من عقدة الخوف التي ارتسمت
بصورة دائمة على وجوه الآخرين فقد كان ستالين يسخر منه جهارا وكان
هو يتقبل السخرية بدون مبالاة .

وقد ذكرتني العلاقة بينهما بالعلاقة بين معلم المدرسة والتلميذ
المجتهد . ف عندما كانت تثار نقاط دقيقة اثناء المحادثات مثل المحادثات التي
جرت حول برلين في الكرملين ، كان مولوتوف يبدو وكأنه حضر درسه واعد
الاجوبة لستالين وفي بعض الاحيان كان يكب قسوق المائدة ليصحح ارقام
سيده . ولم ار اي رجل آخر بين مستشاري ستالين يجرؤ على مقاطعته او
التصحيح له . واثناء جنازة ستالين في ٩ اذار عام ١٩٥٣ ، القى مولوتوف
ومالينكوف وبيريا خطبا تأبينية وكان مولوتوف الوحيد بينهم الذي قيل انه
بكى وانا اصدق ذلك .

كان ستالين يطلب في الحفلات الاجتماعية الى الاميرالات ان يحضروا له
زجاجات الشاي ويطلب الى الجنرالات ان يحضروا القهوة .

وفي احدى المرات عندما سأل ستالين المارشال مونتغمري بعد العشاء
اذا كان يرغب في مشاهدة فيلم في السينما الخاصة بالكرملين واعتلر
الاخير عن ذلك بحجة انه سينهض باكرا في اليوم التالي لكي يعود الى
بريطانيا علت وجوه الضباط الذين كانوا هناك علامات الاستغراب كما لو
كانوا لا يصدقون اذانهم واستخلصت من تمتعهم كلمة « سميلو » اي تلك
جسارة ولكن عندما تحول ستالين اليهم وحدجهم بناظريه التزموا الصمت
فورا .

كلب مسن لا نفع منه

واقرب معاملة الى الشفقة كانت معاملة ستالين لفوروشيلوف الا انها
كانت خالية من العطف . كان فوروشيلوف يقف في حضرة ستالين وقفة
ضابط عسكري ذي امجاد غابرة وكان ستالين يعامله ككلب مسن لا نفع منه
وقد ابقى عليه كتذكرا لايام اكثر مفاخرة . وحسب الروايات السوفياتية،
كان فوروشيلوف احد الضباط العظام في الحرب الاهلية ضد البيض .
وكان يظهر في كل مكان بيزة مارشال وبقي عضوا بالمجلس الحربي الا ان
ستالين كان يذله وقتما يشاء .

وفي اول جلسة كاملة بمؤتمر طهران قال ستالين انه لم يتوقع ان تجري اية مناقشات عسكرية ولهذا فهو لم يحضر اي خبراء عسكريين . ولكنه اضاف قائلا ان فوروشيلوف قد يؤدي المهمة وسيحاول جهده . وكان فوروشيلوف ينظر الى ستالين بعينه الصغيرتين المستديرتين ولم يرف له جفن .

اما تصرف ستالين مع الاجانب فكان مختلفا . . كان يتصنع الاهتمام ولم يسمح لنفسه ان يبدو متضايقا ولكنه مع ذلك كان يحب مضايقة الآخرين .

استقبل ستالين في الكرملين عام ١٩٤٨ ، اي بعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة بوتسدام ، ثلاثة مندوبين غربيين جئوا يحاولون ايجاد حل ما لحصار برلين . فقبل ان تنته المجاملات والتحيات التقليدية بادر المندوبين بقوله :

« هل لديكم سلطة للتفاوض ؟ »

وكان ستالين يعلم ان المحادثات ستكون استطلاعية فقط في تلك المرحلة وقد قصد بملاحظته تلك ان يتسلم المبادرة ويضع الغربيين في موقف دفاعي .

وكرر المناورة نفسها في الاجتماع التالي عندما قال :

« هل تريدون تسوية القضية برمتها الآن ؟ لدي خطة بشأن برلين وهي مكتوبة وجاهزة في انتظار موافقتنا » .

كان يتشدد في مواقفه ويتراخى حسبما تلحق الحاجة وكان يرسل الى تشرشل واحيانا الى روزفلت برقيات عنيفة يتحدث فيها عن فشل مزعوم لقوافل الحلفاء في نقل مواد حربية الى روسيا . ولكن عندما زار مبعوثا تشرشل ، ايدن وايسماي ستالين بعد ذلك بوقت قصير كان يبدو ستالين امهمهما في غاية اللطف والبشاشة . لقد سمعته يتحول من التهديد الى المنطق المجرد في اقل من دقيقة وينتقل من المجاملة واللطف الى التوبيخ اللفظ بسرعة مماثلة كل ذلك دون ان يرفع صوته .

زيارة مونتغمري

كان يفرض سيادته باشكال متعددة . ففي احدى المرات عندما زاره مونتغمري حمل اليه هدايا بينها الثان من كتبه وصندوق من الويسكي حملته

بنفسي الى مكتب ستالين ، وقد بادره ستالين بالقول دون ان يلتفت الى الصندوق وقبل ان يكمل مونتميري عبارات التحية : «نعم ؟ والآن ماذا تريد مني ؟ » .

وقد بقي ستالين محافظا على موقف التعالي ذلك طوال المقابلة . وقبل انتهائها بقليل ، اخرج مونتميري كتاب اوتوغراف وطلب الى ستالين بكل تهذيب ان يكتب شيئا فيه فتصرف ستالين كما لو انه لم يفهم ما قيل (رغم اني تذكرت بانه في بوتسدام مشى ستالين حول المائدة في احدى المناسبات واخذ يجمع اوتوغرافات على لائحة الطعام) .

اما الآن فظل يتظاهر بعدم الفهم الى ان اضطر مونتميري الى اتخاذ الموقف الذي بدا فيه كما لو كان يستجدي . ثم نهض ستالين متباطئا عن مائدة المؤتمر وسار نحو مكتبه حيث التقط ريشة وكتب جملة دون توقف . وقد حول مونتميري الكتاب الي لا ترجم ما كتب فاذا به يكتفي بنقل « تحياته الى الجنود البريطانيين » .

ذاكرة قوية

وتهكم ستالين على تشرشل من طرف خفي في بوتسدام عندما تحدث البريطانيون عن المصاعب التي سيتعرض لها الشعب البريطاني في الشتاء القادم اذا اضطروا بسبب مقترحات ستالين الخاصة بالمرور لان يزودوا جزءا من اوروبا بالفحم المقطع من مواردهم المستنزفة . فقد رد ستالين بقوله ان روسيا في وضع اسوأ كثيرا واضاف قائلا ان في استطاعته ان يطلع المؤتمر على حقيقة الاوضاع في روسيا ولكنه يخشى لو فعل ذلك الا يتمالك تشرشل نفسه عن البكاء . وقد احمر وجه تشرشل قليلا وبدا متضايقا .

من الخرافات المتصلة بستالين التي ما زالت قائمة في الخارج انه كان يتمتع بلذهن سريع حاد وكلامه مفهم . صحيح ان ذاكرته كانت جيدة وكان يضع هدفه دائما نصب عينيه ، ولكن اذا كان ستالين يوجز الكلام ويتحدث في الموضوع بلا مداورة ، فذلك يرجع لكونه لا يحسن الخطابة . والرات الوحيدة التي سمعته فيها يتحدث بصورة مطولة كانت عندما يشيد بنفسه (مثلما فعل عندما حاول ان يقنع زعماء الحلفاء بانه هو وليس جوكوف بالذي انتصر في برلين) ففي امثال تلك المناسبات كان يتحدث

لمدة ثلاث دقائق تقريبا . ثم ان التحدث بواسطة مترجم يعطيه فرصة طيبة لجمع افكاره .
كان معظم الزعماء الغربيين الذين قابلوا ستالين يؤكدون انه رجل شجاع . ويقدر ما يتطلب البطش من شجاعة ، كان ستالين متمتعا بنصيب من تلك المزية ولكن اذا كان الانشغال غير الطيبي بالسلامة الشخصية والخوف القائم من الموت ينمان عن الجبن ، اذن فهو كان ايضا جبانا في قلبه .

حرص على السلامة

فني بالطة ، في اليوم الذي كان مقررا فيه ان يحضر ستالين طعام العشاء في فيلا فورنشوف حيث كان يقيم الوفد البريطاني ، بدأت مهمة المحافظة على ستالين في الصباح وكانت اكثر تشديدا مما حسب مضيفه تشرشل ، وكان الجنود السوفييات يلدعون ارض الحديقة باستمرار لحراسة الوفد البريطاني ولكن في ذلك الصباح انتقلت التعزيزات الى المشارف الجبلية في الخلف وانضم جنود جدد الى الحراس العاملين في الحديقة .

وكانت تقوم على جانبي الدرج الرخامي العريض الموصل الى الحديقة مجموعات من تماثيل الاسود ، وقد قام الجنود السوفييات بتفتيش كل واحد منها خشية ان تكون بداخله متفجرات . ثم فتش سقف الفيلا بكامله . وقبل موعد العشاء بقليل اقفلت جميع الابواب المؤدية الى غرفة الطعام .

وكان ستالين مصابا بمركب نقص فعلى الرغم من انه يتجنب النظر اليك مباشرة عندما يتكلم الا اني لاحظت بانه عندما تؤخذ الصور كان يتعمد ان يقف في مكان يظهر فيه اعلى من الآخرين قليلا او على الاقل يصلح وقفته اذا كان المكان منحدرًا قليلا .

وفي بوتسدام اصر بصورة صبيانية على ان يكون البادي بمتوقيع البلاغ النهائي . وكان ستالين يحب التملق الا انه لم تكن لديه بالنفس التي لدى خروشف فننما قال له روزفلت مازحا حول مائدة الطعام في بالطة انه وتشرشل يدعوانه فيما بينهما « بالعم جو » بدا عليه الاستياء الشديد . ولم يتمكن سوى جزء ضئيل جدا من ال ٢٠٠ مليون سوفيياتي من مشاهدة ستالين شخصا ومعظمهم كان يراه من شرفة بعيدة اثناء استعراضات الساحة الحمراء .

وقليلون جدا هم الذين كانوا يطمعون ابن يسكن ويعمل ، واقرب ما توصل اليه معظم المواطنين السوفييات من ستالين ، كان عن طريق صندوق بريد عادي انشئ في جدار الكرملين وحمل لقب ستالين الحكومي دون ان يحمل اسمه فهنا كان اصحاب المرائض التعساء يلقون باوراقهم ملتصين الرافة ببض الاقرباء او الاحباء الذين يجري اعدامهم لابقاء ستالين على قيد الحياة او للمحافظة على سلطته .

ان ستالين لم يجعل شعبه يرهبه فقط بل جعله يخشى بمضه . فمنذ كانت قرعة الباب التي يقوم بها البوليس السري في منتصف الليل مألوفة مثل زيارة ساعي البريد ، كانت النكتة السائدة في موسكو ، ان يقول بواب لبناية عندما يضطر الى قرع الباب في الليل : « لا تخافوا ايها الرفاق ! انها مجرد حريقة في البناء » .

آلة عمر ستالين

في ذات يوم من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ ، وقفت سيارة سوداء امام عيادة الدكتور « فلاديمير فروموفين » طبيب القلب المروف في موسكو . ونزل منها ضابط يرتدي بدلة خضراء زاهية ، زينت ياقتها وطرفا كميها بالاشرطة القرمزية التي يميز بها اصحاب الرتب الكبيرة في فرق البوليس السري الروسي . ودخل الرجل الى غرفة الطبيب مباشرة ، ثم قال له بعد ان حياه تحية خاطفة :

« لقد حضرت لاخلذك معي الآن ! »

ولم ينبس الطبيب بكلمة ، فقد كان يعرف حق المعرفة ما تمنيه المعارضة في مثل هذا الامر ، وعلى هذا خلع معطفه الابيض ، واتقى على الممرضة تعليمات مقتضبة ، ثم تبع الضابط الى سيارته المنتظرة بالباب ، فانطلقت بهما عبر شارع « الاربات » - وهو من أحدث شوارع موسكو وافخمها - حتى بلغت الكرملين ، ودخلته من باب جانبي !

وبعد نصف ساعة كان الدكتور فروموفين يقف امام رجل اصلع ضئيل الجسم في نحو الخمسين من عمره ، يضع على عينيه نظارة ذات عدستين سميكتين ، هو الدكتور « الكسندر فرانكل » كبير اطباء ستالين ، والمساعد السابق للعالم الروسي « بوجومولتز » صاحب التجارب المروفة لاطالة العمر .

وقال له فرانكل في عصبية ظاهرة :
« لقد دموئك الآن لابلغك أن « لجنة الكرملين للبحوث الطبية السرية »
قررت ضمك اليها ، واسندت اليك مهمة الاشراف على قسم القلب في
مستشفى خاص بالقوقاز !

وبقى فروموفين هنيهة صامتا ثم تمت بضع كلمات اراد بها ان يعبر عن
شكره لاسناد هذه المهمة اليه ، ولم يمض على ذلك اسبوع حتى كان في
مدينة « كسلوفودسك » بالقوقاز ، حيث وجد في انتظاره سيارة يقودها
احد رجال البوليس السري ، فاستقلها الى مجموعة من الابنية يحيط بها
سور عال يحرسه لفيف من رجال البوليس المزودين بالمدايع والبنادق سريعة
الطلاق . وهناك استقبله طبيب كان يعرفه من قبل هو الدكتور
« سابورسكي » وهو أيضا من أعوان « بوجومولتز » السابقين ، ثم شرح له
- لأول مرة - مهمته بالتفصيل !

وكانت اللجنة الطبية للبحوث السرية قد بدأت منذ سنة ١٩٣٩ تجري
تجارب خاصة ، تهدف الى اطالة عمر ستالين حتى المائة . وقد اوفدت في
تلك السنة نخبة من اطباء موسكو التابعين لها الى بلاد القوقاز حيث طافوا
بكثير من المدن والقرى هناك ، يصحبهم عدد كبير من رجال البوليس ، ومعهم
سيارات بها اجهزة دقيقة للاشعة والتحليل البكتريولوجية ، وبعد ان
فحصوا الآلاف من الاهلين المسنين ، اختاروا من بينهم مائتين كلهم من أبناء
القرى الجبلية ذوي الاكتاف المريضة والاجسام الفارغة القوية ، ونقلوهم
الى معهد التجارب البيولوجية في « كييف » حيث أجريت عليهم سلسلة
اخرى من البحوث ، ثم اختير من بينهم ثلاثون ، رومي في. كل منهم ان
تكوين جسمه يشبه الى حد كبير ، تكوين جسم ستالين من حيث طول
القامة والوزن والقوة العضلية وفصيلة الدم . كما رومي اتهم جميعا مثله
يسرفون في التدخين وتناول المشروبات الكحولية المعتدلة . ثم اخذ المختصون
يعربون في هؤلاء الثلاثين ما اهدوه من العقاقير والاصصال لاطالة عمر
ستالين ، وفي الوقت نفسه قرض عليهم ان يقضوا اوقاتهم بالطريقة التي
يقضي ستالين وقته بها من حيث ساعات العمل الرسمية التي يقضيها
جالسا الى مكتبه ، وساعات النوم والرياضة والنظام الغذائي الذي يتبعه
وعدد السجائر التي يدخنها وما الى ذلك ..

وقد توفي منهم في الاشهر الثلاثة الاولى احد عشر رجلا ، ثم توفي
ثلاثة آخرون في الاشهر التسعة التالية ، فاختير بدلا من هؤلاء الاربعة عشر

آخرون من بلاد القوقاز الجبلية ، واستمرت هذه التجارب حتى اوقفت بسبب الحرب حتى سنة ١٩٤٦ ثم تقرر استئنافها ، واعدت لذلك مصحة خاصة بمدينة « كسلو فودسك » بدلا من معهد البحوث في كييف !

وكان من بين أولئك النزلاء « جاكوف جيلادزي » أحد أبناء عم ستالين ، وهو يشبهه الى حد كبير ، حتى انه ناب عنه في الظهور امام الجماهير في بعض المناسبات خلال الحرب . وقد حرص المشرفون على التجربة ان يجعلوا « جاكوف » هذا يقلد ستالين في كل صغيرة وكبيرة في نظام حياته . فلما اشير على ستالين سنة ١٩٤٦ ، بأن يقلل وزنه باتباع نظام غذائي خاص ، امر « جاكوف » باتباع النظام نفسه فنقص وزنه - كما نقص وزن ستالين - أحد عشر رطلا !

المصحة الغربية

كانت هذه المصحة الخاصة مؤلفة من اربعة ابنية ، كل منها طبقتان . وقد الحق بها اسطبل عصري زود بالآت لتكييف الهواء ، به ثلاثة جياد أصيلة يشرف عليها أخصائي في الامصال وطبيبان بيطريان وعدد كبير من المساعدين ، ليستخلصوا منها مصلا خاصا اكتشفه « بوجومولتز » وأطلق عليه اسم « ا. ك. س » مؤكدا انه كفيل بمقاومة شيخوخة الخلايا والأنسجة في الجسم ، وخاصة أنسجة الاوعية الدموية . اما طريقة الحصول على هذا المصل فهي حقن هذه الجياد المختارة بمواد مستخلصة من نخاع العظام والطحال للشبان الأقوياء الذين يقتلون في الحوادث ، ثم استخلاص المصل بعد ذلك من دماء هذه الجياد .

وقد تعاونت المستشفيات الروسية - خلال السنوات الاخيرة - مع المشرفين على اجراء هذه التجارب بارسال ضحايا الحوادث من الشبان الأقوياء ، بالطائرة الى المصحة .

وكانت مهمة الدكتور « فروموفين » أخصائي القلب ، مراقبة قلوب نزلاء المصحة ومعرفة اثر الامصال والعقاقير على قلوبهم . ومن الادوية التي جربت فيهم ، دواء اسمه « رقم ٣٧ » لاحظ فروموفين انه يقلل ضربات القلب الى ثلاثين ضربة في الدقيقة من غير ان يؤثر ذلك في صحة المريض او يقترب من مضاعفات .

وقد سمع « فروموفين » اثناء اقامته بالمصحة - لأول مرة - بما



ستالين يحاولون اطالة عمره

يسمونه في روسيا « آلة الحياة » وهي آلة ابتكرها احد اطباء الكرملين ، تقوم بوظائف القلب والرئتين والدورة الدموية خلال الدقائق الست التي تعقب توقف القلب ، وتتلف خلالها انسجة المخ اذا لم يصل اليها دم .. وبذلك تعطي للجراحين والاختصاصيين في القلب فرصة علاج العطب الذي اوقف أجهزة الجسم عن اداء وظائفها .

وقد صنع مبتكر هذه الآلة جهازا خاصا لستالين ، لا يزيد حجمه على حجم « البيانو » ، ويرتكز على عجلات حتى يمكن تحريكه بسهولة . وفي السنوات الثلاث الاخيرة ، كان هذا الجهاز ومبتكره لا يفارقان ستالين حتى في أسفاره بالقطار .

وكان المشرفون على تجارب اطالة عمر ستالين يأملون ان يبلغ المائة ، لا بسبب الامصال وحدها وانما بسبب الوراثية ايضا التي ثبت انها عامل هام في طول العمر . فجد ستالين بلغ التاسعة والثمانين ، واثنان من اعمامه بلغا الرابعة والتسعين ، وعاش قريب آخر له حتى تجاوز المائة . وبرغم ذلك كله ، مات ستالين في الثالثة والسبعين ولم تفلح التجارب الطويلة المعقدة التي قام بها اولئك العلماء ..

هتلر في حياته الخاصة والعامة

بقلم البرت شبير
الوزير الألماني السابق



وقد كتب (شبير) مذكراته هذه بعد خروجه من سجن الحلفاء في
سنة ١٩٦٥ ، بعد أن امضى فيه ٢١ سنة ..

ما من احد سيمستولي على السلطة - اية سلطة - مديرا كان فسي
مؤسسة او رئيسا لحكومة او ديكتاتورا الا ويواجه القضية الزمنية ... وهي
انقلاب الحاشية الى طفمة من المالمثين وماسحي الجوخ ... الذين
يفسدون اجواء الحكم ونظامه ويفسدون سيدهم نفسه .

وكان لهتلر طريقة غريبة في العمل ابتداء من سنة ١٩٣٧ تقضي بان
يعيش في عزلة متزايدة . ومما زاد الطين بلة انه لم يكن قادرا على اقامة
علاقات شخصية مع احد . ففي الشلة المقربة من الزعيم النازي كنا نبحت
احيانا في التبديل الذي بدأ يطرا عليه . واتيحت لنا فرص عديدة لمراقبة
ذلك في اثناء اقامتنا مع هتلر في عزلته في جيله الخاص .

وكان ملرتن بورمان سيد منتجع اوبر سالزبرغ الحقيقي دون منازع .
فاشترى عددا من المنازل والمزارع القديمة اجباريا وهدمها واشترى عددا
من المنازل القائمة على الطريق وهدمها . . والار غضب السكان المحليين .
ثم زين هذه البقعة بشبكة من الطرق واقتلع اشجار الصنوبر وجعل من
الدروب بين الاحراج والتلال طرقا معبدة بالاسفلت واقام كنكات لحراسة
هتلر ومرابا كاملا لتصليح سيارات الزعيم . وفندقا لايواء الزائرين .
ومزرعة كبيرة لتأمين حاجيات الزعيم والحاشية ومباني سكنية للموظفين
المتزايدين . وانتشرت اكواخ لمئات العمال العاملين في ورشات بورمان على
المنحدرات في الطرق والمباني ، كما تناثرت المئات من سيارات الشحن وهي
تقل مواد البناء الى مقر الزعيم . واضيء عدد من الاماكن بالانوار الساطعة
في الليل لمساعدة العمال المناوبين على القيام باعمالهم الليلية وانجاز ما
يترتب عليهم انجزه في اسرع وقت . وكانت تلفم بعض الصخور احيانا
وتدوي اصوات الانفجارات في الوديان .

اختصاصيات بورمان

ولم يكن هتلر يانس كثيرا باصوات العمل المصم - للاذان ولكنه كان
يقول « هذا من اختصاص بورمان وليس علي ان ادخل بالامر » . وقال في

مناسبة أخرى « حين ينتهي العمل كله سأبحث عن واد هادىء آخر وابني فيه بيتا صغيرا من الخشب كبيتى السابق ابتعادا عن الضجيج » .
والواقع ان العمل لم ينته . فقد كان بورمان يدأب باستمرار على اقامة الطرق والمباني .

وحين نشبت الحرب العالمية الثانية بدأ بورمان يعمل لانشاء مقر لهتلر ومساعديه تحت الارض .

وحين كانت تجري المباحثات الرسمية كان ضيوف هتلر الشخصيون يقصون الى الطبة الاولى من المنزل . وبما ان السلم هناك يؤدي الى غرفة الانتظار الخاصة بمكتب هتلر فقد كان على كل من يريد ان يقوم بنزهة ان يوفد حارسا مسبقا لياخذ الاذن باجتياز المكان .

وفاخر هتلر كثيرا بنافذة غرفة الجلوس الخاصة التي كان بالامكان انزالها تماما لتشرف على اوسع المناظر الطبيعية واشملها وكانت مشهورة بكبرها واتساعها .
كما كان بالامكان مشاهدة انترسبرغ وبرشفاد وسالزبورغ منها .

مائدات كفاحي

والجدير بالذكر ان هتلر اقام بوحى من نفسه كراج سياراته تحت هذه النافذة . وكثيرا ما كانت تهب الرياح المعاكسة فتنتقل رائحة البنزين الى انفه واتوف رفاقه .

والمؤسف ان تخطيط الطبة الارضية لم يكن يتسم بلمسات فنية تعبر عن خبرة واختصاص ومع ذلك اتسمت الحياة في مقر هتلر الريفي بطابع خاص تميز بالهدوء كما يتميز بالضخامة في كل شيء . وعمادى بورمان في النفقات مما اخرج وضع هتلر المالي .

وقال هتلر مرة : « انفقت كل مائدات كتاب كفاحي وقد طلبت من الناشر ان يسلفني بعض المال على حساب المائة الف نسخة الاخيرة ومع ذلك فقد ابلغني بورمان ان المال لا يكفي لسد النفقات » .

وهكذا جلس هتلر الذي سجن نفسه في عزلة يرنو بانظاره الى انترسبرغ التي تقول الاسطورة ان امبراطورا من القرون الوسطى المنصرمة سينهض في يوم من الايام . لاعادة مجد امبراطوريته .

وقد طبق هتلر قول الاسطورة على نفسه وكان يقول « انرى مدينة انترسبرغ هناك ؟ .. يبدو ان اشراف بيتي عليها ليس من باب الصدفة .. » ولم يكن اندفاعه للبناء في منطقة اوبرسالزبرغ هو كل ما يجمع بينه وبين بورمان . والا هم من كل ذلك ان بورمان اعد الترتيبات ليستولي على جميع الموارد المالية الخاصة بحكومة هتلر حتى باتت مساعده هتلر يعتمدون على بورمان في قضاياهم المالية كما ان ايفا براون نفسها التي اعترفت لي في وقت لاحق كانت تتطلع الى بورمان ليحقق لها مطالبها المعتدلة .

وكان بورمان منذ سنة ١٩٣٤ وما بعدها يعمل في اصرار ومكابرة وعناد من اجل مبدأ اخر بسيط وهو ان يكون في متناول ولي نعمته في جميع الاوقات والظروف . فقد كان يرافق هتلر في مقر برغوف الريفي ويسافر معه في جميع تنقلاته ولم يترك جانبه دقيقة واحدة في المستشارية حتى الساعات المبكرة من الصباح، واصبح بذلك السكرتير المجتهد الموثوق به والذي لا يستغنى عنه .

وحتى في هذه المرحلة كان مساعده هتلر يحددون بعضهم بعضا ويستعدون لمعركة الجبارة . ففي هذه الايام الاوائل جرت عدة مناكفات حول السلطة بين غوبلز وغورنغ وروزنبرغ ولي وهلمر وريبنروب وهس . وكان كل واحد منهم مأكدا من ان بورمان الذي لا يكل ولا يمل يهدد مركزه شخصيا . وكانت قسوة بورمان بادية في تصرفاته مع كل طلاب السلطة .

وتفاديت انا شخصا الاحتكاك مع بورمان ، فقد كنا نكره بعضنا منذ البدء ، ولكننا كنا نبادل بيننا المجاملات التي يتطلبها الجو الرسمي في اوبرسالزبرغ .

وكثيرا ما كان يردد هتلر ان بقاءه في « الجبل » يتيح له جو من السلام الفكري والثقة النفسية والراحة الذهنية الضرورية لاتخاذ مقرراته المدهلة .

برنامج السلطة

وكان يهبط عادة من جناحه الخاص في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا فيتناول الانباء الصحفية ويستمع الى بعض المعلومات من بورمان ويتخذ القرارات الضرورية .

ولا يبدأ نهاره حقيقة الا على وقعة غداء مطولة . فيجتمع الرفاق به في قاعة الانتظار .

وقد اختار هتلر رفيقته فكانت ايفا براون تجلس الى يساره دائما . واخذ بورمان منذ سنة ١٩٣٨ على عاتقه امر ادخال ايفا براون معه الى الغداء وبذلك يظهر مقامه الكبير في بلاط الزعيم النازي .

كانت قاعة الطعام تتميز بديكور جميل خاص بالمنازل المصعدة لتمضية العطلات الاسبوعية لدى الانرياء . وكانت الاطباق بيضاء عادية اما الفضية فقد دمغت بشعار هتلر الخاص .

وتميز طعام هتلر بجودته وبساطته فهو يتألف عادة من حساء ووجبة لحم وحلوى مع مياه معدنية او نبيد .

اما الخدم فكانوا من الباخرة « ليستاندارت » وكانوا يرتدون سترات بيضاء وسراويل سوداء .

وجرت العادة ان يكون حوالي ٢٠ شخصا حول المائدة الطويلة التي يصبب المتحدث حولها بسبب امتدادها .

وكان هتلر يجلس في الوسط يواجه النافذة ويتحدث الى الشخص المقابل له الذي كانت عملية اختياره تجري يوميا او يتحدث الى السيدة الجالسة الى يمينه .

بيت الشاي

ويحين بعد ذلك موعد توجه الموكب الى « بيت الشاي » بعد تناول الغداء بوقت قصير .

وقد كانت العملية موكبا فعلا ذلك لان المر ضيق لا يتسع لكثر من شخصين وكان يتقدم الموكب اثنان من رجال الامن يأتي بعهما على مسافة غير قصيرة هتلر والشخص المرافق له في ذلك النهار ثم الرفاق الآخرون يلحق بهم عدد اكبر من رجال الامن .

ومما كان يثير غضب بورمان هو ان هتلر يتفادى السير في الممرات المبهدة في نصف الساعة التي يمضيها في الاحراج ويختار طرقا غير معبدة . ويقوم « بيت الشاي » ل في مكان يحبه هتلر ويشرف على وادي



هتلر وغوبلز

برشتسفادن . وكان الرفاق دوما يثنون على المنظر الطبيعي فيرد عليهم هتلر بالجواب المناسب . والبيت هو كناية عن كوخ يضم حجرة مستديرة قطرها حوالي ٢٥ قدما . فيجلس افراد الشلة على كراس مريحة حول طاولة مستديرة وتجلس ايضا براون مرة اخرى الى جانب هتلر بينما تجلس سيدة اخرى الى الجانب الاخر . ويتوجه كل من لا يجد مكانا له يجلس فيه الى غرفة صغيرة مجاورة . وفي الكوخ يقدم الشاي او القهوة والكاكاو بالنسبة الى رغبة كل شخص بمفرده بالاضافة الى بعض الحلويات والكاتو تتبعها المشروبات الروحية المهضمة . .

وكانت تلك الفترة هي المناسبة التي يطلق فيها هتلر لنفسه العنان في مونولوج لا نهاية له يكرر فيها مواضيع يعرفها الاصحاب جيدا فيخفون بطبيعة الحال عدم اهتمامهم بالامر خلف ستارة سميكة من الاصفاء التام . وكان هتلر يغفو احيانا في اثناء حديثه فيفتنم الصحاب الفرصة ويبدأون

بالتحدث همسا وهم يأملون ان يفيق في الوقت المناسب لتناول العشاء .
وكانت فترة تناول الشاي تستغرق حوالي الساعتين وتنتهي في
السلامة السادسة . فينهض هتلر ويقوم بمسيرة اخرى لمدة ٢٠ دقيقة الى
حيث تقف السيدات بانتظاره ..
ولدى العودة الى مقر برشهوف يصعد هتلر عادة السلم الى جناحه
الخاص وتفرق الشلة .
وغالبا ما يختفي بورمان في احدى حجرات السكرتيرات الصغيرات
تحقيقا لتعليمات ايفا براون .

برنامج السهرة

ويجتمع الافراد بعد ساعتين لتناول العشاء حيث تجري مراسم مطابقة
لمراسم الغداء . ويتوجه بعدها هتلر الى قاعة الجلوس مرة اخرى مع
الرفاق انفسهم .

وكنا نجلس على الارائك او الكراسي فترتفع سجادات الجدار ويبدأ
القسم الثاني من السهرة بعرض فيلم سينمائي . وكانت الافلام عادة كما
تكون في برلين منوعة خفيفة ذات فكرة تقوم على حب وتله . وكان هتلر
مولعا بالافلام الموسيقية التي تتميز بالسيقان العلوية .

ونجتمع بعد العرض حول المدفأة الكبرى يجلس ستة او ثمانية منا على
اربكة طويلة منزعجين بينما يكون هتلر جالسا بين ايفا براون واحدى
السيدات على كراس مريحة . والواقع انه بسبب ترتيب المقاعد المقصود لم
يكن الكلام ممكنا بين الحضور . فقد كان كل شخص يتحدث الى جاره
بصوت خافت . بينما كان يتحدث هتلر بصوت خفيض في امور عادية تافهة
الى السيدتين حوله او يهمس اشياء باذن ايفا براون وهو يتناول يدها
بين يديه .

وغالبا ما كان يجلس دون ان يتفوه بكلمة ويحدق في المدفأة فعندها
نصمت تملأا لنتيح له جوا من التفكير العميق .

وفي وقت لاحق تولى هتلر عن العرض السينمائي في السهرات في
سنوات الحرب العالمية الثانية وذلك تعاطفا مع الجنود في حرماتهم من
التمتع بمثل هذه اللحظات الحلوة . وكانت تدار اسطوانات موسيقية بدلا
من ذلك .

وعلى الرغم من ان لهتلر مجموعة من الاسطوانات تتبوا المرتبة الاولى الا ان برنامج السهرة كان متشابها في جميع السهرات يبدأ بمقطع او مقطعين من اوبرا لغاغنر ثم يتحول الى اوبريت خفيفة .
وكان هتلر يطمح لمعرفة اسم المغني او المغنية ، وكانت علامات الزهو والاعتزاز ترسم على محياه حين « يحزر » الاسم ...
وكانت الشمبانيا تدار في هذه السهرات البسيطة التي لا تتوفر فيها السلوى . وبعد احتلال فرنسا اصبحت الشمبانيا التي تقدم لنا من النوع الرخيص .

الليل الطويل

وتمتع غورنغ ومارشالات الجو التابعون له بافضل انواعها فلم يكن باستطاعة احد منا ابتداء من الساعة الواحدة صباحا ان يكبت ثناؤه مهما حاول . وكان امامنا ساعة كاملة من الفراغ الملئ المزيج الرتيب .
فتهمس اتناءها ايفا براون بعض الكلمات لهتلر وتصد الى الجناح الخاص . وينهض هتلر بعد ربع ساعة ويتبعها الى الجناح الخاص ايضا .
وبعد هذه الساعات الملهة نجد متنفسا لنا فننغمس في الاحاديث والشراب وكاننا تلاميذ مدرسة في فرصة بعد عشاء الدرس .
وفي حوالي الساعة الثانية صباحا كنا نذهب الى بيوتنا منهوكي القوى من عناء الفراغ القاتل .
وكننت بعد مضي بضعة ايام في هذا الفراغ الرسمي اشعر انني قد اصبت « بمرض الجيل » بسبب هذا الاستمرار في اضاءة الوقت .
وكننت لا انصرف مع الموظفين الذين تحت امرتي الى المخططات المكتبية وشؤون اعمالنا الا حين تبدأ محادثات رسمية مع الفوهرر فتقطع علينا استمرار الفراغ لننصرف الى اعمالنا المفيدة .
ولم يكن بإمكانني ان انهرب من هذه السهرات الملهة البفيضة باعتباري من المقربين للرئيس ومن ذوي الاولوية عنده في اورسالزبرغ .

رأي الزعيم في المرأة

وجرت العادة ان تظهر ايفا براون في المجالس بحضور كبار اعضاء الحزب القدامى . ولكنها كانت تختفي في المجالس بحضور اعيان المريح

كالوزراء مثلا . فحين حضور غورنغ وزوجته كان يترتب على ايغا براون ان تلزم حجرتها .

وكنتم ارافقها فى بعض الاحيان الى غرفتها المنفردة المجاورة لمخضع هتلر .

كانت حبيسة مربكة لانها لا تجرؤ على مغادرة البيت للقيام بنزهة . وقالت لي مرة « قد التقى بغورنغ وزوجته في الطريق » .

ولم يكن هتلر يابه كثيرا بوجودها .. وكان يبحث امامها دون تحفظ في وجهة نظره في المرأة فيقول :

— « ان اصحاب الذكاء الخارق من الرجال يجب ان تتوفر لديهم نساء حمقاوات غير مثقفات ... فكروا في الامر ... ماذا لو كان عندي زوجة تجادلني في عملي وتتدخل في شؤوني . انني فسي اوقات فراغي أحب أن ابقى وحيدا . ولذا لا يمكنني ان الزوج .. يا للاولاد كم يسهمون في المتاعب واوجاع الراس .. وبطبيعة الحال سيحاولون ان يجعلوا ابني خلفا لي ... فالواقع ان رجلا مثلي لا امل عنده في ان يكون له ابن قدير .. هذه هي الحياة .. انها هكذا .. اليكم ابن غوته .. انه فرد ميثوس منه .. »

ويسترسل هتلر في الحديث فيقول « كثيرات من النسوة يحطن بسي لانني رجل غير متزوج ... وكان لذلك اثره حين كنا في مرحلة الكفاح .. انها نفس المشكلة مع نجوم السينما .. فهم حين يتزوجون يفقدون الكثير من مقامهم في عيون المعجبات بهم . وبذلك لا يحرزون فسي عيونهن مقام المعبود » .

وكان هتلر مقتنما في قرارة نفسه بانه من الناحية الجنسية جذاب جدا للمرأة ... وهنا ايضا لم يكن هتلر واثقا من نفسه .. فهو لم يعلم ما اذا كانت المرأة قد اصجبت به لانه مستشار الريخ او لانه مجرد ادولف هتلر عادي .. والجدير بالذكر ان هتلر لم يكن ليرغب فسي ان يقيم علاقات مع اية امرأة ذكية .

ويبدو انه لم يكن لدى هتلر اية فكرة عن مدى الاحتقار الذي تحمله هذه التماييز للنساء الحاضرات في مجالسه .

وعلى الرغم من هذا فقد كان هتلر قلادرا على اظهار بعض الحنان العاطفي والمسؤولية العائلية فقد خرجت ايغا براون مرة تنزلج على الثلج

وعادت متأخرة لتناول الشاي . . وكان هتلر قلقا عليها بشكل واضح . واستمر يتطلع الى الساعة في قلق واضطراب خشية ان يكون قد اصابها مكروه .

منشا ايغا براون

وقد جاءت ايغا براون من بيئة متوسطة . وكان ابوها معلم مدرسة . ولم اتعرف الى اهلها . كما ان احدا لم يتعرف اليهم . فقد فضلوا البقاء مغمورين بعيدين عن الاضواء حتى النهاية .

وبقيت ايغا براون معتدلة في كل شيء . . . لم تكن لترتدي ملابس مثيرة بل حافظت على اتقانها واتزانها كما حافظت على التزين بحلى رخيصة كان يقدمها هتلر لها في عيد الميلاد وفي عيد ميلادها .

وكانت هذه الحلى تجمع احجارا كريمة غير مرتفعة الثمن لم تكلف الواحدة منها اكثر من بضع مئات من الماركات مما لا يليق بمقام مقدمها الكبير . وكان بورمان يأخذ على عاتقه مهمة احضار هذه التشكيلات ليختار منها هتلر ما يناسبه .

ولم تكن ايغا تهتم كثيرا بالسياسة كما انها لم تحاول ان تؤثر على هتلر .

كانت تتميز بحس مرهف وادراك سليم . وكانت تعلق احيانا على بعض القضايا القائمة في ميونيخ .

وكانت ايغا براون تحب الرياضة والتزلج على الثلج بنوع خاص . وكثيرا ما كنت اترليج معها في الاماكن القريبة من المقر الجبلي .

وسمح لها هتلر مرة باجازة اسبوع حين لم يذهب الى مقره في الجبل . وذهبت ايغا معنا الى مناطق التيرول في النمسا دون ان يعرفها احد فتدافع نحوها الضباط الشباب يراقصونها حتى ساعة مبكرة من اليوم التالي .

ولم تكن ايغا براون تلك المرأة التي تعامل مدام دي بومبيدوز . ففي الواقع ان اهميتها لا تخرج عن انها امرأة عادية مرت في حياة هتلر ردحا من الزمن .

وكننت اسف لها . . فقد كانت تحب هتلر فعلا ، وبدات اقدرها حين

ادركت هذه الحقيقة منها . وقد التقينا معا لاننا كنا نتفادى الاحتكاك
ببورمان لانه لا يحترم جمال الريف .. ويدنسه باقتطاع الاشجار وتشويه
معالمه .. ولانه غير امين لزوجته ..

وحين علمت في محاكمات نورنبرغ ان هتلر تزوج من ايفا براون قبل
يوم ونصف يوم من موته سررت كثيرا من اجلها مع اني اعلم كيف كان
هتلر ينظر اليها والى جميع السيدات .

هتلر والاطفال

وكنيت دائما اسائل ما اذا كان هتلر يحب الاولاد حقا .. فقد كان اذا
ما التقى باولاد يعرفهم او لا يعرفهم يتصرف تصرفا غريبا وكأنه لا يعرف
شيئا عن الابوة والمحبة .

فلم يكن يحسن التحدث اليهم اذ يكفي بكلمة او كلمتين ويستدير
بعدهما الى مرافقه ليتابع حديثه .

ولكنه رغم ذلك فقد كان ينظر الى الاطفال نظره الى الدم الجديد الذي
يمثل الجيل القادم . ولم يكن يهتم بمظهرهم .

والواقع ان هتلر لم يبدا ملاحظة بالنسبة الى اولادي رغم انه
شاهدهم مرات عديدة .

وتناولت بعد مواضيع بيت الشاي الازياء وتربية الكلاب والسرور
والافلام والابورا الخفيفة ونجومها وبعض الامور التافهة فسي حياة بعض
العائلات . والشيء المميز في هتلر انه لم يكن يذكر خصومه في مجالسه .
لكنه من جهة ثانية كان يسخر من اقرب المقربين اليه .

ولم تكن مجالس هتلر الخاصة ذات سرية معينة . اما بالنسبة الى
المرأة فقد كان هتلر يقول كل شيء باطل فيها . وكان يبدي ملاحظات لاذعة
تتناول مساعديه .

هتلر والكنيسة

وكان الفوهرر يقيم الدنيا ويقعدها بين مساعديه السياسيين على
الكنيسة الا انه في حضور المرأة كان يخفف قليلا من حملته ويقول :

« الكنيسة ضرورية للشعب .. انها عامل قوي لاستقرار البلاد » . وكان ينظر الى الكنيسة وكأنها اداة بين يديه يستعملها متى يشاء .

وكان حتى اخر ايامه يقول في مجالسه انه يعتبر الكنيسة عاملا ضروريا في الدولة وتد بالحرركات المناوئة للكنيسة ووصفها بانها جريمة ضد مستقبل الشعب . وانه لا يمكن ان يستعاض عن الكنيسة بعقيدة الحزب النازي .

واقام فكرة حول الكنيسة تقول انها مع الوقت ستبنى الاهداف السياسية الاشتراكية الوطنية (النازية) وبذلك يقوم في البلاد دين جديد حزبي بدلا من تصوفات الصور الوسطى ومعتقداتها .

وكان بورمان اذا ما هاجم هتلر في مونولوجه الكنيسة يتناول ورقة يدون عليها ما يجده مهما من اقوال زعيمه .

وحين علم هتلر في سنة ١٩٣٧ ان كثيرين من اتباعه تركوا الكنيسة بايعاز من الحزب بسبب معارضتها العنيدة لمخططاته امر كبار مساعديه غورنغ وغوبلز وغيرهم ان ينضموا اليهم . وقال انه نفسه سيبقى من اعضاء الكنيسة الكاثوليكية . مع انه لم يشعر بدافع نحوها ولكن بسبب منصبه الكبير .. وبقي كذلك حتى انتحاره ولكن كل هذه المظاهر كانت انتهازية في الواقع .

وامتبر هتلر الحضارة الافريقية ذروة التطور من جميع الجهات وقال ان عبقرية الافريق تتجلى في هندستهم التي تنفج بالنضارة والصحة .

وشاهد صورة فوتوغرافية ذات يوم لفتاة جميلة من السباحات فسي مايوه مفر فقال « يا لها من اجسام جميلة .. » ان الشباب يقتربون فسي هذا القرن من مستويات الجمال الافريقي نتيجة للرياضة .

وتناول هتلر في مواضعه ايضا ولسع غورنغ بالصيد . فقال كيف يتحمس انسان من اجل ذلك .. ان قتل الحيوان من اختصاص الجزائريين .. اما ان ينفق المرء اموالا طائلة على ذلك . فهناك المصيبة . انا متأكد ان هناك صيادين محترفين للصيد يعملون في قتل الحيوانات المريضة المؤذية غير اننا اليوم نجد رجلا سمينا احمق يقتل حيوانا من بعيد وهو يضمن السلامة لنفسه .. ان الصيد وسباق الخيل من رواسب عالم العصور الاقطاعية البائدة .

ايضا والكذب

وقبل الحرب ايضا كان هتلر يقول احيانا انه عندما يحقق جميع اهدافه سينسحب من عمله رسميا وينهي حياته في مسقط رأسه ولن يعود الى لعب اي دور على المسرح السياسي وذلك ليتيح لخلفه ان يعمل .. وعندها سينسى الناس هتلر بسرعة وسيتركه الناس ..

ويشفق على نفسه فيقول : « وربما يأتي احد معاواني القدامى في المناسبات ليزورني ولكني لن اعتمد على ذلك كثيرا . ولن اخذ احدا معي سوى الأنسة براون .. الأنسة براون وكلبي .. وساعيش في عزلي وحيدا .. فمن يريد ان يسكن مع انسان وحيد مدة طويلة من الزمن ؟ لا احد .. وسيتوجه الجميع الى من حل مكاني .. وربما جاء الناس الي مرة في السنة في عيد ميلادي مثلا » ويحتج الرفاق ويمسحون الجوخ بطبيعة الحال ويؤكدون له انهم سيبقون اوفياء له .. ويبقون حوله الى الابد ..

احتمالان

لم تكن نحن المقربين الى هتلر في الشلة لنشير اليه بانه الفوهرر بل نسميه « الرئيس » ولم تكن نستخدم تحية هایل هتلر ولكننا نقول له صباح الخير .. مع انه لم يكن يترك لنا المجال لنصبحه في اغلب الاحيان ..

وكنان نضحك فيما بيننا من بعض اقواله . وكانت احدى سكرتيراته وهي العزولين شرويدل تقلده وتقول هناك احتمالان .. وتستعمل العبارة في اكثر المواضع .. - هناك احتمالان .. اما ان تمطر السماء او لا تمطر .

وقد تبلغه ايضا براون دون وجل على الغداء او العشاء ان ربطة عنقه لا تناسب مع رداءه . وقد تشير الى نفسها بقولها انها « الام القروية » . وكنت اسأل نفسي احيانا ما السبب في انني لا استطيع ان ادمو هتلر صديقي مع انني كنت معه في جميع الاوقات ولم اتركه دقيقة واحدة وكنت اقرب المقربين من معاونيه بسبب مهنتي الهندسية التي تعتبر من احب المواضيع الى قلب زعيم النازية .

ولم اعرف في حياتي كلها رجلا قلما يكشف عن عواطفه وشعوره واحاسيسه وحين يفعل ينسحب فورا وكأنه أعطى اكثر مما يجب اعطاؤه .

وقد تابحت مع هس في السجن في هذه الناحية من حياة هتلر واتفقنا على أن للمرء لحظات يعتقد فيها أنه تقرب أكثر من اللزوم من الآخرين . ولكن الإنسان دائما على خطأ .

ولم يكن هتلر مرتاحا كثيرا في حياته مع أيفا براون كما أنه لم يعاملها معاملة تتسم بطابع الإنسانية . وقد بقيت الثغرة القائمة بين فوهرر البلاد والفلاحة البسيطة مستمرة في العلاقات بينهما مع أنه كان يناديهما أحيانا « بالقطعة الصغيرة » .

اجتمع هتلر في تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ مع الكاردينال فولهاير في مقره الجبلي مدة طويلة من الزمن . وقد يكون الكاردينال جابهه بالمغامرات الخطرة التي يقوم بها .

وبعد أن ذهب الكاردينال جلس هتلر وحده معي امام النافذة الكبيرة وبادرني بجملة الماثورة قائلا « بالنسبة هناك احتمالان ، يجب أن استمر في مخططاتي حتى النهاية أو افشل فان خرجت منها منتصرا أصبحت من اكبر رجال التاريخ وان اخفقت فتلعني الاجيال وليرذلني التاريخ . »

وكان هتلر حتى قبل الحرب خائفا من أنه لن يعيش طويلا . وكان منذ سنة ١٩٣٥ مهووسا بالام معدته .

كان يحاول ان يتغلب على آلامه باللجوء الى التقنين في الطعام وتحديد الوانه . فياكل قليلا وينظر الى طبقه العامر بالماكل اللذيذة ويقول كيف يستطيع المرء ان يعيش هكذا . . انظروا الى هذه الماكل . . يجب ان يسمح الاطباء للانسان باكل ما يريد . لا شيء يناسبني الآن . . فان الآلام تبدأ بعد كل وجبة . . فان تركت الاكل فماذا آكل . وكيف اعيش .

وكثيرا ما كانت آلام معدته تجبره على ترك المباحثات لمدة نصف ساعة او اكثر وأحيانا كثيرة لم يكن ليمود بعدها الى الاجتماع . وكان يقول أنه يشكو نفخة وسوء هضم وحرقة وارقا .

وابلغتنا أيفا براون مرة ان هتلر على الرغم من أنه لم يكن يبلغ الخمسين بعد قال لها « يترتب علي أن اتركك في يوم قريب . . » فاي جدوى لك من رجل مسن مثلي .

الام هتلر

وربت الامور مرة لتجري على هتلر فحوصات طبية خاصة . وترددت فكرة بان ينقل الى مستشفى عسكري حيث يمكن الاحتفاظ بسرية الامر

هناك أكثر من أي مستشفى آخر ولكن هتلر رفض جميع الاقتراحات وقال أنه لا يمكن أن يتحمل مجرد التفكير بأنه مريض .. فان ذلك يضعف مركزه السياسي وخاصة في الخارج .. ولم يكن يسمح لأي شخص اختصاصي بأن يجري عليه فحصا طبيا حتى ولو كان ذلك في مقره الخاص .

وأنني لأذكر أن هتلر لم يفحص فحصا سريريا حقيقيا . واستمر يقنع نفسه بنظرياته حول الآلهة وأسبابها ليثبت قوة الزعيم على احتمال الأوجاع ومواجهة الأزمات .

وتمكن هنريك هوفمان وهو مصور هتلر الخاص من اقناع سيده بأن يجري الدكتور موريل فحصا عليه . وادعى الدكتور أنه اتقد حياة هتلر .. وكانت النتيجة الفورية فعلا مذهلة .

فلاول مرة اقنع هتلر بأن الطبيب عضو نافع في المجتمع وقال « لم يبلغني أحد من قبل بمثل هذا الوضوح والدقة تفاصيل العلة التي أشكو منها . وكانت وصفة الدكتور موريل معقولة جدا ولي ثقة كبيرة بهذا الطبيب وسأفعل بكل ما يأمرني به » .

وكان الطبيب يعطيه حبوبا ويزرقه بالحقن . وذكر طبيب هتلر الخاص الدكتور براندت أنه استشار بعض زملائه في هذه العلاجات فذكروا له أنها قد تسبب له حالة من الإدمان ... وفي الواقع زادت المعالجة حتى باتت أدمانا . والعلاج يتألف من مواد مستخرجة من خصي الحيوانات وأمعائها ، وبعض المستحضرات الكيماوية والفضرية .

سيد حقن الريخ

وسخر غورنغ من الدكتور موريل مرة بوصفه له أنه « سيد الحقن في الريخ » .

والواقع أن الأكراما المزمنة في قدم هتلر زالت تماما بفضل هذه الحقن ...

وتحسنن معدة الزعيم بعد أسابيع قليلة وبدأ يأكل بشهية أكبر ويتناول وجبات مأكنة .

وارتفع صوت هتلر بالحمد والثناء على الدكتور موريل وطلق يقول « ماذا كان سيحل بي لو لم ألتق بموريل . أن ما فعله علاجه بي عجيب حقاً » .

وقد يكون هتلر قادرا على التأثير على الآخرين بصورة مذهلة اما في هذه الحالة فوقع العكس .. وتأثر باقوال طبيبه واقتنع بان طبيبه عبقرى عظيم ولم ينتقده بكلمة واحدة . وقد اصبح موريل بذلك من اعضاء الشلة المقربين للرعيم .

وبانتهاء سنة ١٩٣٧ حين بدأ علاج الدكتور موريل بالاخفاق عاد هتلر الى ندب حظه .

وكان يقول لست ادري كم من الوقت ساعيش ومن المحتمل ان ينجز العمل في هذه المباني بعد ان اكون قد فارقت الحياة .

وكتب هتلر في ٢ ايار ١٩٣٨ وصيته القانونية . وكان قد ذكر في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ وصيته السياسية شفها اظهر فيها مخططاته امام وزير الداخلية والزعماء العسكريين . وقال انها آخر وصية افضي بها قبل موته . اما الحاشية المقربة من الرعيم التي تشاهد بعلم كليل ليلة بعد ليلة افلام الاوبرا الخفيفة او تستمع الى اقواله المتواصلة عن الكنيسة الكاثوليكية وتفصيلات حمايته عن الطعام وتصفي الى مونولوجاته عن المعابد الاغريقية والكلاب الانزاسية لم يكونوا ليفكروا حرفيا ان هتلر كان يحطم فعلا في امبراطوريته العالمية .

واعتقد المقربون منه انه غير اهدافه فسي سنة ١٩٣٨ بسبب تردى صحته بعد اخفاق علاج الدكتور موريل .

وانني اعتقد ان هتلر لم يغير اهدافه مطلقا ، ولكن المرض والخوف من الموت جعلاه يسرع في توقيت مواعيد اهدافه . ومن الثابت ان اهدافه لم تكن لتخفق وتفشل الا اذا جابهتها قوة اعظم .. وفي سنة ١٩٣٨ لم يكن معروفا لاحد اين هي تلك القوة التي تستطيع ان تقف في وجه هتلر واهدافه .. فالنجاحات التي حققها في تلك السنة جعلته يسرع في الاندفاع والزخم نحو هذه الاهداف ذاتها .

كانت الحياة في المستشارية في برلين التي اعدت بناوها تسيير على النمط ذاته في اوبر سالزبرغ .

فقد جرت العادة ان يتناول طعام الغداء مع هتلر حوالي ٤٠ او ٥٠ شخصا بصورة دائمة . وما كان يترتب على هؤلاء الا ان يتصلوا بمساعد هتلر ليقولوا له انهم قادمون . وكان معظم هؤلاء من اعيان الحزب او الريخ

او بعض الوزراء وافراد العاشية .

وكان لي انا ايضا حق الدخول الى دوائر المستشارية كلها وكنت
استخدم هذا الحق دائما .

وجرت العادة الا نتبادل التحية الإجبارية « هایل هتلر » ولكننا كنا
نستعيز عنها بالقول « صباح الخير » وقلما كانت شارات الحرب تظهر
على الملابس في هذه الدوائر .

مواعيد هتلر

لم يكن هتلر دقيقا في مواعيدہ وكان يأتي متأخرا دائما . .
وكان يحضر بطريقة عادية جدا كأي شخص آخر من الشلة ويصافح
ضيوفه الذين يلتفون حوله واقفين .

وقد نبقي كذلك مدة ١٥ او ٢٠ دقيقة الى ان تفتح الستارة التي تغطي
الباب الزجاجي المؤدي الى غرفة الطعام ويقبل المسؤول فيهمس بلذن الزعيم
ان الطعام جاهز .

وتبلغ مساحة غرفة الطعام ٢٤ قدما مربعا . وتتوسط القاعة طاولة
كبيرة مستديرة تتسع لحوالي ١٥ شخصا حولها كراس من السنديان يزينها
جلد احمر . ولم يكن كرسي هتلر يختلف عن الكراسي الاخرى .

ووضعت اربع طاولات صغيرة اضافية في الزوايا تتسع لاربعة او
سنة اشخاص مزودة بكراس من النوع ذاته .

وكانت الصحون من البورسلين الابيض العادي والكؤوس من الزجاج
البسيط .

هكذا كان « مطعم المستشارية السعيد » كما كان يسميه هتلر .

وكان هتلر يجلس دائما وظهره الى النافذة وامتد ان يدخل القاعة
ويختار اثنين من ضيوفه فيجلسهما الى يمينه ويساره ويجلس الآخرون من
تلقاء انفسهم حول المائدة كما اتفق دون رسميات . اما اذا كان في القاعة
ضيوف كثيرون فيترتب عندها على المساعدين والاشخاص الآخرين من ذوي
المرتبات ان يجلسوا الى الطاولات الجانبية . وكنت انا من بين هؤلاء وقد
وجدت في ذلك امتيازاً كبيراً لي يتيح لي التحدث بجديّة أكثر .

وجبات بسيطة

وكانت وجبة الطعام بسيطة جدا وتتألف من حساء ومعجنات ولحم وبطاطا وغيرها من الخضر ثم الحلوى .

اما الشراب فكاننا نختار بين المياه المعدنية وبيرة برلين العادية او النبيذ الرخيص .

واستمر هتلر على الخضر للحماية وكان يشرب المياه المعدنية ويصر على البساطة في جميع اقواله وهو موقن ان كلمته هذه ستنتشر في جميع انحاء المانيا .

وقدم له في احد الايام صيادون من هلفنولاند كركندا بحرييا ضخما وسررنا حين ظهر على المائدة . وابدى هتلر ملاحظته في ان تناول مثل هذا النوع من الطعام اسراف فاضح . وقال انه لا يريد ان يرى شيئا من هذا النوع على مائدته في المستقبل .

وقلما جاء غورنغ الى مثل هذه المآدب . ومرة كنت اودع غورنغ فقال لي « الصراحة ان الطعام سيء هناك . وان هذه الحفلات المستمدة من ميونيخ لا تطاق » ..

وكان هس يحضر مرة كل اسبوعين مثل هذه المآدب . وكان يتبعه مساعدا يحمل له « مطبقة » تحتوي على طعام هس الخاص . كان « يسخنها » في المطبخ وبقي هتلر زمنا طويلا وهو لا يعلم ان هس يتناول وجبته الخاصة من الخضر . وحين علم هتلر ان هس يحضر طعامه معه صاح به في احد الايام امام جميع اعضاء الشلة قائلا « ان عندي طاهية من الدرجة الاولى هنا فان وصف لك طيبك طعاما خاصا فانها تهينه لك بكل سرور ولكنك لا يمكن ان تحضر معك طعامك بأي شكل من الاشكال .

وحاول هس الذي تعود ان يعطي بمقدور ما ياخذ ان يفسر لهتلر ان طعامه يجب ان تتوفر فيه مادة بيولوجية معينة فقال له هتلر عندها « في هذه الحالة عليك ان تأكل في بيتك . ولم يعد هس يحضر الى الفداء بعد ذلك الا في المناسبات .

وحين طالب الحزب ان يستعاض بصحن واحد يوم الاحد كجزء من جملة « مدافع بدلا من الزبدة » لم يعد يقدم على مائدة هتلر غير الحساء والمعجنات . واقتصرت عدد الضيوف عندئذ على شخصين او ثلاثة اشخاص .

ولم تكن شلة هتلر تتألف من اشخاص ذوي خبرة في الحياة . فمعظم الحاضرين لم يسافروا الى خارج المانيا واذا قدر لاحدهم ان يسافر في اجازته الى ايطاليا مثلا فان ذلك يعتبر حدثا عظيما وموضوعا للمحادثة والتندر على المائدة . وكان اعضاء الشلة ينظرون الى ذلك الشخص وكأنه قام بجولة حول العالم .

ولم يكن هتلر نفسه يعرف شيئا عن العالم وزيادة على ذلك فان سياسيي الحزب الذين احاطوا به كانوا من ذوي الثقافة الضحلة بوجه عام . ومن بين الاشخاص الخمسين الكبار في الحرب والدولة لم يكن غير عشرة فقط من خريجي الجامعات وقد اخفق البعض في المدارس الثانوية كما ان ثقافة الغالبية منهم لم تكن اعلى من الثانوية . وقد فضل هتلر ان يعمل وسط اشخاص من ثقافة وبيئة من هذا المستوى ويبدو انه كان يشعر وهو معهم انه بين اهلهم وحشيره .

وكان هتلر يناجي نفسه دائما بأنه من الخطأ تصدير عقائد كالاشتراكية الوطنية الى الخارج . وقال ان ذلك قد يؤدي الى زيادة الشعور القومي في البلدان الاخرى مما يضعف مركزنا نحن . وكان يفتبط لان الاحزاب النازية في البلدان الاخرى لم يترعها اشخاص في مثل وزنه وثقله .

وكان هتلر يمتدح ان الاشخاص من امثال موسلي الزعيم الفاشيستي البريطاني هم مقلدون له وليس لديهم معتقدات جديدة اصيلة .

هتلر والنكتة

ولم يكن هتلر من المهوبين برواية النكتة فقد ترك للآخرين امر روايتها وكثيرا ما كان يضحك عاليا ملء شذقيه حتى تترقق الدموع من عينيه .

وكان يضحك بسهولة ولكن على حساب الآخرين . وكان غوبلز يلجأ الى النكات ليضحك هتلر من جهة ومن جهة اخرى ليقبل من قيمة بعض منافسيه الشخصيين في مزاحمتهم له على السلطة .

وكان هتلر مولعا برواية قصص حوادثه على الطعام . وكان يشدد على التساوة التي انشأه اهلها عليها ويقول « كان ابي يوسمني ضربا مبرحا . واعتقد ان ذلك كان ضروريا لي وافادني كثيرا » .

ويتدخل وزير الداخلية فريك ليقول « اذا حكمنا على ما نراه الان يا زعيمى فان ذلك قد افادك » . ويستبد الصمت حول المائدة فيضيف فريك في محاولة له لتحطيم بعض الصمت قائلا : « اعني يا سيدي الفوهرر .. ان هذا هو السبب الذي احلك في مكانك الان » .

ويلقى غوبلز الذي يعتبر فريك تافها فيقول بسخرية وخبث « اعتقد يا عزيزي فريك ان لا احد قد اوسعك ضربا في صفرك » .

مناورات الوزراء

وكان هتلر كثير الشكوك ولم يكن ليرى من خلال المناورات البارعة التي تعد لتجعله يغير رأيه .

وكان هتلر لا يدرك هذه الاساليب التي برع بها غورنغ وغوبلز وبورمان ومن ثم هملر . وهم يعتبرون خبراء دون منازع في هذا الميدان ويدركون ان المناقشة الصريحة مع هتلر مآلها الفشل . فكانوا يلجأون الى هذه المناورات والاساليب ليتيحوا له تغيير وجهة نظره اذا سمعهم الحظ .

امسيات برلين

لم يكن عددنا في الامسيات في دار المستشارية في برلين ليزيد على الستة او الثمانية حول المائدة .

وكنا : مساعدي هتلر وطبيبه الخاص والمصور هوفمان وصديقين من ميونيخ واحيانا بوير طيار هتلر الخاص ومساعد اللاسلكي في الطائرة والميكانيكي وبورمان .

وكانت هذه هي الحلقة المقربة من الفوهرر في برلين . ولم يكن السياسيون من امثال غوبلز وغيره يدمون في المساء . وغالبا ما يكون مستوى المحادثات في المساء اقل طموحا منه عند الغداء ويتناول الامور العادية .

وغالبا ما يكون العشاء كالغداء بسيطا وعاديا . وحاول المسؤول من اعداد الطعام مرة او مرتين ان يجعل العشاء شهيا وفخما .

وقد بقي هتلر اسبوعا او اسبوعين يتناول الكافيار واصعب به كثيرا
لانه لم يتدوقه من قبل .

ولكنه حين سأل المسؤول عن كلفة الكافيار وعرف انه غالي
التمن حظر تقديمه على المائدة . فراح مدير المطبخ يقدم له نوعا رخيصا
من الكافيار الاحمر ولكن هتلر منع تقديمه على اعتبار انه غال ايضا وكان
هتلر يعتقد ان الفوهرر الذي يتناول الكافيار فوهرر مسرف ..

رتابة العرض السينمائي

وكانت الشلة تنتقل بعد العشاء الى قاعة كبيرة تستعمل عادة في
المناسبات الرسمية . كنا نجلس على كراس مريحة ويفتح هتلر سترته
ويمدد ساقيه امامه رويدا رويدا ويبدأ عرض الفيلم الاول في السهرة ..
ويترب علينا انذاك ان نصمت كما كنا نفعل في اوبر سالزبرغ لمدة ثلاث
او اربع ساعات حين تنتهي عملية الافلام بالجملة في الساعة الواحدة
فمنهض وقد تجمدت عروقنا من الجلوس وجفت حناجرنا من الصمت .
وقد اقترحت مرة ان نقيم سهرات يحييها لنا كبار عازفي البيانو او
يقدم فيها علماء محاضرات تفيدنا وتحطم رتابة السهرات ولكن هتلر
رفض طلبي وقال « ان الفنانين لن يكونوا تواقين للحضور الى هنا كما
نعتقد » .

وفي الواقع كان من الممكن ان يعتبر عدد كبير منهم امر دعوتهم
للعزف امام هتلر شرفا كبيرا .

ومن المحتمل ان هتلر لم يكن ليرغب في تغيير نهاية يومه الريب
الذي كان يفضل على سواه .

ولاحظت مرارا كثيرة انه كان يخجل حين يتعامل مع اشخاص كانوا
في الماضي رؤساءه في بعض المهن .

وكان يتبنى خطة عرضية ولكن بتحفظ شديد كما لو كان في
مقابلة رسمية . ومن المحتمل ان هذا هو السبب الذي جعله يضع ثقته
بمهندس شاب مثلي .. فالواقع انه لم يكن يشعر امامي بمركب النقص .

الحفلات الراقصة

وفي السنوات الاولى من حكمه كان هتلر يسمح لمساعديه بان

يلموا زوجاتهم أو رفيقاتهم وبعضهن من دنيا الفن بموافقة غوبلز . وجرت
العادة أن تحضر النساء برفقة أزواجهن . . واتخذ هذا القرار لمفاداة
الشائعات التي قد تؤثر على الصورة التي أوجدها غوبلز حول الفوهرر
النظيف الرصين الحازم .

وكان هتلر يتصرف مع هذه السيدات وكأنه خريج معهد للرقص نهاية
الحفلة الراقصة وكان يتوق بخجل أن يفعل ما يناسب في حينه
ويقدم المجاملات ويقول : كيف الحال ومع السلامة ويقبل اليد على
الطريقة النسائية .

وحين يخرج الضيوف يجلس هتلر عادة بعض الوقت مع شلته بمتدح
النساء اللواتي كن حاضرات ويقرظهن بطريقته الخاصة .
وكان يثنى على قاماتهم وهيئتهن أكثر مما كان يثنى على جاذبيتهن
وجمالهن وذكاياهن .

وكان كتلميذ المدرسة الثانوية يقنع نفسه أن المرأة التي تملئ عينه
لم تخلق بعد .

ولهتلر ولع غريب بالسيدات البدينات مع أن إيفا براون لم تكن من
النوع الذي يروق له .

واذكر أنه في سنة ١٩٣٥ غير فجأة عادة دموة السيدات واسقطها
من حسابها . ولم اظلم السبب وقد يكون ذلك بسبب الشائعات
والهمسات .

بوهيمية هتلر

واعطيت إيفا براون في وقت لاحق في سنة ١٩٣٩ حجرة مجاورة
لمخدع هتلر تشرف على ساحة صغيرة .

وعاشت فيها حياة تميزت بالوحدة والانفراد أكثر من المقر الجبلي
فسي أوير سالزبرغ .

وكانت إيفا تتسلل منها ذهابا وإيابا عبر مدخل جانبي وسلم خلفي .
ولم تكن تستخدم السلم الرئيسي إلا بوجود أفراد الشلة المقربة من
الفوهرر . وكثيرا ما كنت أمكث قريبا الساعات الطويلة .

وكان هتلر في عيون الناس الفوهرر الذي يعمل ليل نهار دون كلل

او لعب . والحقيقة ان كل شخص ملّم بأساليب الفنانين في العمل يفهم الحياة البوهيمية التي عاشها هتلر دون انتظام .

وكما ارى الاشياء بنفسى اعتقد ان هتلر كان يشغل نفسه اسابيع طويلة بقضايا غير مهمة ريثما يبت بامر معين .

واخيرا يعترف فجأة ان عليه ان يبت بالامر فيقدم الحل الذي اتخذه بشأن هذا الامر في اليوم الاول . وحين يتخذ قرارا في امر ما .. يخلد الى الراحة والتكاسل .

اخذتهم الى جانبي

زار مقر هتلر في اوبر سالزبرغ في اوائل شهر اب سنة ١٩٣٩ بعض الضيوف وتوجهوا مع الفوهرر الى « بيت الشاي » .

وسار خط طويل من السيارات في الطريق التي شقها بورمان ثم ترجلنا ودخلنا بهوا من الرخام وتسلقنا المصعد النحاسى اللعاع .

وفي اثناء ارتقائنا الى علو ١٥٠ قلما قال هتلر فجأة وكأنه يحدث نفسه :

« قد يحدث امر خطير حقا بسرعة .. حتى ولو اقتضى ذلك ارسال غورنغ الى هناك .. وقد اذهب بنفسى اذا اقتضى الامر .. اننى اراهن بكل شيء على هذه الورقة » .

وكان ذلك كل شيء .. وبعد ثلاثة اسابيع وفي ٢٣ اب سمعنا ان وزير خارجية المانيا يجري مفاوضات في موسكو .

وحين جلسنا الى المائدة نتناول العشاء تسلّم هتلر ورقة طالعها بسرعة ثم حدق امامه قليلا واحمر وجهه وضرب المائدة بقبضة يده اهتزت لها الاقداح والصحون وصاح قائلا : « اخذتهم الى جانبي اخذتهم الى جانبي » .

وماد الى نفسه بسرعة ولم يجروء احد ان يطرح عليه سؤالاً .. فتأبمنا تناول الطعام وقد خيم على الجو سكوت مريع ..

واستدعى هتلر بعد العشاء مرافقيه من الرجال وقال : « اننا على وشك عقد مهادنة عدم اعتداء مع روسيا » .

ثم تنفس قليلا وقال « اليكم برقية من ستالين اقراوها .. »
كانت البرقية معنونة الى مستشار الريخ هتلر . وتتضمن نصا مقتضبا
يثبت الاتفاق بين البلدين .

والواقع ان تلك البرقية كانت اكثر الاحداث اثارة في امسيات الثلثة
... برقية تحمل اسم هتلر وستالين على صفحة واحدة وتضمهما
معا في محبة وود .

دقة الحزن على الامبراطورية البريطانية

وعرض علينا تلك الليلة فيلم عن الجيش الاحمر ظهرت فيه حشود
كبيرة من الجنود واعداد لا تحصى من القوات والوحدات يسير
افرادها امام منصة ستالين .

وكان هتلر يتفرج على الفيلم وييدي ارياحه لما يرى من معدات
وقوى . والتفت الى مساعديه العسكريين وراح يبحث معهم في موضوع
هذا التجمع الكبير من الجنود والاسلحة باستحسان واعجاب .

واعلن غوبلز في تلك الليلة ذاتها عن الاتفاق وعلق عليه في مؤتمر
صحفي .

واتصل هتلر به محاولا ان يعرف رد الفعل لدى المراسلين الاجانب .
وابلغنا هتلر ما قاله له غوبلز وعيناه تبرقان غبطة . قال : « كان
لذلك وقع مثير لا يعادل .. وحين بدأت اجراس الكنائس تقرع في
برلين قال احد المراسلين البريطانيين « انها دقة الحزن على الامبراطورية
البريطانية » .

وكان تعليق هذا الصحفي ذروة غبطة هتلر تلك الليلة . فالحقيقة
انه لم يكن ليعتقد انه سيصل الى هذه الدرء المرتفعة السامقة التي
بات من الصعب فيها ان يناله القدر .

وفي تلك الليلة بينما كنا نقف مع هتلر على شرفة المقر الجبلي
كنا نشاهد مظهرا خارقا من المظاهر الطبيعية النادرة .

فقد استمرت مدينة انترسبرغ الاسطورية قبالتنا تستحم في
عرض رائع بانوار الشمال . وظهر عرض انترسبرغ بلون احمر غريب ..
وكانت السماء تبعث اضواء بالوان قوس قزح يفوق الاحمرار الذي يرافق

الفصل الاخير من مسرحية « غوتر داميرانغ » الغنائية وظهرت وجوهنا وايدينا بسبب ذلك حمراء قانية تركتنا نفكر ونتأمل ..

والتفت هتلر فجأة الى احد مساعديه العسكريين وقال « يبدو ذلك كدماء .. دماء كثيرة .. اننا لن نخرج هذه المرة منها دون الركون الى القوة .. »

وبعد بضعة ايام سار موكب هتلر على الاوتوستراد الى ميونيخ . كانت القافلة تتألف من عشر سيارات تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة آمنة .

وكنت مع زوجتي في الوسط وكان ذلك اليوم من اخر ايام الصيف وتميز بجو صاف وشمس مشعة .. واخترق الموكب ميونيخ وترك سكانها هتلر يمر بهدوء غير عادي .

عشية الحرب الثانية

واقنع هتلر بعد اتفاق ميونيخ بان القوات الغربية سترضخ بالنسبة للقضية البولندية وممر دانزيغ .

ويعود اقتناعه الى تقرير جاءه من استخباراته يقول ان ضابطا بريطانيا كبيرا ارسل ليتفقد قوات الجيش البولندي انتهى الى القول ان المقاومة البولندية ستنتهار بسرعة امام هتلر .

وعلى هذا التقرير بنى هتلر اماله بان ما سيفعله الضابط البريطاني الكبير هو بدل كل ما في وسعه ليحمل الحكومة على الاعتماد عن التورط بحرب لا امل فيها .

واصيب هتلر بنكسة مؤقتة حين وصله اندار الدول الغربية في اول ايلول ١٩٣٩ بصدد موقفه من ممر دانزيغ .

ولكنه اراح نفسه واراخنا بملاحظة ابداهما قال فيها ان بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب من اجل المبدأ لكي لا تفقدا ماء وجهيهما امام العالم .

واقنع نفسه بانه بالرغم من اعلان الحرب فان القتال لن يقع مهما كان الامر .

واصدر هتلر اوامره للعسكريين يدعوهم فيها الى التزام جانب الدفاع .

وقال لرفاقه المجتمعين حول مائدة الغداء « اننا في حالة حرب مع انكلترا وفرنسا ولكننا اذا لم نقاتل من جانبنا فان القضية ستنتهي . الواقع ان ليس لديكم اية فكرة عن هذه الديمقراطيات . انها تفتبط حين تتمكن من الخروج من مازقها . . وهي ستترك بولندا وشانها . . » وقد رفض هتلر ان يسمح للفواصات الالمانية التي كانت في وضع ممتاز لطرب البلرجة الحربية دانكرك . ولم يتحسس الا حين شنت بريطانيا هجوما جويا على ويلهمهافن واغرقت الباخرة الينا .

وتمسك هتلر بعناد كبير بما كان مقتنعا به من ان الغرب ناعم جدا ومتهدم المنويات وأنه لن يقوى على التورط بحرب جديدة . ومن المحتمل انه قد صعب على هتلر الاعتراف بانه ارتكب غلطة كبيرة .

تشرشل يدخل الوزارة

واني لاذكر جيدا التجهم الكبير الذي حل على الجميع حين وصلت انباء تقول ان تشرشل انضم الى الوزارة البريطانية بوصفه وزيرا للبحرية . واقبل غورنغ وهو يعمل قصاصة صحفية الى باب هتلر وتهاوى على اقرب كرسي وقال :-

« ادخلوا تشرشل الى الوزارة . ان ذلك يعني ان الحرب قد بدأت فعلا . اننا الان في حرب فعلية مع بريطانيا » .

وكانت هذه الاقوال وغيرها من الملاحظات الاخرى قد اظهرت ان الحرب قطعت الطريق على مخططات هتلر جميعها .

وجاءت احلام هتلر كاحدى الاساليب غير العملية التي يستخدمها في اعماله ويرجع فيها الى تفكيره الذهبي واستلها ماله العقلية .

والواقع انه لا يعرف شيئا عن اعدائه . ورفض ان يستعمل المعلومات التي كانت توضع امامه . وكان يفضل ان يتكل على ما يفكر به قورا مهما كان ذلك مخالفا للواقع ورغم انه يقوم على سوء تقدير واضح .

اتني لا اعتقد ان هتلر تحقق في الايام الاولى من شهر ايلول انه

ورط العالم في حرب عالمية لا يمكن ان تعالج الا بالقتال .. وكان في الحقيقة قد عزم على ان يتقدم خطوة واحدة فقط في احراز نصر ايضاً .

مغامرات والتحديات

ولا بد من القول انه كان مستعداً لقبول المغامرة التي قد تنجم من ذلك كما فعل في السنة السابقة خلال أزمة تشيكوسلوفاكيا ولكنه امد العدة لجميع الاخطار ولم يعدها للحرب .

والبدا على ذلك تجدد الاشارة الى انه لم يهتم بالتسلح البحري الا في وقت لاحق .

وفي الايام الاولى من شهر ايلول ١٩٣٩ اختفت جميع المخاوف بفضل الانتصارات المفاجئة للقوات الالمانية في الحملة البولندية حتى ان هتلر نفسه استعاد تأكيدات .

وكنتم اسمعه في ذروة الحرب يردد دائماً : - كان يجب ان تنتهي الحملة البولندية بخسائر اكثر في الارواح لان معنويات القوات لن تكون افضل بسبب الانتصارات البيضاء التي تحققت في النمسا وتشيكوسلوفاكيا صدقوني ان احسن القوات لا تستطيع ان تقوم بزحف اخر الى بولندا بمجرد رصيدها الكبير في الانتصارات البيضاء دون اراقة دماء .

ومن الجائز ان مثل هذه البيانات انما افشى بها هتلر ليفطي سوء تقديره الدبلوماسي في شهر آب ١٩٣٩ .

وقد اخبرني الكولونيل - جنرال هنريكي قبل نهاية الحرب عن خطاب سابق لهتلر القاه بين الجنرالات ذكر فيه اراء مماثلة . وكانت تعليقات هنريكي غريبة ودونتها على الشكل التالي : ان هتلر كان اول انسان بعد شارلمان يركز قوة غير محدودة بين يدي رجل واحد . انه لم يسيطر على هذه القوة من اجل لا شيء . ولكنه اراد ان يستعملها في معركة من اجل المانيا . فلذا لم تربح المانيا الحرب فانها لن تصمد للتجربة وفي تلك الحالة تتردى وتهاوى .

وكان هتلر في اثناء اتهامه بالحملة الروسية سنة ١٩٤١ يفكر بالانتصار الكبير المقرر ان يعرضه سنة ١٩٥٠ حين تكون طريق موكب المجد قد افتتحت تحت اقواس النصر .



ألمانيا النازية والبلدان التي ضمتها إليها وتظهر منطقة ...

الهزيمة الأولى

وفي الوقت الذي كان فيه هتلر يحلم بخوض حروب جديدة وانتصارات رائعة ومهرجانات مجيدة برزت له إحدى أكبر الهزائم في حياته .

فبعد ثلاثة أيام من مقابلة ذكر لي فيها مخططاته العمرانية للمستقبل صدرت إليّ أوامر بأن أحضر إلى أوبر سالزبرغ مع رسومي ومخططاتي .

ووجدت في قاعة الانتظار في مقر برغوف الجبلي اثنين من مساعدي هس وهما ليتجن وبيتش ينتظران والشحوب باد على قسمات وجهيهما وطلبوا إليّ أن أوّجّل مقابلي مع الفوهرر لأنهما يحملان رسالة شخصية مهمة من هس إلى هتلر . ونزل هتلر السلم في تلك اللحظة وطلب أحد المساعدين إلى غرفة الجلوس .

وكننت الصفح رسومي واراجعها حين سمعت فجأة صرخة مدوية.
كخوار الثيران .. وصاح بعدها هتلر قائلا : « بورمان .. احضر حالا
... احضر حالا .. اين بورمان .. »

وابلغ بورمان ان يجري اتصالا مباشرا مع غورنغ ورينبتروب وغوبلز
وهملر . وطلب من جميع الضيوف الشخصيين الانسحاب الى الطابق
العلوي .. ومضت ساعات طويلة تمكنا بعدها من معرفة ما حدث .. ففي
منتصف الحرب طار هس نائب هتلر الى انكلترا .

واستعاد هتلر هدوءه ولكنه كان قلقا لئلا يستغل تشرشل الحادث
ويتخذة اداة لتضليل حلفاء المانيا وجملهم يفكرون في ان عملية جس
نبض للسلام قد تمت .

وقال هتلر : من سيصدق ان هس توجه الى انكلترا بدافع شخصي
سيعتقدون انني اوعزت اليه بالذهاب . وسيفكر الجميع ان في الامر خدعة
تمت وراء ظهر حلفائنا . وقال ان اليابان نفسها قد تغير سياستها
معنا .

وسال هتلر كبير الطيارين الالمان ارنست اوديت عما اذا كانت
الطائرة المزودة بمحركين التي استخدمها هس تستطيع ان تصل الى
اسكتلندا وما هو الجو الذي واجهته .

وجاء الرد يقول ان طائرة هس لاسباب تتعلق بالملاحة الجوية قد
تكون تحطمت ومن المحتمل ان يكون هس قد طار فوق انكلترا قليلا
وسقط في البحر .

وتمنى هتلر ان تكون التكهات صحيحة وقال « اه لو انه يفرق في
بحر الشمال فيختفي دون اثر وعندها يكون لدينا الوقت الكافي
لتقديم تفسير طاهر الدليل » .

وبعد ساعات قليلة بدأ هتلر يشك بالامر وقرر ان يعلن على الراديو
ان هس قد فقد صوابه .

وقد اعتقل مساعدا هس للاخبار السيئة التي حملها .
ولم يعد اسم هس يذكر في حاشية هتلر منذ ذلك الحين . ولكن
بورمان رباح يستطلع اخباره ويوجه جميع اساليب الاضطهاد الى زوجة
هس بكل ما لديه من وسائل .

وتدخلت ايضا براون من اجلها مع هتلر ولكن دون جدوى . وقد ساعدت زوجة هس مساعدة كبيرة في وقت لاحق دون ان تدع هتلر يعرف بالامر .

الحوال هس

وابلغني هس في سجن شباندو بعد ٢٥ سنة بكل رصانة ان فكرة طيرانه الى انكلترا جاءت من قوى خفية خارقة للطبيعة عن طريق حلم . ولم يكن يرغب في ان يعارض هتلر او يحرج موقفه ويجرح كرامته . وكانت الرسالة التي حملها الى انكلترا تقول : « اننا نضمن الامبراطورية البريطانية مقابل ان تترك لنا انكلترا يدا حرة في اوروبا . وكانت هذه الفكرة تمثل احدى القواعد الاساسية التي نادى بها هتلر في الحرب . وقد تمسك هس بهذه الرواية حتى النهاية .

وانا لا اعتقد ان هتلر غفر لثأبه هذا العمل المشين ففي ذات مرة بعد انقلاب ٢٠ تموز ١٩٤٤ ادخل في تحاليله الخيالية حول الوضع العام قضية « عودة الخائن » بين شروط الصلح التي سيطلبها من اعدائه . وقال يجب ان يشنق هس ..

وحين ابلغت هس عن ذلك قال : « كان سيفعلها معي دون شك .. ولكن الا تعتقد ان هتلر قال في سنة ١٩٤٥ حين بدأ كل شيء يؤول الى النهاية « ان هس كان على حق » ؟ ..

مات الوزير عاش الوزير الجديد

وفي شباط ١٩٤٢ قتل الدكتور تودت رئيس صناعات الدخيرة والتعمير لدى هتلر في حادث طائرة .

وجرى بحث في قاعة الطعام عند تناول الفطور حول الشخص الذي سيخلف تودت .

ووافق الجميع ان لا احد يمكن ان يحل مكان هذا الشخص الفلد الذي كان يشغل مكان ثلاثة وزراء في آن واحد ويتولى مسؤولية بناء الطرق والقنوات والانهار ومحطات توليد الكهرباء . والتحسينات عامة . وكان وزير هتلر المسؤول من اسلحة الجيش والدخيرة .

وبدا واضحا للوهلة الاولى انني سأتولى قسما كبيرا من اعماله .
وفي ربيع سنة ١٩٣٩ بينما كان هتلر يقوم بجولة تفقدية لخطط
زيغفريد قال لي : « اذا تعرضت حياة تودت لخطر فانك ستتولى عمليات
البناء » .

وفي صيف ١٩٤٠ استقبلني هتلر رسميا في مكتبه في مستشارية
الريخ في برلين وابلغني ان تودت منهمك باعمال كثيرة وقد قرر ان يسلمني
عمليات البناء وبينها الملاجئ على الساحل الاطلسي .

وتمكنت في ذلك الحين ان اقنع هتلر ان من الخير ان تبقى عمليات
البناء والتسلح بيد رجل واحد لاتصالهما ببعضهما .

ولم يمد هتلر الى الموضوع مرة اخرى كما انني لم ابلغ احدا
بالامر .

كنت متاكدا من ان شيئا ما سيجري حين كنت اول من استمدى
لمقابلة هتلر في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

ونظرة واحدة الى شوب كبير مساعدي هتلر كانت كافية لتقول ان
ثمة شيئا مهما في الجو .

واستقبلني هتلر رسميا بوصفه فوهرر الريخ وكان واقفا واستمع
بعمق الى تعزيتي ولم يذكر شيئا ولكنه دخل في الموضوع مباشرة وقال
« هرشبير .. عينتك لتحل مكان الوزير الدكتور تودت في جميع مهماته » .
وكدت اذهل وعقد لساني ..

ومد هتلر لي يده وكان على وشك ان يصرفني واعتقدت انه لم يكن
واضحا في كلامه فقلت له : سأقوم بكل ما في وسعي لاحل مكان الدكتور
تودت في جميع عمليات البناء .

وقال هتلر « كلا .. في جميع مهماته .. وكوزير للعتاد الحربي
ايضا ... » .

واستدركت قائلا « ولكنني لا افهم شيئا .. من ..
واسكنني هتلر قائلا :

« انني اتق بك وانك ستقوم بما اوكلت عليه وزيادة على ذلك ليس مندي
احد سواك . اتصل بالوزارة وابدا فوراً » .

وقلت « اذن اعطني امرا خطيا يا سيدي الفوهرر فانا لا اضمن ان بإمكانني القيام بهذا العمل .
وكتب هتلر امرا تسلمته بصمت . ودون ان يوجه اية كلمة لي شخصيا كما كانت العادة فيما بيننا استدار هتلر الى امور اخرى .. واستعددت لانصرف .

وكان ذلك اول مظهر من مظاهر تغيير العلاقة بيننا . وكمهندس عنده جرى هتلر على معاملتي كزميل . ولكنه الان بدا محافظا على المسافة المطلوبة بين الفوهرر ووزيره .

هتلر يوبخ غورنغ امامي

وفيما انا استدير لآخرج الى الباب دخل شوب وقال « ان مارشال الريخ هنا يرغب في ان يتحدث اليك بصورة عاجلة يا سيدي الفوهرر . ولم يأخذ موعدا » .

وابدى هتلر امتناضا ثم قال « دعه يدخل » .
واستدار اليّ وقال « ابق هنا قليلا » .

ودخل غورنغ منهمكا الى الغرفة وقال كلمات قليلة معزيا وبدا يقول بحماسة « من الافضل ان اتولى مهام الدكتور تودت في مشروع السنوات الاربع فانها ستزيل جميع الصعوبات التي نشأت في الماضي حول علاقته معي » .

ومن المؤكد ان غورنغ حضر في قطاره الخاص من مقر الصيد الخاص به في رومنتين على بعد ٦٠ ميلا من برلين منذ ان وقع الحادث في الساعة التاسعة والنصف مساء وجاء مسرعا .

ولم يبد هتلر اي تعليق على كلمات غورنغ ولكنه قال :
« لقد عينت خلفا لتودت .. الوزير شبير تولي جميع مهام الدكتور تودت من هذه اللحظة » .

وكانت كلمات هتلر حاسمة بشكل لم يترك مجالا للمناقشة .
وبدا غورنغ متمجبا ... ولكنه لم يعلق على كلمات هتلر وقال ببرود « لا شك انك تسمح لي يا سيدي الفوهرر بالا احضر ماتم الدكتور تودت ؟ .. انك تعلم الخلافات التي قامت بيننا . ومن المحال ان اكون هناك » .



القتال في ستالينغراد

لا استطيع ان اذكر تماما ما قاله هتلر في تلك اللحظة ولكني لم اتصور انني بقيت دون كلام اثناء هذه المحادثة الرسمية الاولى من مهنتي كوزير . واذكر ان غورنغ وافق دون تردد على حضور المآثم ليتفادى التعليقات ومما لا شك فيه ان غورنغ احب ان يخرج هتلر بامر توليه مهام تسودت ...

وعلم هتلر مسبقا بذلك فعينني بسرعة ليسد على غورنغ جميع الابواب .

وقد غامر في تعييني مفامرة كبيرة اذ حملني على تولي وزارة من اهم وزارات الدولة يتعلق عليها مصير البلاد كلها وانا لا اعرف منها شيئا .

فقد كنت شخصا غريبا بالنسبة الى الجيش والحزب والصناعة . وفي حياتي كلها لم اتول امورا تتعلق بمعدات الجيش اذ لم اكن جنديا ولم احمل بندقية لا في القتال ولا في الصيد .

وقد تبين لي امر واحد في هذه المقابلة هو ان غورنغ لن يكون لي حليفا معها كانت الظروف .

آخر من شاهد هتلر حيا

خدم « هانز لينغ » هتلر اكثر من عشرين سنة ، وكان آخر من شاهده حيا ، واول من شاهده ميتا ، وقبض الروس على « لينغ » وظل في معسكرات الاعتقال ١١ سنة وبعد خروجه روى القصة التالية عن حياة الزعيم الالماني السابق .

الرخصة

كانت الساعة الرابعة الا عشر دقائق من ظهر يوم ٣٠ نيسان عام ١٩٤٥ ، حين رايت سحابة من دخان قائم وسرعان ما علمت انها انطلقت من فوهة المدس الذي اختتم به ادولف هتلر حياته .

وكنت حينئذ واقفا خارج غرفة الخرائط في مخبأ على عمق ٣٠ قلما تحت انقاض مبنى المستشارية في برلين ، وما لبثت اصوات المدافع الروسية ان هتكت الصمت السائد في المخبأ ، ولم يكن لدى وقت اضيعه ، فشددت على اعصابي ودخلت غرفة الخرائط ، وهناك وجدت هتلر ميتا في جلسة معتدلة وقد استوى على احدى الارائك والدم يسيل من جرح في صدغه الايمن وينحدر على خده ، وهو في يذيه الرسمي الذي كنت قد اعدته له بعناية منذ ساعات قليلة، بحيث احتفظت حلته بروائها لم يصبها تفضن من الاستعمال .

وعلى الارض المسلس وقد سقط تحت يده اليمنى ، وعلى بعد متر منه بندقية ملقاة .

وكان جثمان ايفا براون بجانب هتلر ، واعتقد انها لقيت حتفها قبله . بدقائق معدودات ، ومع ذلك لم تل وجهها سمة من سمات الموت وانما كانت كالنائمة ، اذ ابتلعت قرصا يحتوي على السم قضى على حياتها وكان سيدي قد قتل صباح هذا اليوم كلبه الالزاسي « بلوندى » كما قتل كلبين اخرين من كلاب البيت .

وقبل ذلك بخمسة ايام ، استلمت عصر يوم ٢٥ نيسان الى غرفة الخرائط التي كان يتخذها هتلر مقرا لقيادته ، ونقطة لاتصاله ، ومركزا لحكومته المنهارة ، ولم يكف من اخلاصها مكانا له منذ بدأ الروس يهددون برلين . وهي حجرة صغيرة مفروشة بالاث بسيط على نقيض الحجرات المتسعة في المبنى الذي تدعى فوق الارض . وفي احد جوانبها باب يفضي الى حجرة ينام فيها الفوهرر ، ومن الناحية الاخرى باب ثان يؤدي الى غرفة ايفا براون ، اما حجرتي فكانت ملحقة بحجرات عائلة جوبلز .

ورأيت هتلر واقفا كالتمثال عند المائدة حين دخلت عليه ، وجهه ابيض وميناه باردتان تندران بخطر ، وتبادلنا التحية ، وهو ينظر في عيني كعادته ، ولكنني احست ان عيني تفتقدان قوتها المغنطيسية اللتين عرفنا بهما .

الذهب في سبيلك

قال لي هتلر :

— لينغ . . اني اعفبك من خدمتي لك ان تتركني وتمضي الى اهلك .
فقلت :

— يا زعيمى ، لقد كنت ممك في ايامك العظيمة ، وسأظل دائما معك مهما يحدث في المستقبل .

وظل وجهه بلا تعبير ، ورفع يده قليلا ثم قال :

— ما كنت انتظر منك غير هذا .

ثم قال فجأة كأنه يتكلم في امر عادي :

— عندي امر خاص لك . لقد قررت انا « وفراو براون » ان نموت معا . واوامري لك هي ان تقوم بنفسك بحرق جثتي ، لا اريد ان يتعرف علينا

أحد بعد الموت ، أعد كمية من الجاز ، ولف جثتيها ببطانية مبللة به ثم أحرقهما ، فإذا فرغت من ذلك ، فأذهب الى غرفتي واجمع كل ما يخصني من اشياء تذكر الناس بي بعد موتي . اجمع كل شيء : ملابسي الرسمية ، اوراقتي وكل ما يمكن استعماله او يقول عنه الناس انه يخص « الفوهرر » ، ثم أحرق هذه الاشياء ... ولكن - وانا اكرر عليك ما اقول - حذار ان تحرق صورة فردريك الاكبر ، المعلقة فوق مكنتي .

وكانت هذه الصورة محببة الى نفس هتلر ويعتز باقتنائه لها ، وكم من ليلة طويلة قضاها في الصل ، وكم من ايام نصر او هزيمة مرت به ، ومينا « فردريك » الامبراطور الالماني الكبير تطلان عليه من الصورة فوق مكنته ، وقال هتلر : هل فهمت اوامري يالبنغ ؟
قلت : نعم يا زعيمى وسأفعل اوامرك حرفيا ..

وقد قررت في نفسي منذ زمن طويل ان هتلر يؤثر ان يموت في برلين على ان يحاول الفرار ، كان يخشى ان يأسره الروس حيا ، او ان يجدوا جثته وهو ميت وكان رعبه الشديد مصدره ما حدث لجثتي « موسوليني وعشيقتة » وما يحتمل ان يتكرر بالنسبة لجثته وجثة ايفا براون ايضا .

قال لي هتلر :

- لو امسكوا بي حيا او ميتا ، لاخذوني الى موسكو ، ولمرضوني على الناس كما لو كنت دمية من الشمع . وارتفع صوته في نوبة هستيرية وصرخ :

- لن يحدث هذا .. اني اقول لك .. لا .. لا .. لا . لن يحدث !

الايام المشرة

وفي الايام المشرة السابقة على انطفاء شمعة حياة « ادولف هتلر » الى الابد ، كان المخبأ تحت الارض محلا لاحتفاليين مرحجين .

وكان الاحتفال الاول يوم ٢٠ نيسان عندما احتفل هتلر بعيد ميلاده السادس والخسين وبدأ مرحا بصورة غير عادية ، لا تثقله الهموم ، وجاء « غورنيج » و« ريبنتروب » و« كيتل » و« بورمان » وضباط من ذوي الرتب الكبيرة الى المخبأ ليقدموا الى « الفوهرر » تحياتهم . وكان اعضاء الحزب يرددون كلمة واحدة « مخلصين حتى النهاية » .

وشرب هتلر قدحا من الشاي اتبعه باخر ، ولم يكن من السهل الحصول على الشاي فني تلك الايام حتى لهتلر نفسه ، ولكنه كان شرابه المفضل لا يشرب غيره ، وقدمت القهوة والشمبانيا الى الضيوف ، واقترحت ايفا براون في مرج ان يشرب الجميع نخب عيد الميلاد ..

وما زلت اذكر اليوم . كيف كان الفوهرر مهتما بصحة « ايفان براون » وهما هيشان معا في المخبأ تحت الارض .

وكان يامرني ان ارافقها في نزعات نمشي فيها بين انفاض برلين، وكنا صديقين ، وذات مرة ، قبيل النهاية التفتت اليّ وقالت :
- اذا لم تحدث معجزة تنقذنا ، فان اعظم امنية عندي ان اموت مع الفوهرر كزوجة شرعية له .

واختنق صوتها ، وهي تمر بلحظة عاطفية، وانا لا استطيع - كخادم - ان اعلق على كلامها بشيء ، ولكني تذكرت كلامها عندما استدعاني هتلر في صباح يوم ٢٩ نيسان وامرني ان اعد الغرفة التي عقد فيها اهم مؤتمراته الحربية ، لحفلة زواجه بايفا براون وقال لي :

- سنجلس عند هذه المائدة ومعي شاهدا الزواج « بورمان » و« جوبلز » ولقد ارسلت في استدعاء « والتر فاجنر » الذي عقد زواج الدكتور « جوبلز » .
ثم سكت وغادر الغرفة فجأة .

وكان مقررا ان يعقد القران في عصر اليوم ، ولكن لم نهتد الى مكان والنز وتاخر القران فلم يتم الا في منتصف الليل ، واخيرا صار هتلر وايفا براون زوجين شرعيين .

الانتحار

وهكذا شهدت غرفة الخرائط احتفالا اخر قلعت فيه الشمبانيا للضيوف والشاي لهتلر ، وبدت السمادة وعلامات المرح على الجميع ، وقد صمموا على تجاهل الخطر المحدق ببرلين، وتنافس الحاضرون في تقبيل يد العروس .

لقد عرفت ايفا براون منذ زمن بعيد ولكني لم ارها في مثل سمادتها في ذلك اليوم .. لا شك ان المرح كان مصطنعا بعض الشيء، ولكن على الرغم من ذلك اعتقد ان احدا من الضيوف لم يتوقع ان

يحتضن الموت العروسيين بمثل هذه السرعة .
لفتت كلا من الجثتين في بطانية سميكة بعناية ، حتى لا يظهر منهما شيء وساعدني اثنان من الفدائيين على حمل الجثتين الى خارج المخبأ .
حمل « ايفا براون » ماجور جوينش الياور الملحق بمكتب هتلر ، وكانت ترتدي فستانا اردان بنقط زرقاء قائمة وفي قدميها حذاء من الطراز الايطالي الخفيف ، واتخذت جوربا من النايلون وفي معصمها ساعة لها اساور من البلاتين المرصع بالماس ، وهي الحلية الوحيدة التي كانت تتحلى بها ، وكان هتلر قد اهداها لها منذ سنوات .

وسكنت الجاز، صفيحة بعد اخرى ، فوق الجسدين ، وساعدني في ذلك « ماجور جوينش » وبعض الضباط ، وسمعا في ذلك الوقت صوت القنابل وهي تنفجر ، وصوت المدافع الرشاشة على مقربة منا وعلمت انه لم يبق امامنا وقت طويل .

وما كدت اشعل الجاز، حتى اندلع لهب كبير له بريق متوهج ، ولكن سرعان ما خمدت النيران بالسرعة نفسها التي اندلعت بها .

ولذكروت وصية هتلر بالا ابقى على اي الر له ، وجعلت افكر في تلك اللحظة فيما كان يجب ان اعمله وهو اعداد كمية من الكيروسين بطيه الاحتراق وادركت مع الحاضرين اننا لن نستطيع ايدا ان نحول الجثتين الى رماد ، لقد احترق زي هتلر الرسمي ، كما احترق فستان « ايفان براون » ولكن ما زال جسد كل منهما واضح المعالم .

وعندئذ تولى « بورمان » اتقاذ الموقف . فقد تلقى اوامر خاصة ، ولا ادري من الذي اصدرها ، وكان « جوبلز » و« بورمان » و« اكسمان » قائد الشباب الهتلري واقفين بالقرب من الجسدين المحترقين عندما هادرتهم الى المخبأ لاقوم بمهمتي الثانية ، وهي جمع ممتلكات هتلر الخاصة وابادتها ، وعندما خرجت من المخبأ بعد ذلك ، علمت ان الفدائيين حملوا الجثتين الى بقعة قريبة واعادوا حرقهما ثم دفنوهما .

هش الفرام

انه ليدهشني الان بعد عودتي من الاسر ، ان اجد العالم ما زال يسأل، ما اذا كانت ايفا براون عشيقة هتلر ، واذا كانت عشيقته ، فلم ظلت على هذه الحالة مع هتلر !!

اني استطيع الاجابة على هذه الاسئلة فايفا براون كانت مع هتلر منذ التحقت بخدمته في عام ١٩٣٥ ، وظلت منذ ذلك الوقت حتى ماتت معه ، وقد عاشا دائما معا فيما يسميه الناس « عش الغرام » .

و « ايفا براون » ابنة ناظر مدرسة « ميونيخ » ولما كانت في التاسعة عشرة من عمرها ذهبت ، وهي تلك الفتاة النحيفة ، الى سالزبورج لتعمل سكرتيرة « لهيررخ هولمان » المصور ، وكان صديقا لهتلر ، وفي احدى المناسبات ، قابلها « الفوهرر » هناك واهتم بها ، فقد كانت متميزة بالبساطة والالفة .. كانت فتاة من الشعب ، كما اعتاد هتلر ان يقول في كثير من الاحيان .

وفي اوائل عام ١٩٣٦ بدأ هتلر في تجديد بيته المنزل في برخستجان واعد فيه شقة مكونة من اربع حجرات له ولايفا ، منعزلة عن باقي حجرات البيت .

ولم تكن ايفا المرأة الاولى في حياة هتلر ، ولكنه منذ عرفها واحبها اصبحت المرأة الوحيدة التي يقضي معها اوقات فراغه ، مع استثناء مرات نادرة ، كان يهتم فيها هتلر - كما يفعل الرجال في جميع انحاء العالم - بفتيات اخريات جميلات .

وكانت غرفتي قريبة من حجراتهما ، وكان من عادة هتلر انه بمجرد ان تدخل عليه ايفا ، يذهب الى باب الحجرة ويقفله بالزلاج من الداخل ، حتى لا يستطيع احد الدخول عليه .

وقد حدث مرة ان نسي هتلر ان يفلق الباب ، فلما دخلت عليه فوجئت بايفا بين احضانه ، وغضب « هتلر » مني ، وتوقعت اسوأ الاشياء ، لولا تدخل « ايفا » التي كانت تحبني ، وتنظر اليّ كأقرب الرجال الى « الفوهرر » اي اقرب الرجال للرجل الذي تحبه ،

هل كان هتلر مجنوناً ؟ كثيرا ما يلقي عليّ هذا السؤال ، وقد قرأت كثيرا عن النوبات التي كانت تصيبه فيعض البساط ، او يمزق الستائر . وكل ما استطيع ان اجيب به على هذا السؤال هو اني لم اره ابدا يفعل هذه الاشياء ، مع اني كنت قريبا منه سنوات طويلة .

واغلب حركاته في الخطابة كان يدرسها ويدرب نفسه عليها من قبل ، وقد جرت عادته ان يقضي يومين ومن حوله فرقة من السكريرين قبل ان يرضى عن نص خطبة مهمة سيلقيها وبعد اعداد نص الخطبة يقف امام

المرأة ، ويحفظ الخطبة وفي يده ساعمة لضبط الوقت ، وكان يدرس حركاته بعناية تامة ويكررها مرات حتى يرضى عنها .

نظارات هتلر

وفي خلال العشر سنوات التي كنت خادما له في اثنائها ، كان يستعمل النظارات الطبية ليقرا . ولكنه كان ينزعج اذا رآه احد بها ، وكان يقول « لا يمكن ان يلبس فوهرر نظارات طبية » .

وقد صنعت آلة كاتبة خاصة لها حروف كبيرة تكتب عليها جميع خطبه ، حتى يستطيع ان يرجع الى احد نصوصها اثناء القاها امام الجماهير بغير ان يضع نظاراته على عينيه ، ولكنه كان يحكم العادة يخرج نظاراته اثناء الخطابة ، ثم يخفيها خلف ظهره ، فاذا ما جاءت فقرة مهمة في خطبته ضغط قبضة يده على النظارات وحطمها ، ولم يستطع هتلر ان يتخلص من هذه العادة ابدا ، فكان عليّ ان اعد له نظارات احتياطية ، واني لاذكر له ثلاثين حادثة على الاقل حطم فيها نظاراته .

وهناك عادة اخرى ، لعلها السبب في تلك الشائعات عن عضه للسجاجيد وتمزيقه للستائر .

فلدى هتلر ثلاثة ألوان من الأقلام على مكتبه ، قلم احمر ، وقلم اخضر ، وقلم ازرق .

وقد قال لي مرة ..

— اني اكتب « يا لنج » لاعدائي بالقلم الاحمر ، ولاصدقائي بالقلم الاخضر اما القلم الازرق فاستعمله عندما احس بانني يجب ان اكون حذرا .

وهذه الأقلام كان يقبض عليها بيديه ، او يلقي بها في قوة فتتحطم عندما يشور .. وهذا هو كل ما اذكره عن لحظات انغماله .

ولما بدا ان كل شيء آخذ في الانهيار راقبت هتلر وهو يتحول الى رجل عجوز رغم سنه ، وقليلون — في المانيا — هم الذين عرفوا هذه الحقيقة فقد اخفيتهما بحذر شديد .. كان الفوهرر يسحب رجله اليسرى بصعوبة اثناء مشيه .

وكانت عينه السرى لا تكف عن التقلص في عصبية ، ولم يعد يرى بها جيدا ، واشتعل راسه شيئا من حياة معظمها في مخبأ تحت الارض .

وكان الفوهرر يلجأ الى طبيبه « الدكتور تيو موريل » ، وهو الطبيب الوحيد الذي ظل على ثقته فيه .

وقد ظهر « موريل » في حياة الفوهرر عام ١٩٣٦ لأول مرة ، وسرمان ما كان له تأثير سحري في هتلر ، فكان يعد له دواء خاصا اعجب به كثيرا .

قال لي هتلر :

— ان « موريل » هو رجلي ، لقد اتقذني من آلامي ، ولقد طلبت منه ان يشرف على صحتي .

والى جانب الآلام الكثيرة التي كان يعانيها هتلر في معدته كان ينتابه الارق ايضا فاحتفظ بحوالي اثني عشر نوما من الاقراص المنومة يستعملها بالتناوب ، وقد صرح « موريل » للفوهرر بان يتلغ اية كمية يشاء من هذا الاقراص ، فقد اعددها بحيث لا ينشأ عنها خطر من تعاطيها ، « وموريل » هو الذي جعل هتلر يوافق على ان يحقن قبل ان يظهر امام الجمهور في اية مناسبة هامة .

وكان هتلر يخشى ان تفاجئه الام معدته وهو يخطب في الجماهير . فكان يأخذ حقنة لتقيمه من هذه الآلام ، واخرى لتضاعف نشاطه وتقاوم الضرر الذي قد تحدثه الحقنة الاولى .

وقد اعتاد هذه الحقن فلم يكف عن تعاطيها سواء خطب او لم يخطب . وكان الفوهرر يخشى أن يصاب بالسمنة ، وان يزداد وزنه ، فكان يتناول مسهلا قويا ثم يتناول الافيون ليهدئ من آلام معدته التي لا تحتمل قوة المسهل . ثم يأخذ بعد الافيون دواء آخر ليقتل به اي جراثيم قد تكون كامنة في جسمه .

وكدت أصبح طبيبا آخر الامر ، وانا أحمل دائما معي حقيبة مليئة بأنواع العقاقير والاقراص والحقن .

وكان يجب ان أعرف كل شيء عن هذه الادوية ، وطريقة استعمالها ، والوقت المناسب لتناولها .

وعلى الرغم من نجاح الطبيب في تخفيف آلام المعدة اول الامر ، فان هذه الآلام كانت تعاود هتلر ، حتى سيطرت عليه فكرة واحدة ، وهي ان هذه الآلام ستنتقطع لو تناول الطعام المناسب ، فاستخدم طبيب اغذية في الاشراف على المطبخ ، ثم أمر بزراعة الخضراوات التي سيأكلها في ارض مبخرة خلطت

بأنواع مختارة من الاسمدة ، وكانت عينات من التربة تفحص من وقت الى آخر ، كما كان الماء الذي تطهى به الخضراوات يحلل للتأكد من خلوه من الميكروبات .

ولما بدأت الاحوال العسكرية تسوء ، تناول هتلر اقراص « بلادنا » ليخفف من آلامه العصبية ، وعلى الرغم من ذلك كانت يده اليسرى ترتعش منذ معركة « ستالينجراد » ، ولم يستطع ان يسيطر على هذه الرعشة ، فلو فحصت صورته منذ تلك الفترة للاحظت انه كان دائما يضغط يده اليسرى على جسمه ، او يقبض عليها بيده اليمنى ، حتى يمنعها من الارتعاش بقوة .

ولما أحس هتلر بهذه الرعشة أخبر طبيبه « موريل » انه يعاني من صداع في رأسه ، وانه يعتقد انه مصاب بضغط الدم ، فقرر الطبيب القيام بعمليات فصد الدم من ذراعه . وبعد كل عملية كان هتلر يتنهد في ارتياح قائلا :

— آه .. هذا حسن .. الآن اشعر بحريتي من جديد .

ولما طبق الحلفاء على برلين ، كان هتلر يمضي وقته كله في مخبئه ، والذين جاءوا لزيارته بعد غيبة طويلة هالهم مظهره فقد بدا عجوزا .

وكان يدرك هو الآخر هذه الحقيقة فقد قال لي :

— لست في حاجة لان أشكر العدو على شعري الاشيب ، ان الشكر على ذلك يوجه الى قوادي الذين خذلوني .

ولما وقعت في أسر الروس ، اخذوني الى تلك البقعة من الارض التي ظننت ان هتلر قد دفن فيها ، وقد اعادوا استجوابي عدة مرات ، ولكنهم لم يصلوا ابدا الى المكان الذي دفن فيه .

وان لي في هذا الشأن تقديري الخاص ، ولكنه ليس اكثر من احتمال لقد دفن الفدائيون جثمان هتلر وعروسه ايغا براون ، في قبر عادي بالقرب من دار المستشارية ، ومن يدري لعلهما مدفونان هناك حتى هذا اليوم .

ما لا ينسى عن هتلر

بقلم فرديناند زاووربروخ
الجراح الألماني الشهير

أخرج موقف لي مع هتلر

كان الطبيب الألماني « فرديناند زاووربروخ » يعد من أبرع الجراحين في العالم . وقد أصدر قبيل موته في عام ١٩٥١ كتابا بعنوان « حياة جراح » نقتبس منه هذه الصفحات الخاصة بهتلر :

خلال الحرب العالمية الأخيرة ، عهد لي الإشراف على أقسام الجراحة ومستشفياتها المتنقلة الخاصة بالقوات المسلحة الألمانية ، فكنت أتنقل بين مناطق الاحتلال في فرنسا وبلجيكا وهولندا للتفتيش على هذه الأقسام . وبينما كنت في أحد المستشفيات ذات ليلة ، وصلتني رسالة تلفونية تخطرني بأن سيارة سوف تأتيني في الساعة الخامسة صباحا ، لتأخذني إلى المطار ، حيث ستكون إحدى الطائرات في انتظاري لتنقلني إلى مقر القوهر في « فينيتسا » بأوكرانيا ، فهو يريد أن يراني بمجرد وصولي إلى هناك .

ولم أتم في تلك الليلة ، فقد ظللت أفكر في هذه المقابلة ، وقد ذهبت بهي الظنون والشكوك كل مذهب . وفي الساعة الخامسة صباحا كنت متأهبا للخروج ، ولكن أحدا لم يحضر ، وظللت أنتظر حتى الساعة الحادية عشرة ، وقد شغلني القلق من تناول الطعام ، فلما هممت بطلب شيء آكله ، دخل

علينا بالمستشفى ضابط وجنديان ومعهم مصاب اتضح انه سائق العرببة التي ارسلت لي في الصباح ، فقد كان الضباب كثيفا والمطر يتساقط بشدة ، ولم يستطع ان يتبين طريقه وهو يسرع بسيارته ، فاصطدم بجدار حطم مقدمة السيارة ، واصيب بعدة جروح .

واعدت لي سيارة اخرى لتقلني الى المطار ، حيث وجدت طيارة نقلتني الى مقر الفوهرر ، وكان مخبأ فسيحا بنى على عمق مائة قدم من سطح الأرض . ولقيت مصادفة عند دخولي المخبأ ، البروفسور « براند » طبيب هتلر الخاص - وكنت أعرفه منذ ان كان يعمل مساعدا لي - فسألته في لهفة :

— ترى لماذا يريدني الفوهرر ؟

— ليست عندي فكرة عن ذلك ، ولكن من المستحسن ان تسرع بلقائه .. فقد اضطرب كل شيء هنا منذ ساعات لانك لم تصل في الموعد المحدد .

وحاولت ان اوضح له السبب في تأخيري ، ولكنه قاطعني قائلا :

— أرجوك ألا تضيع وقتا في الكلام .. ادخل اليه على الفور .

فقلت له معاندا :

— لا .. ينبغي ان اتناول فطوري اولا .. انني جائع جدا ، كن كريما ، واحضر لي فنجانا من القهوة وشيئا من الطعام .

فقال بصوت راجف مختنق :

— لو سمع الفوهرر بأنك تشرب قهوة وتاكل طعاما ، بينما هو في انتظارك ، لأمر بإعدامك وإعدام من قدم لك القهوة والطعام .

لم أمسكني من ذراعي ودفعني حتى بلغت غرفة الضابط الحارس . فما ان عرفني ، حتى اخذ يعنفني بحدة ، فقلت له منفعلا وقد بلغ مني الضيق حدا كبيرا :

« حدث للسيارة حادث وسائقها في المستشفى . والسيارة الثانية قديمة بطيئة ، وأنا الآن أريد شيئا آكله ! »

ولكن ذلك لم يهدىء من سورة غضبه ، واستطرد قائلا :

« ان هنا ستة عشر ضابطا ينتظرون لقاء الفوهرر منذ الساعة الثامنة صباحا ولكن مزاجه مضطرب بسببك . ادخل فورا ، واعطني المسدس الذي في جيبك ، فحمل الاسلحة غير مصرح به هنا . »

وفتح لي بابا ، دخلت منه وأنا اتوقع ان ارى هتلر ، ولكنني وجدتني

في بهو فسيح به اثك فاخر وليس به احد . فوقفت مدهوشا ، وقد تملكني
شيء من الرهبة والخوف .

كلب هتلر

وفجأة ، فتح باب صغير ، واندفع منه كلب ضخيم اتجه نحوي وهو
يتأهب للوثوب على كتفي واعمال اسنانه في رقبتني . ولكن من حسن حظي
انني كنت اعرف كيف أروّض الكلاب واهدئها ، فابتسمت للكلب متظاهرا
بالشجاعة والهدوء ، واخذت اتمتع بضع عبارات لا معنى لها ، وأنا أربت
رأسه وظهره . وسرعان ما تغير مسلك الكلب نحوي ، اذ اقمى على رجليه
الخلفتين بجواري متلذذا بعداعبتي له ، وجلست أنا على مقعد قريب باذلا كل
ما في وسعي لاطهار توددي اليه ..

وبعد دقائق ، دخل هتلر البهو ، وظل لحظة صامتا ساكنا ، ثم انفجر
قائلا بصوت كالرعد وهو يرى الكلب يتمسح بي :

« ماذا فعلت بكليبي ؟ » . فانتفضت واقفا في مكاني وأنا لا اعرف ماذا
اقول ، فاستطرد هتلر وعيناه تقدحان شررا :

« هذا هو المخلوق الوحيد الذي لم يكن يقبل على أحد سواي ولا يطيع
احدا غيري ، كيف خدعته وسحرته ؟ انني سأقتله ! »

وتراجعت الى الوراء وأنا ارتجف والكلب يزداد لصوقا بي ، وهتلر
يتقدم نحوي وكأنه سيفضربني وهو يقول :

« من تكون انت ؟ .. الانك جراح ماهر ، تظن انك تستطيع ان تفصل
ما نشاء ، فتجعلني انتظرك هنا ساعات بعد الموعد الذي ضربته لك ، وحينما
تأتي اخيرا ، تهينني وسلب مني ولاء كليبي ؟ سأمر بالقبض عليك » .

فقلت على الفور :

« انه فضل منك ان تأمر بذلك ، ولا تأمر باعدامي .. فأفعل بي ما
نشاء فانا رهن مشيئتك » .

فهدأت ثورة غضبه ، وانبسطلت أسارير وجهه ، وجلس الى مكتبه ، ثم
أشار الي بان اجلس على مقعد قريب .

وخفف من كهرية الجو ان الكلب في هذه اللحظة ابتعد عني ، فما هي

الا ثوان حتى كان هنلر يحدثني بكياسة وهدوء وكان شيئاً لم يحدث .. قال: « ان وزير خارجية تركيا مريض ، وقد بلغني أنك أجريت له جراحة من قبل ، وانه يتوق لأن يراك في انقرة لاستشارتك . ولما كانت العلاقات السياسية مع تركيا ذات أهمية كبيرة لنا كما تعلم . فقد أصدرت امراً بنقلك اليه في طائرة جديدة » .

وتطلع هنلر الى الكلب مرة أخرى ، ثم قال منفعلًا :

« قل لي ماذا فعلت لكلبي ؟ » .

فنظرت الى الكلب ولم انبس بكلمة ، ولكنه عاود السؤال في حدة :
« كيف ائرت عليه ؟ انه لا يذهب لاحد سواي . هل تفسر لي ذلك ؟ » .
فقلت : « نعم ، وانت الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يفهم تفسيري » .

فقال مرهوا : « انا ؟ .. كيف ؟ » .

فقلت : « انك خبير بفن معاملة الناس ، فانت تعرف كيف تسوس كل من تتصل به وتؤثر في نفسه وتجلبه اليك . اما انا فأجيد هذا الفن مع الحيوان فحسب » .

فحلق في وجهي بضع دقائق وهو صامت ، ثم قال :

« سوف لا تسافر بالطائرة الجديدة ، اذ لم تجر عليها بعد الاختبارات الكافية للاستيثاق من سلامة محركاتها .. ان طائرتي القديمة من طراز « يونكر ٥٢٠ » اضمن منها طبعاً . انني اشكرك » .

فنهضت وانحنيت محييا وشاكرا ، ثم انجذبت نحو الباب ، فناداني ، ثم قال :

« يجب ان تشفي الوزير التركي ، وبهنا ان تعود الينا سالما ! »

في ساعات الهزيمة

وفي اواخر الحرب ، اقامت انا وزوجتي في المخبأ الكبير الذي اُعد بمستشفى « شاريتي » حيث كان يمكن اجراء الجراحات في شيء من الامان . لقد اقتحم الروس برلين حينذاك ، واخذت المدفعية الروسية تحصدهم الاهلين ، واحتدم القتال عنيفا في الطرقات ، فلم نستطع ان نبرح المخبأ - ولو لبضع دقائق - ليلا او نهارا ، لكثرة الجراحات التي كنا نجريها فيه . وكانت آلات المحطات الكهربائية قد تعطلت ، فأصبحنا نستعمل البطاريات والشموع

للإضاءة . وبراكمت الجثث حولنا ، وكانت أنات الجرحى ومحباهم من
الام تصك آذاننا باستمرار . وكنت أنا وزوجتي - وعي طبيبه - لا ندل
الراحة غير بضع ساعات انشاء الليل ، نقضيها مستلقين على سريرين بدهليز
مجاور لغرفة الأشعة ، ولا طعام لنا الا الغليل من ايسكويت الجاف واكواب
من الويسكي لم اكن ادري من أين كانت زوجتي تحضره .

وفي اول مايس ١٩٤٥ ، فوجئنا بضابط يدخل علينا وهو يتعثر فوق
جثث الموتى واتلاء الجرحى واعضائهم المبتورة ، وفسوق المرضى الذين
أجريت لهم جراحات ثم وضعناهم على الأرض حتى يتعالوا للشفاء ، واخذ
يصيح : « عندي اوامر للجراح زاوربروخ ! »

وكانت روائح الدم والعرق والصدید والانيير والمعقمات تكون مزيجا
عجيبا يركم الانوف . فلما قلت انني انا زاوربروخ ، اسرع نحوي وانا واقف
امام احد المصابين والبضع في يدي ، وقال بصوت عال :

« ان عددا كبيرا من الجنود الالمان ليسوا بعیدين من هنا ، والروس
يتقربوننا في كل مكان . وفرصتنا الوحيدة للنجاة بانفسنا ان نكمن هنا .
لذلك ينبغي ان تخلوا المكان فورا » .

فنزلت اليه ساخرا ، ومضيت في العمل وأنا اقول : « ليس هذا وقت
التفكير في ذلك » .

فصاح مهددا : « في هذه الحالة سنخلي المكان بالقوة . بعد عشر
دقائق سيكون الجنود هنا » .

وانتهت الجراحة بعد ثلاث دقائق ، فاستدعيت مساعدا لي ، وامليت
عليه رسالة لهتلر - كتبها على آلة كاتبة صغيرة وضعها على ركبتيه - طلبت
منه فيها ان يختار مكانا آخر للجنود ، وكلفت رسولا بنقل الرسالة اليه فورا
وموافاتي بالرد .

ومضى وقت طويل ولم يعد الرسول ، فطلبت من احد المساعدين ان
يذهب بنفسه ليرى ماذا حدث . واندفع المساعد نحو مدخل المخبأ ، فرأى
عنده جنديا روسيا حاملا مدفعا رشاشا صغيرا ، فعاد الي وفي اثره عدد
كبير من الجنود الروس المسلحين . وقد بهتوا عندما رأوا اكاداس اللحم
البشري والاعضاء المبتورة ، وتحولت انظارهم نحو مريض كانت بطنه ما تزال
مفتوحة .

وتقدم واحد منهم نحو منضدة العمليات - متظاهرا بالشجاعة -
فدفعته إحدى الممرضات فسقط على الأرض . ومن حسن الحظ أن ادخل
الي في هذه اللحظة ضابط روسي كان مصابا بجرح خطر ، فأسرعت نحوه
لأسعافه حتى أظلي الموقف ، ولكن طبيبا روسيا كان حاضرا مع المصاب
فمنعني من الاقتراب منه . وقد سألني سؤالا لم أفهمه ، فرايت أن أعرفه
بنفسي فلعله سمع عني . فأشرت الى نفسي وأنا أكرر : « زاوربروخ » .

فتعتم باسمي مرتين ثم أشار الي بأن أخرج رصاصة ثقت معدة
الضابط ، فبرزت رأسي مشيرا بالموافقة وبدأت العمل ..

وفي الوقت نفسه ، كان الجنود الروس - برئاسة أحد ضباطهم -
يفحصون المخبا . وسمعتهم يسألون زوجتي من تكون ، فأجابت أنها طبيبة
المانية وأنها زوجتي ، فتركوها ..

مفاجأة

وانتهت الحرب ، فحمدت الله كثيرا ، فقد وجدني أسعد حفظا من
غيري بكثير ، إذ لم يصب أحد من أسرتي بسوء ، سوى أن ابني فردريك
الطبيب كان قد انقطعت عنا أخباره منذ وقت طويل . وذات يوم ، أرسل الي
ضابط روسي كان مصابا بسرطان في الرئة ، فأجريت له جراحة دقيقة
كللت بالنجاح . فلما شفي وجاء يودعني ، قال لي أنه لا يدري كيف
يكافئني ، فربت على ظهره وقلت :

« أن خير مكافأة لي هي أن أراك مفاي » . وصمت الضابط برهة ،
وقد بدا أن خاطرا خطر له ، ثم قال : « أنني أشرف على معتقل للأسرى
بسيبيريا ، فيه ألمان عديدون . وقد تذكرت الآن أن أحدهم طبيب يدعى
« زاوربروخ » ، فهل هو قريب لك ؟ » .

فقلت ودموع الفرح تكاد تطفر من عيني :
« أنه ولدي .. هل هو على قيد الحياة ؟ » .
فقال الرجل : « نعم » . ثم استطرد قائلا : « لقد رددت لي صحتي ..
فسأرد لك ولدك » .

وبعد أسبوعين ، حضر الضابط الروسي بسيارة ومعه فردريك وكمية
من الجبن والأطعمة ..

بالع القلط

ومن الذكريات التي لا انسها يوما عملت فيه الى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وفيما انا موشك على مغادرة غرفة الجراحة - وانا احس بالجوع والتعب - اذ اخبرني بعض المساعدين ان كهلا يجلس على باب الغرفة في انتظاري منذ الصباح الباكر ، وقد رفض ان يفصح لاحد عن حاجته ، وابى ايضا ان يغادر المكان قبل ان يراني . فلما خرجت اليه ، رايت رجلا اشيب ضئيل الحجم يجلس حزينا منكس الرأس . فلما حييته وسألته عما يريد ، سألتني هل انا « زاو بروخ » ، فلما استوثق مني ، قال انه يربي القلط ، وجمل يسهب في ايضاح أهمية تربيته لها ، فأيقنت انني امام احد مرضى العقول الهادئين الذين لا خطر منهم ، اذا ما صلتني بالقطط وتربيتها ؟

ولكن الرجل قطع تيار تفكيري قائلا :

« انك وحده تستطيع ان تنقذني من اليأس ومن الموت جوما » . وحملتني حماسة الرجل على الاصغاء الى حديثه عن تربية القلط وعن جمال القلط السيامية . وقال ان عنده قطا نادرا منها ، وقد كان ينجب قطعا رائعة الجمال ، وان هذه القطة هي مصدر رزقه الوحيد . ثم قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

« ولكن هذا القط اصيب فجأة بجرح اقعده عن الحركة ، وقد قيل لي انه سيميته ، وفي هذا خراب بيتي لا محالة . . ولم يبق لي من أمل سوى مبضعك يا سيدي ، فهو السبيل الوحيد لانقاذه وانقاذ حياتي معه » .

فقلت للرجل : « حسنا . . احضره غدا » .

فقال : « غدا ؟ ان كل ثانية تمر تزيد الحالة تفاقم » . ثم انحنى وأخرج من تحت المقعد الذي يجلس عليه سلة صغيرة بها قط جميل حقا ، فأخذه على ركبتي لأفحصه ، فوجدته مصابا بفتق حاد . وادركت ان الرجل محق في الالتحاح باستئصال الجراحة . فربت ظهر الرجل ، وقلت له :

« ضع قطك في السلة وتعال معي الى غرفة العمليات » .

وقلت للممرضة المختصة وانا اسبق الرجل الى الغرفة : « عندي عملية عاجلة سأعملها الآن . . » .

وقبل ان اتم كلامي ، اسرعت بضغط الجرس المخصص لاستدعاء الاطباء والممرضات في الحالات العاجلة ، فما هي الا دقائق حتى كان الاطباء

والمرضات قد التفوا حولي ، وقد الجمت الدهشة السنتهم حين راؤني
اضع على منضدة العمليات قفا واخدره بالاثير . ولم تكن العماية صعبة فقد
اجريتها بنجاح في وقت قصير . ولما فرغت منها ، سألتني الرجل :

« ماذا تريد مني اجرا للجراحة ؟ » فقلت :

« اجري ان ارى القط معافى » ، وبعد اسبوعين حضر الرجل ومعه
القط ، وابى الا ان يتركه عندي يومين !



صورة تصور حالة الناس في اثناء الحرب وهم يفتادون منازلهم المدمرة
آخر .. والمصورة مأخوذة من مكان ما في اسبانيا اثناء هجوم اليابان على
مراكز الطفء فيها ..



ونستون تشرشل: حياته وكفاحه

بقلم : شارلز مورني ، جون دانينبورت

تأليب العالم

انقضت حرب المانيا بعد ان الب عليها ونستن تشرشل العالم كله .
وقد اصبح هذا الانكليزي في أعين الناس اليوم آخر بطل صنديد انجبتته
اوروبا الغربية . فما من أحد من معاصريه كان احسن منه فهما ، او ابلغ
بيانا ، او اشد استماتة في الدفاع عن « المجتمع المهدب ، التسامح ، الرحيم ،
اللين الجانب ، المختلف الآراء والاهواء » والذي نسميه : الدولة الحرة .

وتشرشل هو القائل منذ عهد قريب : « ان القادرين على درك النصر
يعجزون عن تنظيم السلم ، والقادرون على تنظيم السلم ما كان ليدخل في

قدوتهم ابدأ ان يدركوا النصر » . وصرح وزير الحرب العظيم ، بمد خيبته التامة في الانتخابات ، انه سيتخذ لنفسه موقف المعارضة في مجلس العموم .

لماذا يريد ان يستمر في الكفاح ؟ ان اغلب الساسة يجهدون انفسهم في العمل للمستقبل ، اما تشرشل فيحذر الناس نسيان الماضي . انه من المحافظين ، ولكنه هو الذي ادخل بفريدج الاشتراكي في الحكومة منذ سبع وثلاثين سنة مضت . وهو من دعاة الاستعمار ، الا انه هو الذي نبه مواطنيه الى المجد العظيم الذي تناله الامبراطورية في نظام جماعة الامم الحرة . وهو يفرط كسائر مواطنيه في الشراب ، ولكن جلده على العمل الشاق المضني يروع من هم اصغر منه سنا . وهو الرجل الذي اقضته انكلترا ونفته من ميدان السياسة لانه « متوقد الدهن » ، ولكن لا يوثق به » ، فاذا هذا المطرح هو الذي استطاع ان يجيش الرجال حتى يؤدوا واجبهم وقال لهم : « اعدوا اسلحتكم وكونوا شجعانا » .

نعم ، ان تشرشل ليس رجلا فردا ، بل رجالا : فهو صحفي ، ومؤرخ ، وكاتب تراجم ، وجندي ، ورسام ، وبناء ، وطيبار ، وسياسي ايضا . وقد عاش ألوانا من العيش لا تحد ، تبدأ في قصر بلنهم ، وهو من اكبر قصور الريف في انكلترا . وهو نجل سيدة امريكية مشهورة الجمال ، هي (جيني جيروم) ، وابوه هو الورد راندولف تشرشل ، ذلك الشاب السريع البادرة البارع الانيق الذي استطاع ، على ما ابتلى به من معارضة ، ان يصل الى ثاني مناصب الدولة في خطر الشان ، وهو منصب وزير المالية .

ولما كان ابوه يرتاب في صلاحه للمحاماة الحقبة بمدرسة هارو وهو في الثانية عشرة من عمره ليعدّ لدخول الجيش . وانتقل ونستن من هارو الى مدرسة ساندهرست ، حيث يمدّ ابناء الطبقة الراقية في انكلترا للالتحاق بالجيش ، فبدأ اقرانه في فن المناورات وفن الاستحكامات ، وهما اخطر علوم المدرسة شانا . ولما بلغ العشرين منح رتبة الملازم الثاني ، والحق بالفرقة الرابعة للفرسان (الهوسار) وهي الفرقة الخاصة بجلالة الملكة . وهكذا بدأ تشرشل يحيا حياة عسكرية لم يكتب عنها احد بمثل حماسه واهتمامه .

وقد قضى اكثر ايام التمرين الحربي (في الهند ، وفي السودان ، وفي حرب البوير) وهو جندي ومراسل صحفي معا . ولم يكن كل ما فعله تشرشل الشاب ، الذي ظفر باكبر مرتب في الصحافة ولما يبلغ الرابعة والعشرين ، انه وصف آخر هجوم رائع شنته فرقة الفرسان على الدروايش

في موقعة أم درمان ، بل لقد ركب مع حاملي الرماح جنباً الى جنب ، وهو يطلق الرصاص من مسدسه حتى أُردي خمسة من أعدائه على الأقل .

ولم يقض أيامه في الهند ، كما يزعم خصومه ، بين الصيد واللهو ولعب البولو ، بل أن هذا الضابط الصغير الطموح ، كان يترك زملاءه في مدينة بنجالور يستمتعون بالقيولة هرباً من القبط الخائف ، ويعتكف وحده يقرأ ويزود ذاكرته الخارقة بروائع الأدب التي فاتته في مدرستي هارو وساندهرست ، فقرأ افلاطون وأرسطو وداروين وماكولي . واستغرق في دراسة كتاب المؤرخ الانكليزي جيبون عن « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وانهارها » ، وعلى أسلوب جيبون ولا ريب احتذى تشرشل في أسلوبه الجهير المتدفق .

ولما عاد تشرشل الى موطنه في اجازة ، قرأ رايه فجأة انه قد ضاق بالجيش ذمعا ، فهو رجل مولع بأشياء تكلفه مالا كثيراً ، فلا يكفيه مرتب الضابط ولا المبلغ الذي ترسله اليه امه كل سنة وقدره ٥٠٠ جنيه . ثم أن حدة نقده لنغر من قادة الميدان البريطانيين ، لم ترض رؤساءه ، فمن أجل ذلك قرأه على أن يحدو حدو ابيه ويشغل بالسياسة .

في مجلس العموم

مر عام وعاد تشرشل من حرب جنوب أفريقية بعد فراقه من أسر البوير فراراً بعد ضرباً من الاساطير ، فاحتفى به العمال في اولدهام على أنه (أنبل أبطال انكلترا) وانتخبوه نائباً عنهم في مجلس العموم . وفي السادسة والعشرين كان هذا النائب قد اشترك في ثلاث حروب ، وكتب أربعة كتب ، وادخر وقت حاجته خمسين الف ريال اكتسبها من كتاباته ومحاضراته . ثم اذا به يبدأ مسلماً جديداً .

ذلك أن تبرمه بمبادئ المحافظين دفعه في سنة ١٩٠٣ الى الاقدام على عمل يعد أروع ما قام به في حياته كلها ، إذ دخل قاعة المجلس ، وانحنى بوقار متمهلاً كالسنة المتبعة أمام رئيس المجلس المكلل رأسه بالشعر المستعار ، ثم دار على عقبه ، ولم ييمم شطر مقاعد المحافظين ، ورئيسهم آرثر بلفور ، بل أمّ مقعداً خالياً بين المعارضين ، وجلس بجوار أحد نواب بلاد الغال ، هو الشاب دافيد لويد جورج السياسي الناشئ المتطرف .

وفي سنة ١٩٠٦ ظفر حزب الاحرار في الانتخابات التالية بأغلبية

جهدت لتشرشل سبيل الظهور ، فأخذ يستحث سن طائفة من قوانين الإصلاح على رغم معارضة المحافظين . ومن هذه القوانين تحسين حالة العمل في المصانع والمناجم ، ومنح معاش لكبار السن ، وإنشاء مكاتب لاستخدام العمال . وزاد الاحرار ضريبة رأس المال ، وقضوا على سلطان مجلس اللوردات .

ولكن قلب تشرشل كان قد اشرب حب مبادئ المحافظين ، فقلبه حتى عاد الى حزب اليمين مرة أخرى . وفي سنة ١٩١١ عرض عليه المستر اسكويث منصب وزير البحرية ، فانصرف عن مشاكل العمال المتعطلين واطعامهم ، وهي مسائل شائكة مثيرة للنزاع ، الى معالجة امور أخرى عاتية : كعبار مدافع الاسطول ، والسيطرة على البحار . وكانت ألمانيا حينئذ مجدة في بناء اسطولها الكبير لتناهض سيادة بريطانيا . وبدأ بينهما سباق بحري يتوقف على نتيجته مصير انكلترا .

ويومئذ اصيت تشرشل ينتشر ، فلواه لانهرم الاسطول البريطاني شر هزيمة في سنة ١٩١٤ ، فقد استبدل بكبار السن من امراء البحر ، شبانا ولاهم مناصب القيادة ، ورفع أجور البحارة ، وإنشاء سلاح الطيران البحري ، وغير وقود الاسطول من الفحم الى البترول . وكفل له بحصافته موارد في المستقبل ، بشراء آبار البترول في ايران . والى نشاطه هذا يرجع الفضل في ان الاسطول البريطاني كان متاهبا للقتال حينما غزت ألمانيا أرض بلجيكا .

ولكن نجم تشرشل الذي تلالا في سنة ١٩١٥ ، انكدر بعد ذلك حينما عمل على ارسال حملة كبيرة كان نصيبها ان تحطمت على صخور غاليبولي . ولم يستطع كثير من مواطنيه ان يقتنعوا بأن نتائج التحقيق الدقيق ، الذي جرى في أمر هذه الحملة ، قد اخلته من الملامة . فلما اعيد تشكيل الوزارة أقصى عنها تشرشل .

فأبحر الى فرنسا ضابطا مقاتلا وحارب في الخنادق سبعة اشهر ، ثم تولى لويد جورج رئاسة الحكومة فاستدعاه الى لندن ، ليتولى وزارة الذخيرة فوقف على دقائق الانتاج الحربي ، واتم معارفه في فنون الحرب واستكمل هذا المحارب دربه .

قبل الحرب القائم

ودخلت انكلترا في فترة الركود التي تتخلل الحروب فقلل انتفاعها برجلها العظيم ، وتشاغل تشرشل منذ سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٠ بكتابة

مقالات لا خطر لها في الصحف والمجلات ، وانهمك فسي المقامرة في مونت كارلو وسوق الاوراق المالية . وكانت اللوحات التي رسمها في ذلك العهد تدل على حياة رجل يضرب في الارض على غير هدى ، فهي مناظر طبيعية في ساحل الريفييرا ، وقتوات هولندا ، وخلجان النرويج .

كانت هذه هي السنوات العجاف في حياة تشرشل ، ولكنه كان فسي انحداره هذا بضارع كثيراً من الرجال الذين بلغوا القمة في حياتهم . فلم تر انكثرا كتابا غيره ، سوى برناردشو ، ربا دخله على خمسين الف دولار في السنة .

وكتب كتابه عن حياة (مالبرو) في اربعة اجزاء ، وكثيرا ما قضى ليله يكتب ، وهي عادة اكتسبها زمن توليه وزارة البحرية . ولكن هذه الروح التي نفخها في سيرة جده كانت ، فيما يبدو ، منتزعة من روحه هو ، حتى صار يخيب امل ربة الدار اذا دعى الى مادية : نعم لم تزل ثمة ومضات من حديثه الخلاب الذي جعل لآلاف من المآدب شهرة دائمة ، ولكنه يقضي اكثر وقته صامتا مقطباً ، كأنه جسد لا حياة فيه ، او كأنه مصباح قد انطفأ .

فلما جاءت ساعة يقظته هبّ هبته ، فاستشف من وراء ما كان من الجدال المستمر بين حزب اليمين وحزب اليسار ، والذي بهت له الساسة والمفكرون ، سرّ البلاء مجسماً . فمئذ سنة ١٩٣٢ - من قبل ان يتولى هتلر رئاسة الوزارة في المانيا - نرى تشرشل يحلر حكومته ان سنخضع بصياح المانيا من طلب المساواة في الحقوق في اوربا . وكتب يقول : « ان هذه الفرق من الشبان الاشداء المنحدرين من أصل تيوتوني ، الذين يخترقون دروب المانيا وطرقها وفي عيونهم بريق النهم ، لا يلتزمون مساواة ، بل يلتزمون سلاحاً » .

وبدت انكثرا غافلة كأنها لا تبالي ، واعلن طلبة اكسفورد عزمهم على ان لا يقابلوا ، وسخر الصمال من تشدقه بالحرب الذي مضى زمنه . اما الحزب الذي ينتمي اليه تشرشل فليس له برنامج سوى التهذؤة . وفي احدى المرات القليلة التي حضر فيها اجتماعات حزبه القى خطبة عنيفة ندد فيها بسياسة الخضوع لهتلر وختمها بقوله : « أفمن اجل ذلك تطرحون جانباً ذلك التراث المتين الذي خلفه لنا اولئك الذين بنوا عظمتنا ومجدنا » . وخرج من الحجرة وتبعه هارولد نيكلسن وهنائه . ولما كان نيكلسن من الكتاب ، فقد سألته عن جماعته الاخيرة امرتجلة هي لساعتها ؟ فصرخ فيه تشرشل : « سحقاً للكلام المرتجل ! لقد ظللت أفكر فيها وأنا في الحمام ، ولقد وددت الآن لو لم أكن ضيعتها هباء في آذان هؤلاء الاوتساب ! » .

امنموه

ولم تكن غاية الامر هذا الكلام المنمق ، بل انه سعى حتى ظفر بأدلة تثبت تسلح المانيا واستفحال جيشها ، فكتب في ربيع سنة ١٩٣٦ يقول :

« امنموه ، امنموه ، امنموه الآن ! »

وقام يدعو الى عقد حلف عظيم نواته عصابة الامم وتدخل فيه روسيا . ثم حدث اجتماع ميونيخ ، وهبط (نيفل تشمبرلن) في مطار كرويدن وهو يلوح بقصاصة من الورق ، فخطب تشرشل في مجلس النواب قائلا :

« افتتح قولي بكلمة شد ما تنكرها الاسماع وتنفر منها القلوب ، لقد هزمتنا هزيمة كاملة قاضية » .

ومر عام واصلت بريطانيا الحرب ، فلم يبق لتشمبرلن مفر من ان يعيد الى الوزارة ذلك الرجل الذي قال عنه مرة :

« ان التعاون معه مستحيل » وتولى ونستن منصب وزير البحرية ، وتهلل بالبشر ضباط الاسطول المنتشر في مواقع القتال في جميع انحاء العالم ، وهز تشرشل ما هزهم فتوهج ذلك المصباح الذي كان قد انطفأ .

غير ان توليه وزارة البحرية لم يدم الا قليلا ، فقد تزعر تشمبرلن من صدمة غزو الالمان لبلجيكا ، وهولندا ، ولم يبق مفر من تاليف وزارة ائتلافية ، الا ان حزب العمال رفض العمل تحت رئاسة احد من المحافظين غير اللورد هاليفاكس وزير الخارجية السابق ، او تشرشل . ورأى هاليفاكس ان المحكمة تقتضيه ان يتنحى قائلا : انها مهمة تتطلب فردا من الشعب لا من اللوردات .

وبعد معركة دكرند صار واجب تشرشل بينا ، فقد ضاقت اوروبا ، وانضمت روسيا الى المانيا ، ولا يزال الامريكيون يتجادلون في فضائل الجياد . فقال لورداته : « ايها السادة ، نحن الآن وحدنا ولا ممين ، وهذا امر يجعل قلبي في نشوة » ويروي اللورد هاليفاكس انه دخل على تشرشل في مكتبه ذات يوم فوجده يرتجل تلك الكلمات التي تردد صداها في جميع انحاء العالم بعد ذلك بأسبوع ، اذ كان يقول : « سنقاتل على الشواطئ ، وسنقاتل على المهابط » ثم خفض صوته واستطرد يقول : « واذا ما قدر لهم ان يلبفوا لندن ، فسأقاتل من وراء هذا الجدار المحصن الواقع في نهاية هذا الطريق ، وانا احسن الرماية كما تعلمون ! » .

غير ان الجدر المحصنة لم تكن هي التي انقلت انكلترا ، بل انقلدها اقدام سلاح الطيران البريطاني . وتشرشل دراية بأمور الطيران لا يدانيه

فيها احد من كبار الساسة . وكان يصله مع فطوره كل صباح تقرير عن عدد ما أحدثته القنابل من حفر ولم تردم بعد في مدارج مطارات مقاطعة كنت . وطال تردده على المغارة التي يدير منها السير هيو داودنغ اسراب طائرات سلاح الطيران . وكان في المغارة يوم ١٥ ايلول المشهور ، حينما جاء من فرنسا اكبر حشد من الطائرات الالمانية يزار زئيرا وشقت طريقها الى ضواحي لندن ، فها هو الا ان ارتدت على اعقابها منهزمة بعد ان اسقط منها ١٨٥ طائرة .

فكانت معركة العام الفاصلة ، بل احدى ، المعارك الفاصلة في التاريخ كله . وبدأت بعد ذلك غارات الليل ، وكاد الالمان يصيبون تشرشل مرتين ، اذ حدث مرة ان سقطت قنبلة ثقيلة بالقرب من دار الرئاسة وهو فيها يتعشى مع بعض ضيوفه ، فتطايرت نوافذ الدار ، ولكن تشرشل استولى على مقاليد الامور كأنه قائد في ميدان القتال ، وأمر الخدم بالنزول الى القبو ، لم تبعهم هو وضيوفه يحملون صحافهم وكؤوسهم في أيديهم . واتموا عشاءهم جالسين على صناديق من خشب .

وفي هذه الفترة تابعت خطبه البليغة تترى ، كأنها دقات ناقوس هائل ، ووقف الناس من مختلف العقائد والاحزاب في جميع انحاء العالم ينصتون ، واستغل تشرشل الخطيب موقف انكلترا « منفردة وحدها » خير استغلال . على حين ان سياسة انكلترا القديمة المتوارنة هي ان تقابل ومعه حليف ، وان تقايل في سبيل قضية نستميل اليها من يحالفها ، وهذا امر كثيرا ما يفغل عنه الناس . فكان الحلفاء الذين يطمع تشرشل في محالفتهم هم روسيا والولايات المتحدة .

غزو روسيا

وكان غزو المانيا لروسيا نعمة من الله ، ولو ان تشرشل كان يتوقعها منذ زمن . أما استمالة امريكا فكانت مسألة أشد تعقيدا ، ثم زاد ميل الناس في امريكا الى انكلترا ، فأخذ تشرشل يبذل جهده للانتفاع بذلك .

ولم يكن تشرشل كزرا بخيلا وهو يتلمس الحليف ، فيوم كان يجري بينهما الاتفاق في شأن المدمرات والقواعد البحرية تنازل تشرشل عن برمودا ونيو فونديلاند . وزادت طلباته للعتار من الولايات المتحدة ، وأخذ ينفق من مدخر الذهب الباقي في انكلترا اتفاق المسرفين .

وجاءت نعمة من الله اخرى ، ووقع الهجوم على بيرل هاربور ، فصرح ونستن تشرشل بأن وزارته ستعلن الحرب من فورها . ثم اتصل بالبيت الابيض مؤكدا ان بريطانيا ستؤدي واجبها . ورأى تشرشل ان هذا الواجب يفترضه ان يذهب هو وحاشيته كلها من كبار قواد البر والبحر الى البيت الابيض ويقضي فيه عيد الميلاد . وحثه على الاسراع انه خشي امرين : اولهما ان تضطر امريكا في لحظة الفرع الى تحويل قوتها الى المحيط الهادي ، وتانيهما ان تحصر امريكا جهودها في حرب اليابان ، فيمنعها ذلك من ان تستمر في تنمية الصلات المتواشجة بينهما .

ولو كان تمة اساس للمخاوف التي تساوره ، فاجتماع واشنطن قد بددها تبديدا . واخذ تشرشل يتدفق في حديثه الخلاب وهو على مائدة الطعام ، ولم يستأثر وحده بالحديث ، بل ان تشرشل ، الذي لا يصبر على حديث احد غير نفسه في مجلس الموم ، اخذ يصفي مقبلا على ما يقصه روزفلت من نوادر . وكان هاري هوبكنس هو اول من فتح باب هذه النوادر ، لاذ قال انه حينما رأى البحارة البريطانيين في مواقع حراستهم خارج البيت الابيض صرخ قائلا : « يا ويلته كيف جاءوا هؤلاء ؟ انهم حين جاءوا آخر مرة اشعلوا النار في البيت ! » (اشار الى ما حدث في الحرب بين الانكليز والامريكيين سنة ١٨١٢) .

وكان تشرشل - اذا انصرف روزفلت الى مخدمه يجلس طويلا يحدث هاري هوبكنز في غرفته بمكتب لنگولن عن مشاكل الامدادات ، ودعش هوبكنز من مقدرة تشرشل على ان يفوم من منامه نشطا صافي الدهن فيقتحم عليه غرفته في اول الصبح وهو يقول : « هاري ! ماذا فعلت في شأن ما تحدثنا عنه في الليلة الماضية » .

وكان من بين القرارات الاولى التي اصدرتها ائتلترا وامريكا مصا ان تنزل الجنود الامريكية ، لا على شواطئ اوروبا ، بل في شمال افريقية . وتطلب هذا القرار من تشرشل ان يتولى مهمة عسى ان تكون ابغض مهمة تولها واشدها خطرا . فقد كان عليه ، كما اتفق هو وروزفلت ان يبين اسباب هذه المعركة ومسوغاتها للروس المستيئسين اللذين كانوا يرتدون حينئذ نحو ستالجراد .

الشعراء القدامى

ويميل تشرشل الى ان يشبه نفسه بأنه احد اولئك الشعراء القدامى المتجولين الذين كانوا ينتقلون من بلاط الى بلاط لينشدوا اناشيدهم التي

لا تتغير ، ولكن شتان ما بين هؤلاء الشعراء أهل المرح وبين الرجل النجهم الوجه الضخم الجثة وهو ينزل من طائرة حربية في سنة ١٩٤٢ ليبدأ هذا المؤتمر الاول الشهير من مؤتمرات موسكو . وقد وصف احد كبار الانكليز هذا الاجتماع بأنه عراك وشجار عنيف ، فان ستالين لم تهزه بلاغة تشرشل ، ونبد فكرة النزول في شمال افريقية ، لانها فيما يرى عمل لا يخفف من شدة ما تلقاه روسيا من وطأة الجيوش الالمانية . وفي اليوم الثالث من المؤتمر كان تشرشل غارقا في لجة من الهم والوجوم .

كانت البلبشفية همه الشاغل في اوائل حياته السياسية ، فاخذ غضبه المكتوم يتفجر ويتدفق . وحاولوا ان يحملوه على السكوت وهم يشيرون اليه بأن الحجرة قد تكون مجهزة بأسلاك خفية لنقل الصوت ، ولكنهم لم يفلحوا في تهدئة رئيس الوزراء ، بل ان تحذيرهم جعله يندفع من جدار الى جدار ليصب جام غضبه وتقمته على ما عسى ان يكون فسي الجدران من اسلاك خفية . ثم التفت اليهم وهو يبتسم ابتسامة خبيثة وقال : « انه على الاقل شيء يسر الناس لو عرفوه او قراوه » .

وبعد الظهر ارسل ستالين الى تشرشل يدموه الى الكرملين ، واستطاعا ان يصلا الى اساس برتضيانه . وهكذا وفق سليل مالبرو في خطواته الاولى ، الى ان يقنع ابن صانع الاحذية بصواب ما عملته امريكا وانكلترا .

وفي كانون الاول سنة ١٩٤٣ عقد في طهران اول اجتماع ضم تشرشل وروزفلت وستالين معا ، وطالب الروس بالحاج مهاجمة الجيوش الالمانية من الشرق والغرب معا . واخذ تشرشل يسهب في ايضاح الاخطار التي تنجم من مواجهة الجيوش لخصم يضطرها الى الجمود طويلا في مواقعها ، كما اسهب في بيان ما يحدث لو لم يقع ذلك . واخيرا تم الاتفاق على انزال حملة كبيرة في نورمندي .

وبذلك تقرر مصير المانيا . وفي يوم الغزو رافق تشرشل الجنرال ايزنهاور وهو في قطاره الخاص في جنوب انكلترا ، ذلك انه اراد ان يعبر بحر المانش مع الجنود ، فمنعه ايزنهاور ، فلم تمض ساعة اشهر حتى كنت ترى تشرشل - يوم عبر الحلفاء نهر الراين - واقفا على ظهر مركبة مصفحة يسير في البر والبحر وهو ينادي :

« هيا بنا الى الامام ! اننا نطارد جيشا مهزوما يردد الى مستنقع الظلم والفساد ، الى برلين ! » .

وقد عاش تشرشل حتى رأى مصرع اشد اعداء انكلترا خطرا ، وقد

كان يتمنى ان تتالح له فرصة القيام بعمل رجل السلام ، وقد اسفرت الحرب في اوروبا عن مناظر من الخراب والفقر والكوارث .

ومند خمس سنين ، وعد هذا المحارب بان « سيأتي يسوم تدق فيه الاجراس فرحا في كافة انحاء اوروبا وامريكا ، ويحين فيه بناء صرح شامخ يقوم على العدالة والحرية ويتسع للناس جميعا » .

لقد حزم الشعب البريطاني امره ان يشيد ذلك البيت ، ولم يطلب الى مستر تشرشل ان يضع فيه أية لبنة من لبناته . على انسه ليس ثمة في بريطانيا من ينكر ان ونستن تشرشل هو الذي فتح امامنا ابواب الامل في ان يقام هذا البيت في سلام ، وان يبقى على مدى الايام .

من اسرار الحرب

ومند سنوات قليلة خلت ، ادار « ونستون تشرشل » ظهره للعالم ، ومات عن تسعين عاما ، تاركا وراءه اسرارا عديدة عن الحرب العالمية الثانية ، تنتظر من يكشفها .. ولعل من اعظم واغرب هذه الاسرار ، سر كشفت عنه الدوائر السياسية في بريطانيا مؤخرا ، وهو يتعلق بالمكان الذي كان يدير فيه تشرشل تحت الارض ، المعارك والحروب في مختلف انحاء العالم ...

فيه كان ينام ، ويجتمع الى وزرائه ويتخذ اخطر المقررات ، ويتكلم الى الشعب الانكليزي والى العالم كله ، وفي هذا المخبأ قال كلمته الشهيرة في اذار ١٩٤٠ : « اذا وقع الغزو ، غزو المانيا لانكلترا ، فسأبقى هنا .. »

ثم اشار الى كرسيه الذي اعتاد ان يجلس عليه ، في راس الطاولة الكبيرة ، عندما يجتمع الى الوزراء : « وسأجلس هناك حتى يطرد الالمان من انكلترا ، او ياتوا اليّ ، لياخذوني ميتا !! »

وحتى هذه الساعة ، لم يشاهد المكان الا نفر قليل ، رغم ان الحكومة الانكليزية قد احتفظت ببعض هذه الغرف لقيمتها التاريخية ، وتركتها على حالها ، كما تركها تشرشل حين غادرها بعد انتهاء الحرب ، ليعود الى عمله فوق الارض ..

هذه الغرف العديدة التي كانت تضم في بعض الحالات ما يقارب الثلاثمائة شخص من الوزراء والضباط والمهندسين ، لم تكن تقل عن

مئة وخمسين غرفة ، حفرت على عمق ١٥ قدما تحت الأرض ، وجهزت .
بكل اسباب الراحة والعمل والمواصلات التليفونية اللاسلكية ، والاضواء
الكهربائية ...

وقد حفرت هذه الغرف السرية تحت بناء حكومي هتمته الطائرات .
الامانية ، اثناء غاراتها على بريطانيا .

لم يتطرق سر هذه الغرف الى احد ، لينقله الى الخارج ، مع ان كل
خطط الحرب الدموية كانت تقرر في هذا المكان ، وكانت كل حركة من
حركات الاساطيل الحليفة ، في مختلف بحار العالم ، تسجل في غرفة
الحائط ، وكلما تقدمت احدى هذه القطع الحربية او تحركت ، تحرك
معها الدبوس الذي يدل على مكانها ..

كما كانت هذه الخرائط تحدد مكان الفواصات الالمانية وتحركاتها ،
واذا ما وقعت معركة ، او حدثت غارة ، قام الخبراء يحركون الدبابيس .

ومن هذا المخبأ السري ، تم الانتصار على « رومل » ، ثعلب الصحراء
كما كانوا يسمونه ، وببذل سير الحرب في شمالي افريقيا . وقد كان
تشرشل ، ايام انتصارات « رومل » على الجيش الانكليزي ، يرور القاهرة ،
فلرسل الى وزرائه في لندن يطلب منهم تغيير القائد البريطاني في شمالي
افريقيا ، واقترح عليهم اسم قائد اخر ... ولكن القائد الذي طلبه ، كان
قد حققه ايزنهاور في قيادته ، فكان لا بد ان يتصرف الوزراء لوحدهم
ويختاروا بنفسهم قائدا ، فتم اختيار الجنرال « مونتغمري » ، وارسل الى
شمالي افريقيا ، فالحق اكبر هزيمة بالجيش الالمانى !!

وفي هذا المكان ، قال احد كبار المسؤولين الانكليز بعد ان قضى
فيه وقتا طويلا ، توترت خلاله اعصابه :

« يقول الناس ان هذه الحرب هي حرب هتلر .. والحقيقة انها لم تكن
كذلك ابدا .. قد يكون هتلر اوقد شرارتها ، ولكن بعد العاشر من اذار
١٩٤٠ ، اصبحت الحرب حرب تشرشل ، فقد قادها بنفسه ، وتولى الدفاع
والهجوم في كل معركة من معاركها » .

حين انتهت معركة « البيسمارك » ، بغرق هذه المدرعة الالمانية ، بعد
ان طاردها الاسطول الانكليزي اياما ، خرج احد الضباط من غرفة الخرائط
متوجها الى بيته فوق الأرض ، فلما وصل الى الشارع لاحظ ان قلميه
لا تحملانه ، وانهما ترتجفان ارتجافا عنيفا ، بسبب الجهد الذي صرفه في
متابعة تطور المعركة البحرية المثيرة ، على الخريطة الكبرى ..
وقد حدث يوما ، بينما كان تشرشل ينظر الى الخريطة الكبيرة ، وكانت

تصور حركة القوافل البحرية التي تحمل الغذاء والسلاح الى انكلترا، من الولايات المتحدة وعدة دول اخرى ، ان لغت نظره سفينة تجارية تتقدم ببطء في عرض البحر ..

فلما سال عنها ، قيل له انها تحمل ٦ الاف طن من البيض .. فراح يراقب حركتها وتقدمها ، ثم التفت الى الاستاذ « ليندمان » ، وهو عالم كبير كان تشرشل يستعين برأيه ، ويطلق عليه لقب « دائرة معارف » فسأله كم عدد البيض في ستة الاف طن من البيض ؟

فقال له الاستاذ بعد ان فكر قليلا: - ١٠٧ ملايين بيضة ..

وابتسم تشرشل وقال : - هذا يعني بيضتان لكل بريطاني .

وهناك غرفة سرية اخرى ، كان جل ما فيها تليفون ومنضدة وكروسي للجلوس ... ولكن هذا التليفون كان له شأنه الخطير في الحرب ، فقد كان واسطة الاتصال بين تشرشل وروزفلت ... وعندما يقفل باب هذه الغرفة ، ويضاء النور الاحمر فوق بابها ، لا يعود احد من الموظفين يظهر في الرواق .

ومن غريب ما كان يحدث اثناء هذه الاتصالات التليفونية ، ان احدا من الرئيسين لم يكن يرغب في انتظار زميله على التليفون ولو لحظات ..

وحين زار الملك جورج الخامس هذا المكان السري في اشد ساعات الحرب قلقا وانقطاع امل ، شاهد خنجرا على طاولة تشرشل ، فسأل عن سبب وجوده ، فأجابه احد الموظفين :

- انه للمستتر تشرشل يا سيدي، لاستعماله عندما يأتون بهتلر اليه في هذا المكان ..

وسمع تشرشل التطبيق وصمت . وكان الوزراء ينامون تحت الارض في مكانهم السري ، وكذلك الموظفون الآخرون ، وكانوا لا يعلمون شيئا عن حالة الطقس فوق الارض ، فقرر احد الموظفين تزويدهم بالمعلومات اللازمة فعلق على الحائط لوحا من الكرتون اخذ يضع عليه الكلمات التالية حسب تطور الطقس : مطر ، تلج ، شمس ..

وفي احد الايام ، نظر بعض الوزراء الى اللوحة ليتأكدوا من حالة الطقس ، فوجدوا عليها العبارة التالية : لا « جن » عندنا اليوم ، و« الجن » هو شراب معروف . وقد وضع العبارة احد الموظفين لينبه المسؤولين الى ضرورة تأمينه ...

وانتهت هذه الحرب بهدوء ، في المخبأ السري، كما اعلنت بهدوء .. ففي اليوم السادس عشر من آب ١٩٤٥ ، توقف جرس التليفون عن الرنين ، واخذ الموظفون يغادرون المكان واحدا بعد الآخر ...

إقسم الثاني

مذكرات زوكوف



في مذكراته التي كتبها تحت عنوان
تكوينات ونبلات : والتي اعدها إلى
الجيش السوفيتي : بنعم مارشال
الاتحاد السوفيتي زوكوف من خلال حياته
الشخصية عرفنا كثيرا الكثير من لحظ
لحظات العصر . ونينا الأحداث من
الحرب العالمية الأولى : إلى أيام ثورة
الكتاب الاشتراكيين روسيا الحمراء
الجيش الأحمر في معية كفاف الشعب
الروسي ضد القصر والبراسمالية
والثقل الإصني المسلح : فالجرب
الروسية البغية عام ١٩٢٦ : ثم يوافر
الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين
المستبعدة للقضاء على المقاومة في بداية
عقودها على أوروبا : فمعاهدة عدم
الاعتداء بين ألمانيا النازية والاتحاد
السوفيتي : فلهجوم الأتالي على روسيا
وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية في
بداية الحرب . فالظومة البلشفية
تستمر : فالانصار السارخوي في
القرات القوية والقارية حتى تقصر
دارها ويجرها في برلين .

وهو في مذكراته يكشف لأول مرة
عن كثير من الوثائق والمعلومات السرية
والأحداث الخطيرة التي دارت وراء
السياسة وفي أدارات المخابرات
والجاسات المكونين والسياسيين .
ثم هو يقدم تسليطه التقريبي في
تقييم أسباب هزيمة وانصار الاتحاد
السوفيتي وفوز ستالين في ذلك كله
مع إيثار رايه الشخصي في كثير من
وجاهل الحرب والقتل البرفان مثل
الجنود ويجول ويخوشف ويترتل
ومن التبري وهنر

مع وصف صادق للزعماء الثلاثة ستالين ، وهتلر ،
وتشرشل الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات ... اثناء
الحرب العالمية الثانية .

الفصل الأول

الطفولة والصبا

- الفروسية والرومانتيكية - الجيش القيصري - المعركة الاولى - التمرد والثورة -

« في مفيب العمر يصعب على الانسان ان يتذكر كل ما مر به في حياته ، فالاعوام والاعمال والاحداث قد نهت من الذاكرة الكثير ، خاصة ما يتعلق بالطفولة والصبا : ولم تبق الا على ما لا يمكن نسيانه »

ولد زوكوف في ١٩ تشرين الثاني ١٨٩٦ في منزل عتيق بقريسة ستريلكوفكا في محافظة كالوجا ولا يدري زوكوف من اصله الا ان « المنزل الذي ولد به كان لارملة تدمى انوشككا زوكوفا لم توزق بلدية ولذلك فانها، لكي تزيين وحدتها قد اخذت من الملجأ طفلا عمره سنتان هو والذي . من هما ابواه الحقيقيان ؟ لا احد يدري . معروف فقط ان امرأة مجهولة قد تركت وليدها في شهره الثالث على اعتاب ملجأ للاطفال وممه ورقة كتب عليها : « اطلقوا على ولدي اسم قسطنطين » ما الذي ارغم المرأة المسكينة على لقاء طفلها امام ابواب الملجأ ؟ يستحيل القول . من المستبعد انها لجأت الى ذلك انتقادا الى مشاعر الامومة . واغلب الظن انها اقدمت على ذلك حين لم تجد مخرجا من وضعها المتأزم المرير . »

لم يكن والد زوكوف قد بلغ الثامنة حين ماتت المحسنة التي تبنته فاضطر الى العمل لدى صانع احذية . لكن عمله في الحقيقة قد انحصر

في دمي الماشية والخدمة المنزلية . وبعد ثلاث سنوات توجه الى موسكو على قدميه بحثا عن عمل اخر . وهناك التحق بالعمل في ورشة احذية حتى طرد منها وابتعد عن موسكو لاشتراكه في اضرابات ثورة ١٩٠٥ . ومن وقتها حتى واقته المنيّة عام ١٩٢١ ظل مقيما بالقرية يعمل بصناعة الاحذية حينما وبالزراعة حينما اخر .

وولدت ام المارشال في قرية مجاورة تسمى « تشرنيا جريان » وتعني بالروسية « القلادة السوداء » .

وحين تزوج والداه كان الاب في الخمسين والام في الخامسة والثلاثين وكان هذا الزواج الثاني لكل منهما اذ كان كل منهما قد ترمّل مبكرا بعد الزواج الاول .

ونظرا لفقر الاب كانت الام تؤدي اشق الاعمال لقاء اجر بالكاد يكفي لسد الرمق .

ويقول المارشال ان امه لم تكن استثناء ، فالفقر الشديد كان يرغم معظم الرجال على الرحيل الى المدينة بحثا عن العمل تاركين للنساء والاطفال والطلّاعين في السن مسئولية العمل في الحقول .

ويصف زوكوف حياة اثرياء الريف ثم يقول : اما نحن ابناء الفقراء فقد كنا نحس قسوة حياة امهاتنا ، ونعاني بمرارة من رؤية دمومهن . ولكم كانت بهجتنا حين يمدن من المدينة حاملات شيئا من الخبز او « السميط » اما حين كانت تمنح الفرصة لادخار نذر يسير من المال قبيل حلول عيد الميلاد او عيد الفصح فان السعادة كانت تحل علينا بغير حدود » .

« وحين كنت في الخامسة وكانت اختي في السابعة ولدت امي طفلا سموه « الكسي » وكان نحيفا جدا وعليلا دائما وذات مرة قالت امي : »

— من اين له القوة . . امن الماء والخبز ؟ . وتحت وطأة الجوع اضطرت امي للرحيل الى المدينة سميا وراء الرزق . وقد فشل الجيران في اقتناعها بالبقاء في القرية لرعاية الطفل المريض لان خوفها من اغتيال الجوع للأسرة كلها كان اكبر من خوفها من ان يؤدي المرض بحياة الطفل العليل . وبعد رحيل الام بفترة وجيزة قضى الصغير نحبه ولوريناه التراب . واتابنا الحزن . . انا واختي وامي ناهيك عن ابي وكنا كثيرا ما نتردد على قبره .

وفي هذه السنة ايضا تهدم بيت الاسرة فاضطرت على عجل الى

الانتقال الى حظيرة حتى تمكن الوالد من ترميم البيت .
في شتاء ١٩٠٢ دخل زوكوف عامه السابع وكان شتاء قاسيا جدا على
الاسرة فقد كان المحصول قليلا جدا ولم تكفهم الحبوب الى منتصف
كانون الاول . وكان اجر الوالدين ينفق على الخبز والملح وتسديد بعض
الديون . « وشكرا للجبران الذين كانوا ينقدوننا في بعض الاحيان بقليل من
الحساء او الشريد . ولم يكن العون المتبادل في ريفنا شذوذا عن المألوف،
بل كان من تقاليد التضامن والصدقة بين ابناء روسيا الذين جمع
الفقر القاسي بينهم » .

وفي الربيع تحسن الحال حثيثا اذ كان صيد السمك من الترع
الفضلة في مقدور الناس .

وحين هل آوان الحصاد قالت الام :
— آن لك يا ولدي ان تتعلم الحصاد . لقد اشتريت لك من المدينة
منجلة جديدة . وغدا صباحا سوف تذهب لتحصد الجويدر (نبات كالشعير
يصنع منه الخبز الشعبي) .

« ورغبة مني في التفاخر بهمتي وبراعتي اخذت اعمل بتوتر تسبب لي
في جرح خنصر يدي اليسرى بنصل المنجلة . واستولى اللصر على امني
وعلي . وخفت جارتنا الخالة « براسكوفيا » الى نجدتي بان التقطت من
الارض ورقة لفتها على الجرح ثم ربطته بخزقة ربطا محكما . . . منذ
ذلك الحين مرت اموام طويلة ولكن جرح خنصري الايسر لا يزال واضحا
يلذكرني باخفاقي الاول في الجبهة الزراعية » .

ومع خريف ١٩٠٣ حلت لحظلة حاسمة في حياتي ، فقد كان اترابي
يتهيأون لدخول المدرسة ، وكنت انا ايضا استمد لذلك . وكان بمض الصبية
يتخايل بالحقائب الجديدة التي اشتروها لهم ، لكنني كنت راضيا بالكميس
القماش الذي حاكته لي امي . ودخلت مدرسة تابعة للكنيسة كانت تبعد
عن قريتنا حوالي كيلومتر ونصف .

كان مدرس الفصل معلما قديرا وانسانا طيبا لم يكن ابدا يعاتب
تلميذا دون مبرر ، ولم يكن يتوعد الصغار ان يعنفهم ، لهذا كانوا يحبونه
ويطيعونه وكان المدرس ملحدا لكنه كان يتردد على الكنيسة حياة ورعايسة
للتلاميذ الذين يشتركون في جوقة الكنيسة والذين كان زوكوف احدهم اذ
كان في صباه يتمتع بصوت غنائي جميل .

« كان اهل القرية يحترمون ابي ويصفون لارائه . وعادة كانت كلمته في الاجتماعات والخلافات هي الكلمة النهائية . وكنت شديد الحب لابي . كما كان يدلني .. لكن هذا لا ينفي انه كان في بعض الاحوال يعاقبني بقسوة على ما يصدر مني من هفوات . بل كان ينهال عليّ ضربا بحزام جلدي مريض وسميك ، وهو يصمم على ان اطلب منه الصفح . غير انني كنت عنيدا التحمل الضرب مهما طال دون ان اطلب المغفرة » .

وفي صفره كان زوكوف يذهب الى الصيد مع شقيق امه في العماد ويدعى بروخور وكان صيادا ماهرا لا يخطئ في رايته ويقول المارشال في مذكراته : « ومن ذلك الوقت صرت احب الصيد ... ولا بد ان بروخو هو الذي غرس في هذا الحب في اموام الطفولة » .

ويذكر المارشال هذا الحوار بين والديه حين كان الاب يتأهب للعودة الى موسكو بعد اجازة قصيرة روى اثناءها كيف تجتاح مدينتي موسكو وبترسبورغ حملة من اغرابات العمال الذين وصلوا الى حالة الياس تحت وطأة البطالة والاستغلال .

قالت الام : - عليك الا تدس انفك فيما لا يعنك حتى لا يرحلك البوليس الى حيث لم يرع « ماكار » العجول (مثل روسي يعني المنفى الى المجاهل التي لم تعرف بعد مظاهر الحياة) .

رد الاب : - ما يخص العمال يخصني . وحيث هم لا بد ان اكون !
« وبعد سفر ابي انقطعت اخباره طويلا مما اثار مخاوفنا عليه . وسرعان ما عرفنا ان البوليس والقوات القيصرية قد اطلقت النيران في بترسبورج في ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ على مظاهرة عمالية سلمية تحمل الى القصر نداء بتحسين ظروف الحياة . ومنذ ذلك الحين بدأت القرى تستقبل دماء مجاهدين يحرضون الشعب على النضال ضد الاقطاع والحكم القيصري المطلق ... وبدأ الفلاحون يسمعون عن تمذيب ونفي زعماء العمال ، وعن لينين المعبّر عن مصالح العمال والفلاحين وزعيم الحزب البلشفي الذي يسعى الى تحرير الكادحين من نير الاقطاعيين والرأسماليين والاستبداد القيصري » .

وفي عامه الحادي عشر قرر والداه ان يوجهاه الى الاعتماد على نفسه في طلب الرزق . وابدى الصبي رغبة في تعلم الطباعة لكن اياه لم يكن

يعرف احدا من المشتغلين بهذه الحرفة واقترحت الام ان تلحقه بالعمل لدى شقيق لها بدأ حياته معلما لم انتهى به الامر الى ان أصبح يمتلك اكثر من خمسين الف روبل ذهبي وورشة لصناعة الفراء يعمل بها مائة عمال واربعة صبيان ويحكي زوكوف كيف كان لقلوه مع هذا الخال الجشع القاسي فحين صاحبه ابوه الى الخال اوصاه بان ينحني له بادب « قائلا ، دمت بصحة يا ميخائيل اريمينيتس » ولكن الصبي زوكوف اعترض على نصيحة ابيه ورغب في ان يحييه بقوله « دمت بصحة ياخال ميشا » فنهره الاب قائلا :

— اتس تماما انه خالك . فهو صاحب العمل من الان فصاعدا .. واصحاب الاعمال لا يحبون ان يكون لهم اقارب فقراء لا بد ان تمي ذلك جيدا ، وان تحفظه عن ظهر قلب .

وقد استقبلهما الخال بفضافة ووقاحة وحين عادا الى البيت وقصا على الام ما كان قالت :

— الم يطلب لكما فنجانا من الشاي فرد الاب : — بل حتى لم يبرد التحية ولم يدمنا الى الجلوس لنستريح من عناء الطريق . وهل نحن في حاجة الى شايه . انني ساصحب ولدي الى المقهى لنشرب الشبين من عرق الجبين .

هكذا شق المارشال زوكوف طريقه الى موسكو . وهو يصف هذه الفترة من حياته بقوله : « مر عام ، تعلمت فيه بنجاح مبادئ صناعة الفراء وان كان هذا لم يأت لي بسهولة . فقد كان صاحب العمل يوسعنا ضربا لاقل خطأ ولكم كانت يده ثقيلة ! كذلك كان يضربنا الصناعات والصناعات . ولم تكن زوجة صاحب العمل اقل منهم جميعا في ضربنا بلا شفقة . وحين كان مزاج صاحب العمل يعتدل كان يجدر بالصبي الا يظهر امام ميني ، فقد كان يستطيع في هذه الحالة ان يتلقفه بالصفعات الوحشية التي يظل دويها يرن في الاذان طوال اليوم » .

وبرغم الحياة الشاقة لم يفقد الصبي زوكوف حبه للقراءة التي كان يساعده عليها ابن خاله الذي كان في سنه ويدعى الكسندر .

— فقرأ بعض الروايات المثيرة لشارلوك هولمز لكن ذلك لم يشبع نهمه الى المعرفة .

« وعندما عرضت على الكسندر رغبتني في التعليم الجاد شجعني

وبدأنا ندرس اللغة الروسية والرياضيات والجغرافيا والكتب العلمية البسيطة ورغم أننا قد لجأنا الى كل الحيل حتى لا يعرف رب البيت والعمل شيئا عما نفعله ، فقد اكتشف امرنا ذات مرة ، وكنت اعتقد انه سوف يضربني بعنف ثم يطردني ، لكنه خيب ظني فأتى علينا وعلى عملنا الرشيد .

وبعد اربع سنوات من العمل اصبح لزوكوف خبرة في العمل بل وصيبن يتلربون تحت اشرافه ، وكان صاحب العمل قد ازداد لراء وبخلا واصبح يعرض منتجاته في المدن الكبرى مما اتاح الفرصة لزوكوف لرؤية الفولجا لأول مرة في حياته وهو يقول في ذلك : « لقد بهرت بعظمة الفولجا وجماله وحتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت انهارا اكثر سعة وتدققا من نهر بروتوفا او نهر موسكو (نهر موسكو ضيق جدا اذ لا يريد عرضهم عشرين مترا) كان ذلك في صباح باكر ، وكان الفولجا يتللا على ضوء اشعة الشمس المشرقة كنت انظر اليه دون ان ارفع نظري انبهارا ، وجال بخاطري : الان فهمت لماذا يتفنون بالفولجا ويرفعونه الى مرتبة الام »

وفي نهاية ١٩١١ انتهت مرحلة التلمذة الحرفية واصبح زوكوف « مساعد عمل » وهو في السادسة عشرة من عمره . وكان حينذاك يتقاضى عشرة روبلات في الشهر وهو اجر لم يكن يحصل عليه كثيرون .

« كان رب العمل يثق بي ويوقن من امائتي ، ولهذا فكثيرا ما كان يكلفني بالذهاب الى البنك لايداع النقود او سحبها من رصيده الجاري . كذلك فقد كان ياخذني معه الى متجره حيث كنت الى جانب القيام باعمال صناعة الفراء اكلف بتعبئة المنتجات وتوزيعها على العملاء »

« واعجبني العمل بالمتجر اكثر من العمل بالورشة حيث لم يكن يسمع الا تبادل الصناغ الشنائم ، اما في المتجر فقد كنت اختلط باشخاص اكثر ثقافة واوسع اهتماما بالاحداث الجارية .

« لم يكن في الورشة غير شخص واحد يقرأ الصحف ولم يكن احد سواه يفهم في السياسة . واعتقد ان الحال كان كذلك في سائر ورش الفراء . حيث لم يكن لعمل هذه الحرفة نقابة . ولم يكن تطلعهم بخرج عن حدود تدبير مبلغ من المال عن اي طريق تمكينا لهم من العمل لحساب انفسهم . ولذلك كان صناع الفراء والخياطون ، وعمال الورش اليدوية الصغيرة يتميزون عن عمال الفبارك والمصانع ، على البروليتاريا الحقيقية من الناحية الايدولوجية ومن ناحية افتقارهم للتضامن البروليتاري التين .

ولهذا لم يكن صدفة أن تضرب البلشفية جلورها وسط
البروليتاريا بينما انتشرت المنشية بين الحرفيين «
» في ذلك الوقت كان وعي السياسي لا يرا لمتخلفا لكنني كنت
استطيع التمييز بين الصحف الثورية مثل « النجم » و« البرافدا » التي
تعبر عن مصالح العمال والفلاحين ، وبين الصحف التي تعبر عن مصالح
الرأسماليين سادة روسيا القيصرية ، مثل « الكلمة الروسية » و« اخبار
موسكو » وعندما كنت ازور القرية كنت أجد لدي ما اروه .

بداية الحرب العالمية

» تفترن بداية الحرب العالمية الاولى في ذاكرتي بتدمير ونهب
المحلات الاجنبية في موسكو . وتحت تأثير الدعاية تطوع كثير من الشبان
للذهاب الى الجبهة وخاصة الشبان الاثرياء . ومن بين هؤلاء كان صديقي
الكسندر (ابن خاله) الذي دعاني الى التطوع انا الآخر . وفي البداية اعجبتني
الفكرة لكنني قررت استشارة فيودور ايفانوفيتش الذي كان صاحب اكبر
تأثير علي وبعد ان استمع الرجل الي قال :

انني افهم دوافع الكسندر ، فابوه ثري ولديه ما يستحق الحرب من
اجله لكن . . ما الذي يدفعك انت ايها الاحق الى الحرب ؟ قد يكون من
اجل ابيك الذي طرد من موسكو قسرا ، وقد يكون من اجل امك التي
تتضور جوعا . سوف تمود عاجزا قعيدا لا حاجة لاحد بك .

افنعتني كلامه بالعدول عن التطوع للحرب . وسبني الكسندر على
تغيير موقفي ثم رحل هو الى الجبهة ليعود بعد شهرين باصابة جسيمة .
» في ذلك الوقت كنت لا ازال اعمل في الورشة واقيم لدي الارملة
ماليشيفا في مقابل فندق « موسكو » حاليا . وادفع لصاحبة الشقة ثلاثة
روبلات في الشهر نظير السرير المخصص لي .

» ووقعت في حب ابنة الارملة التي كانت تسمى « ماريا » وافقنا على
الزواج ولكن الحرب - كما هي العادة دائما - قضت على كل آمالنا
وتخطيطنا للمستقبل . فنظرا للخسائر الفادحة في جبهة القتال تقرر في
عام ١٩١٥ تجنيد مواليد ١٨٩٥ وبذلك رحل الى الجبهة شبلان لم يبلغوا
العشرين من عمرهم بعد .

» وحل دوري ! لم اكن اشعر بحماس خاص للحرب لكنني كنت اؤمن
بانني اذا جندت لا بد ان اقاتل بشرف في سبيل روسيا .

الفصل الثاني

الخدمة العسكرية

- الاسرة والفقر - المدرسة والتفوق - الادب والثورة - الصبا والعمل - عهد الشيوعية -
- الحرب والحب -

« استدعيت للخدمة العسكرية في ٧ آب ١٩١٥ والحرب العالمية الاولى تدور على اشدها »
« ووزعت على سلاح الفرسان فكنت بذلك في غايصة السرور فقد كنت دائما معجبا بهذا النوع الرومانتيكي من القوات ووزع جميع رفاقي على سلاح المشاة فكتبوا يحسدوني على حسن حظي »

ومن « مالوياروسلافيتس » رحلنا في قطارات شحن البضائع الى « كالوجا » وحينها شعرت بممق لاول مرة بالوحدة والكآبة . كان هناك من يغني ، ومن يلعب الورق ، ومن يبكي شاكيا همومه لزملائه ، ومن يجلس صامتا يضغط على اسنانه بقوة ، ومن يثبت نظره على نقطة واحدة وقد استولى عليه التفكير في مصيره كجندي . وكنت اطرح على نفسي السؤال التالي: « هل انت مستعد لاداء الخدمة العسكرية الشاقة وهل تندفع الى القتال اذا تحتم ؟ » كانت حياتي السابقة قد صهرتني ، ولهذا كنت اعتقد انني سوف اؤدي واجب الجندي بشرف .

وفي اول طابور تسامل احد المجندين الى اين تقودنا ؟ ورد العريف وكان

انسانا طيبا : - « نصيحة خدوها مني يا اولاد .. لا توجهوا مثل هذه الاسئلة للقيادة . على الجندي ان ينفذ الاوامر والتعليمات دون مناقشة . فالقيادة تعلم الى اين تقود جنودها » .

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت القائد يدوي :

- الكلام ممنوع تماما .

ولكرني بكوه صديقي الجديد سيفتسوف هامسا :

- ها هي الخدمة العسكرية بدأت ! وعرفنا صف الضابط قائد الفصيلة

بنفسه قائلا :

- انا قائد فصيلتكم المساعد ماليافكو . ارجو ان تكونوا قد فهمتم ما شرحه قائد الوحدة . وعليه فانكم سوف تخلصون في خدمتكم للقيصر والوطن . انا لا اطيق الخروج عن قواعد الضبط والربط .

« مر اليوم الاول ثقيل الوطأة على النفس ، ثم تعاقبت الايام على نمط واحد ممل ، وكان من الصعب الانخراط في سلك الجندية ولكن قسوة الحياة علينا من قبل جعلت الاكثرية يعتاد الحياة العسكرية في غضون اسبوعين »
« وفي ايلول ١٩١٥ رحلنا الى اوكرانيا للانضمام الى كتيبة الفرسان الخامسة الاحتياطية كانت معسكرة في محافظة خاركوف » .

« وظهر ان الخدمة في الفرسان اكثر اثارة من الخدمة في المشاة ولكنها اشق فبخلاف التعليم العام يجري التدريب على اعمال الخيالة واتقان السلاح الابيض الخ .. وكان علينا ان نستيقظ في الخامسة وليس في السادسة كما هو الحال في المشاة ، وان نخلد الى النوم بعد ساعة مما هو متبع في المشاة ، وكان امتطاء صهوة الجواد اشق لتدريب .. حتى ان كثيرين اراقوا دماءهم دون ان يظهروا الشكوى ، فقد كان كل ما يقال هو « اصبر ايها القوزاقي » وتحلى الكثيرون بالصبر حتى خضعت لهم الجياد » .

« كان قائد فصيلتنا المساعد دوراكوف - بالرغم من لقبه - اللقب مشتق من لفظ « غبي » بالروسية) انسانا ذكيا وطيبا . كان قائدا شديدا الصرامة لكنه لم يكن يلجأ ابدا الى اهانة الجنود . بينما كان مساعد القائد على العكس من الاول تماما اذ كان عصيبا فظا نرقا . وقد ذكر الجنود القدامى انه قد حطم سنان كثير من المجندين وذات مرة تربصنا به حتى وجدناه في ركن منزو واسدلنا عليه غطاء خيمته ثم انهلنا عليه بالضرب المبرح حتى لا يتبين اشخاصا . وبعد ذلك توقعنا ان تقدم جماعيا الى محكمة عسكرية ميدانية لكن دوراكوف حين عاد الى مركز قيادته سوى الامر وتوصل الى ابعاد مساعده » .

« في ربيع ١٩١٦ كنا قد اتممنا تدريبنا واحطنا علما بأنه سيجري تشكيل سرية خيالة مقاتلة لترسل الى الجبهة . وحل محلنا المجندون الجدد من مواليد ١٨٩٧ » .

« ومن بين اكثر الجنود تدريبا وقع الاختيار على ثلاثين فردا لاعدادهم كصف ضابط . وكنت انا واحدا من هؤلاء . »

لم اكن راغبا في الانضمام الى هذه المجموعة التعليمية ولكنني نزلت على ارادة قائد الفصيلة الذي كنت اشعر نحوه باحترام مخلص لرعاية عقله واستقامة خلقه وحبه للجندي »

— لا تزال الفرصة امامك واسعة للذهاب الى الجبهة يا عزيزي ولكن عليك قبل ذلك ان تدرس العلم العسكري على نحو اعمق . سوف يفيدك ذلك مستقبلا وانا واثق من انك سوف تكون صف ضابط ناجح . .

ثم فكر قليلا و اضاف :

— انا مثلا لا اصجل الذهاب الى الجبهة . فخلال عام فسي الخطوط الامامية ادركت جيدا ما هو الوضع وفهمت الكثير . فالمؤسف والمؤسف جدا ان يموت شعبنا هكذا . . ولاي شيء ؟ اني اتساءل .

وفي اثناء الفرقة التعليمية كان اقدم صف الضباط في غاية الرزالة والسخف والعجرفة . انا اذكر فقط ان الجنود كانوا يطلقون عليه « ابو اربعة ونصف » وذلك لان احدي اصابع يده اليمنى كانت مبقورة » ولكن هذا لم يمنعه من توجيه الكلمات القوية التي تطرح الجنود ارضا . وكان « ابو اربعة ونصف » يضطهدني بشكل خاص لكنه على اي حال لم يجروء على رفع قبضته في وجهي . كنت اعلم ان ايداءه المستمر لي انما يعكس تخلفا ذهنيا بشما ، ونفسية شريرة منحطة ، لكنني كنت سعيدا لانه لم يكن يجد الفرصة للاحتكاك بي في اثناء الدروس .

وحين فشل في اخذني بالعنف لجأ الى تغيير تكتيكه ارائي فاستدعاني ذات يوم احد الى خيمته وقال لي :

— انا ارى انك شاب ذو شخصية قوية ، ومتعلم ، وذو قابلية لاستيعاب العلم العسكري ، ولكنك موسكوني وعامل فما هي حاجتك الى انهاء نفسك في الدروس العسكرية سوف اخذك كاتباً شخصياً لي تملا تقارير التدريب بخلافه .

فاجبته : — انا لم التحق بالفرقة التعليمية لكي اكون كاتباً وانما

لكي ادرس العلم العسكري بالتفصيل ولكي اصبح صف ضابط . فاستشاط
« ابو اربعة ونصف » غضبا وقال متوعدا .

– الايام بيننا وسوف ترى كيف سافعل المستحيل حتى لا تصبح صف
ضابط في يوم من الايام .

اقرب موعد الامتحان ولم يكن احد من زملائي يشك في انني
ساكون اول الدفعة وساحصل بالتالي على اول رتب صف الضباط بينما
كان بقية الناجحين يحصلون على رتبة مساعد صف الضباط . وذلك
تقديرا للاول على دفعته ولكن ظنون الجميع خابت وحقق ابو اربعة ونصف
وعنده فلذا هو قبل الامتحان باسبوعين يعلن في الطابور قرار فصلي من
الفرقة لسوء السلوك وعدم احترام القيادة المباشرة « غير ان الصدفة »
البحنة تدخلت لتصحيح الوضع . فقد كان معنا في الفرقة متطوع ابلغ
الواقعة الى الضابط قائد المدرسة ، الذي استدعاني وحقق معي ثم
انصفني بالغاء قرار الفصل .

– اذهب الى فصيلتك واستعد لاداء الامتحان .

الا ان الاولوية لم تكن من نصيبي بل من نصيب هذا المتطوع وتخرجت
انا برتبة مساعد صف ضابط تماما كبقية الجنود .

وانني الان اذ اقيم الفرقة التعليمية لصف الضباط في الجيش القديم
لا بد ان اقر بان مستوى التعليم كان جيدا بشكل عام وخاصة في ما يتعلق
بالتشكيلات ، فقد كان كل خريج يجيد اجادة تامة اعمال الفروسية
واستخدام السلاح واسلوب اعداد المقاتل . وليس صدفة ان كثيرين من
صف ضباط الجيش القديم قد اصبحوا بعد ثورة تشرين اول
من خيرة قادة الجيش الاحمر .

ومن الناحية التربوية كانت القسوة هي الاساس . فلم يكن طلاب
فرقة ضباط الصف يتدربون على التعامل الانساني مع الجنود ولا على
الدخول الى اعماق الجنود . كان الهدف الوحيد هو خلق جندي مطيع
طامع عمياء . كان الانضباط العسكري مبنيا على القسوة . ورغم ان
الوائع العسكرية لم تكن تبيع العقاب الجسماني الا ان ذلك النوع كان
شائعا على اوسع نطاق .

ما اكثر ما كتب عن الجيش الروسي لكنني اريد ان اتوقف فقط
عند نقاط تبدو لي هامة .

ما هي اكثر الملامح تميزا للجيش القيصري القديم ؟
اول شيء هو عدم وجود وحدة او تلاحم بين جماهير الجنود وبين
كبار الضباط .

وعلاوة على ذلك فان الجهل المتفشى بين الجنرالات وكبار الضباط
بالتكتيك وادارة العمليات - فيما عدا حالات فردية - ادى الى ان فقد
هؤلاء القادة احترام الجنود لهم . اما الضباط ذوو الرتب المتوسطة
فقد كانت غالبيتهم - وخاصة قبيل انتهاء الحرب - قريبة الى الجنود
بروحها ومزاجها . وكان الجنود يشعرون ازاء هؤلاء القادة بالحب
والثقة والحماس في اطاعة الاوامر ملقين بانفسهم في الماء والنار .

ويجب القول بان ضباط الوحدات كانوا يعتمدون تماما على صف
الضباط في تعليم وتربية الجنود . ولا شك ان تلك الثقة قد ادت الى
تنمية روح الاستقلال ، والمبادأة ، وتحمل المسؤولية .

وتدل تجربة امومي الطويلة على انه حيث تختفى الثقة بصغار
القادة ، وحيث تفرض عليهم وصاية مستمرة من قبل الضباط الكبار، لا
يمكن مطلقا خلق قيادات حقيقية في المستويات الصغيرة ، وبالتالي
لا يمكن مطلقا خلق تشكيلات جيدة .

في اوائل آب وصل امر من قيادة اللواء بتوزيع خريجي الفرقة على
السرايا . فصدر امر الى ١٥ فردا بالتوجه مباشرة الى الجبهة للالتحاق
بفرقة الفرسان العاشرة وكان ترتيبى الثاني بين هؤلاء القتالين ولم
ادهش لذلك فقد كنت اعلم ان « ابو اربعة ونصف » وراء هذا الاختيار .
وانطلقنا في مسيرة طويلة . وفي الصباح امارت على موقعنا طائرة
استكشاف مادية فاملت اشارة التحذير من الغارة الجوية واختبأ كل
شخص كيفما اتفق له ودارت الطائرة فوق رؤوسنا ثم اتجهت غربا ملقاة
بعض القنابل الصغيرة . ونتيجة للغارة اصيب احد الجنود اصابة قاتلة
كما اصيب خمسة جياد بجراح .

كان هذا هو اول تعيد قتالي لنا .

وفي تشرين الاول عام ١٩١٦ جرح في النام قياسي بصحبة زميلين
بدوارية استطلاعية تمثرنا في النائها بلغم ادى انفجاره الى اصابة
الرفيقين اصابة مباشرة والى وقومي من على صهوة الجواد . وقد عدت الى
وعبي بعد يوم كامل في المستشفى ثم رحلت بعد ذلك الى خاركوف للاستشفاء
حيث مكثت بها حتى تشرين اول .

انتقلت من السرية الى الفرقة التعليمية جنديا شابا ولكنني عدت
بلقب صف ضابط ، وتجربة ميدانية ، وميداليتي صليب جيورجي لتمكني
من اسر ضابط الماتي ولاصابتي في اثناء القتال .
« وفي محادثاتي مع الجنود فهمت انهم لا يتحرقون رغبة في شتم
رائحة البلرود .

ورغم انني كنت من صف الضباط فقد كان الجنود يثقون بي
ويناقشونني في امور جدية . وبالطبع كان فهمي وقتها محدودا للقضايا
السياسية ، لكنني على كل حال كنت موقنا بان البلاشفة وحدهم وليس
سواهم هم الذين يستطيعون ان يقدموا السلام والارض والحرية
لشعب الروسي .

وذلكما حاولت ان اوجه بين جنودي على قدر ما استطعت .
ولقد كافاني جنودي ، وذلك على النحو التالي :
في الصباح الباكر اهلنت حالة الطوارئ على السرية دون سبب
مفهوم والتقيت باللازم كيفسكي قائد الفصيلة فسأله :
- لماذا يجري جمعنا يا صاحب النبالة .

فرد على سؤالي بسؤال :
- وانت .. ماذا تظن ؟
فقلت له ان الجنود لا بد ان يعرفوا الى اين يساقون خاصة وقد
وزعت عليهم الدخيرة .
- لا بأس فهي قد تفيد .

وانقطع حوارنا لمجيء قائد الكتيبة البارون فون دير جولتس الذي
كان قائدا حائرا على كثير من ميداليات واوسمة الكفاءة العسكرية لكنه
كان مكروها جدا من الجنود .

وامر قائد الكتيبة بالتشكيل ثلاثات ثم التحرك الى مدينة بلاكل حيث
كان يوجد مقر قيادة لواء الفرسان الخامس الاحتياطي وهناك راينا ان
قوات اخرى قد سبقتنا . وبسرعة انطلق البارون فون دير جولتس الى
داخل مبنى القيادة تتبعه على الفور قادة الكتائب الاخرى .. لم يكن احد
يفهم فيم الامر .. ولكن سرعان ما انضحت الحقيقة اذ ظهرت مظاهرة تحمل
الرايات الحمراء . وخرج من مبنى القيادة عسكري طويل القامة اخذ يعلن
بصوت جهوري ان الطبقة العاملة والجنود والفلاحين في بلادنا لا يعترفون
منذ اليوم بالقيصر نيكولاي الثاني ولا بالراسماليين والاقطاعيين : فالشعب
الروسي يرفض محاولة الحرب الاستعمارية الدامية . انه في حاجة الى

السلام والارض والحرية . انهى المتحدث العسكري خطابه القصير بتعارات: « تسقط القيصرية » ، « تسقط الحرب » ، « عاش السلام بين الشعوب » « عاشت سوفيات ممثلي العمال والجنود » !
(كلمة سوفيت تعني بالروسية مجلس ثوري) .

وبدون اية اوامر ادرك الجنود بحسهم الثوري ما الذي ينبغي عليهم عمله فاختلطوا بالمتظاهرين ورددوا هتافاتهم ثم اعلن عن تكوين سوفيات الجنود في الوحدات ونم انتخابي رئيسا لسوفيت المرية . وتم القبض على البارون فون دير جولتس وغيره من القادة الذين كانوا يشكلون خطرا على الثورة وتم تصعيدي والملازم كيفسكي لعضوية سوفيت الكتبية . وبعد ذلك اصدرت اوامري بتسريح الجنود بعد توزيع الاسلحة والدخائر عليهم واختبات بعض الوقت في بلاكل .



وفي كانون الاول ١٩١٧ عدت الى قريتي وفقط في آب ١٩١٨ تمكنت من تحقيق رغبتني في الانضمام الى صفوف الجيش الاحمر فالتحقت متطوعا بلواء الفرسان الرابع التابع لفرقه فرسان موسكو الاولى .
في البداية كان الجيش الاحمر يتشكل فقط من المتطوعين ثم قررت الحكومة السوفيتية تدريب كافة العمال من سن ١٨ الى ٤٠ على استخدام السلاح واعتبارهم تحت الطلب . وحين التحقت بالجيش الاحمر كان تعدادهم قد وصل الى قرابة نصف مليون . وفي عام ١٩١٨ الحاسم فسي تاريخ الثورة ارسى الحزب البلشفي بقراراته العسكرية العديدة ونشاطه العملي الواسع اسس القوات المسلحة السوفياتية .

الفصل الثالث

الاشتراك في الحرب الاهلية

- الثورة المضادة - الحرب الاهلية - العدوان المسلح - الحزب والنمب والجيش - انتصار
المشورة -

كانت الحكومة القيصرية قد قادت البلاد الى الافلاس
النام ثم ازداد الوضع سوءا باستيلاء قوات الغزو الاجنبي
والحرس الابيض المتعرد على مناطق اقتصادية في غاية
الاهمية .

وفي منتصف ١٩١٨ كانت قوات الحرس الابيض والغزو الاجنبي تبلغ
ما يعرب من مليون جندي وضابط على مستوى عصري من ناحية التدريب
والتسليح .

ولكي نفهم كيف تمكن الجيش الاحمر من الحاف الهزيمة بالعدو الذي
كان يتفوق عليه في التسليح والتدريب لا بد من مراعاة الروح الوطنية
المتاجبة والصفات الفريدة المعنوية والسياسية التي كانت تتحلى بها
قوات العمال والفلاحين الذين يدافعون عن حرية واستقلال وطنهم
الاشتراكي الجديد .

في ربيع ١٩١٩ نظم الغزاة الاستعماريون حملة موحدة ضد السلطة
السوفيسية تضم قوات الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا واليابان وايطاليا

وتشيكو سولوفاكيا وعددا من الدول الاخرى ، وكانت قوات الجيش الاحمر في هذا الوقت تضم مليوناً و ٨٠٠ الف جندي .

ونظرا لعدم كفاية الخامات والعوى العاملة تعطل الكثير من المصانع والفبارك . واصبحت مشكلة امداد الجيش الاحمر بالمؤن والذخيرة مسألة في غاية الصعوبة . وكثيرا ما كان يجري نقل المؤن من منطقة الى اخرى حيث كان يتحدد مصير البلاد .

« في اول اذار ١٩١٩ قبلت عضوا بالحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) . منذ ذلك التاريخ سقط الكثير من الذاكرة ولكن اليوم الذي حصلت فيه على عضوية الحزب ظل في ذاكرتي طول العمر . فمن هذا الحين وانا احاول اخضاع كل تفكيري وطموحي واعمالى لواجبات عضو الحزب وعندما وصل الامر الى خوض القتال ضد اعداء الوطن كنت دائما اذكر مطالبة الحزب لعضوه بان يكون قدوة للتفاني في خدمه شعبه » .

خاض زوكوف كثيرا من المعارك حتى جرح بتظايا قبله يدويه في جنبه الايسر وساقه اليسرى . تم ترحيله على ارجله الى المستشفى . وبعد قيامه باجازة لمدة شهر عاد الى قيادته مطالبا بترجيله فورا الى ميدان القتال ولكن الاوامر صدرت له بالالتحاق بقوات الاحباط مؤقتا الى حين بدأ الدراسة في مدرسة « القادة الحمر » بمحافظة ديزانك في كانون الثاني ١٩٢٠ .

« كان مستوى التعليم للدراسين غير كاف . ذلك انهم كانوا يختارون غالبا من بين العمال والفلاحين الذين كان حظهم من التعليم قبل الثورة محدودا جدا . غير انه من الضروري ان اشد بجديتهم في الدراسة شاعرين بعصر مدة الدراسة وطول البرنامج ومدركين خطورة المسؤولية الملقاة على عاتقهم كقادة حمر » .

« وانتهت الدورة الدراسية في موسكو حيث كان لي اصدقاء كثيرون اتوف الى رؤيتهم قبل توجهي الى الجبهة ، وبصفة خاصة كنت حريصا على لقاء تلك التي قاسى في حبها القلب العني . ولكنني للأسف لم اتمكس من زيارة احد . فغالبا ما كان القادة يضطرون الى التغيب في مأموريات هامة مع تكليفي بالقيام باعمال القائد نظرا لانني كنت رئيس الدورة . وهكذا اضطررت الى الاكتفاء بارسال خطابات الى معارفي . ولست ادري ان كان هذا ام غيره من الاسباب هو الذي ادى الى فسخ خطوبتنا وبمما بعد علمت ان ماريما قد تزوجت ومن حينها لم يحدث قط ان التقينا » .

واذكر ان مفوض الكتيبة زار سريتنا واقترح علينا العمل لعدة ايام في ترميم بيوت الفلاحين الفقراء واسرجنود الجيش الاحمر فرحبنا باقتراحه . واخذ المفوض على عاتقه اشق عمل وهو تطهير البئر العمومية التي كانت مصابات الحرس الابيض قد القت فيها شتى القاذورات وكانت البئر عميقة الى حد كبير . وحين نزل المفوض الى القاع كاد يختنق لولا ان هرع الجنود لانتشاله . وحين خرج لاهث الانفاث امر بانزاله ثانيا . ومن جديد انتشل ... وظل على هذه الحال حتى تمكن في اخر الامر من تطهير البئر . وفي المساء كانت القرية كلها تشيد برجولة المفوض . ولم يخل الامر من مصادفات طريفة فقد كلفت مجموعة من الرفاق بترميم حظيرة احدى الارامل الفقيرات واخيرا بت ان المجموعة قد ادت هذا العمل في بيت اسرة تربية تحمل نفس لقب الارملة الفقيرة » .

وفي ختام هذا الفصل الحافل بذكريات عن المعارك التي اشترك فيها ضد الغزاة الاجانب وقوات الحرس الابيض وعصابات الاقطاعيين يقول المارشال زوكوف :

« مرت اموام كثيرة . وطوى النسيان كثيرا من صفحات المصائب التي واجهت شعبنا في خلال الحرب الاهلية ولكن شيئا واحد لا يمكن ان ينسى ، وهو ان كل مقاتل كان يؤمن ايمانا راسخا بعدالة الافكار التي نادى بها حزب لينين في ايام ثورة شرين الاول » .



في تلك الفترة كتب الجنرال البريطاني نوكس الى حكومته يقول انه من الممكن انزال الهزيمة بالمليون معاتل الذين يشتركون في جيش البلاشفة . ولكن طالما ان المائة والخمسين روسيا لا يريدون البيض بل يريدون الاحمر فانه لا معنى اطلاقا لمساعدة البيض .

« لاسباب كثيرة كان من المستحيل على الجيش الاحمر ان يلتزم بخبرة الحروب السابقة بما فيها الحرب العالمية الاولى التزاما كاملا . فللنضال ضد اعداء الدولة السوفييتية الفتية كان لا بد من خلق تنظيم عسكري خاص ذي طابع طبقي متميز وتسليحه بنظرة جديدة الى جوهر واساليب النضال .

وكما قال فلاديمير ايليتش لينين فان « اي ثورة لا تساوي شيئا ما لم تكن قادرة على حماية نفسها » .

ولقد لعب الحزب ولجنته المركزية ولينين شخصا الدور الحاسم

في تنظيم الدفاع من الوطن وتوحيد كافة قوى الجبهة والمؤخرة، وتعبئة جماهير العمال وجنود الجيش الاحمر، والفلاحين في النضال ضد الغزاة والثورة المضادة في سنوات الحرب الاهلية وهو ما مكن للشيوعية من النصر على العدو .

ومع ذلك فان لينين واللجنة المركزية لم يحلا محل القيادة العليا والمجالس الثورية في قيادة العمليات التي قامت بها جهات وجيوش ووحدات الجيش .

كان المجلس الثوري العسكري للجمهورية كما كانت المجالس العسكرية للجهات والجيوش تسترشد في عملياتها بقرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي « البلشفي » وكذلك كان تعيين القادة والمفوضين في المراكز الرئيسية ، وتلقيم القدرة الدفاعية للجمهورية يجري وفق مقررات اللجنة المركزية .

لقد كان دور الشيوعيين داخل الجيش اقرب ما يكون الى دور الاسمنت في البناء . وقد قامت اللجنة المركزية مرارا بعمل تعبئة حزبية لتلقيم المواقع الحساسة من الجهات بالشيوعيين . ففي تشرين اول ١٩١٨ كان عدد اعضاء الحزب في الجيش الاحمر يبلغ ٢٥ الفا وبعد عام واحد ارتفع العدد الى ١٢٠ الفا وفي آب ١٩٢٠ وصل العدد الى ٣٠٠ الف اي حوالي نصف العدد الكلي لاعضاء الحزب في هذا الوقت .

ان النشاط الوطني والقتالي للشيوعيين الجنود ، والمفوضين والمسؤولين السياسيين والخلايا الحزبية قد كان العامل الاساسي في ارتفاع الروح المعنوية والوعي السياسي للجيش الاحمر .

يقول ميخائيل فرونزي في تقييم دور الجهاز الحزبي - السياسي للجيش في سنوات الحرب الاهلية : من الذي ادخل النظام والانضباط في صفوف كتائب الجيش الاحمر الفتية والتي كانت تتكون في ظروف القصف المدفعي العاصف ؟ من الذي كان في وقت الهزيمة والفشل يقوى رجاله واستبسال المقاتلين ويزودهم بطاقات جديدة كلما تطلعت صفوفهم ؟

من الذي كان يتولى شئون الجبهة الداخلية ويرسى دعائم الحكم السوفييتي ليكفل بذلك سلامة ونجاح تحركات الجيش الى الامام . من الذي تمكن بعمله الدؤوب المثابر من تفريق صفوف العدو وتخريب خطوطه

الخلفية مهيئا بذلك الظروف لتحقيق الانتصارات الحاسمة ؟ ان منظمات الجيش السياسية هي التي ادت هذه المهام ولا بد من القول انها قد ادتها على خير وجه ، ان فضلهم السابق لا يمكن تقديره .

ويلقى المارشال زوكوف قائلا : « ليس في وسعي الا ان اوقع الف مرة بالموافقة على هذه الكلمات الرائعة وان أشهد بصحتها الكاملة » .
« ان الشعب والحزب لم ينتصرا فحسب على العدو في الحرب الاهلية ، بل ارسيا في غمرة النضال قواعد جيش نظامي جماهيري يتكون على اساس الخدمة العسكرية الاجبارية للكادحين . فقد تكونت اجهزة القيادة العسكرية المركزية والمحلية ، ووضعت اللوائح والقوانين الاولى ، وتم توحيد التشكيلات والوحدات القتالة ، وفي نهاية عام ١٩٢٠ كان تعداد جيشنا يبلغ ٥٥٠ مليون جندي رغم انه كان قد فقد حوالي ٨٠٠ الف بين قتيل وجريح ومفقود وقرابة مليون و٤٠٠ الف من الشهداء الذين اودت بحياتهم الامراض الناجمة عن قلة الغذاء ، والدواء والكساء ، وسوء الرعاية الطبية » .

ومن واقع التجربة العسكرية الطويلة والاستنتاجات النظرية المتعلقة بمصر الحرب الاهلية والتي تم على هديها بناء القوات المسلحة السوفيتية ، اود ان اتوقف عند النقاط التالية :

اولا وحدة الجيش والشعب : وهي التي ولدت قوة جبارة تفوق بكثير قوة السلاح . وقد كان لينين يرى المصدر الرئيسي لهذه القوة في انه لأول مرة في التاريخ يوجد جيش يعرف لماذا يحارب ولأول مرة في التاريخ تحمل العمال والفلاحون اقصى المحن مدركين انهم يدافعون عن الجمهورية السوفيتية والاشتراكية ، عن سلطة العمال والفلاحين .

وثانيا : الدور القيادي للحزب في القضايا العسكرية المباشرة كما في التأثير على الجيش من خلا الجهاز الحزبي السياسي : ومن الناحية العسكرية فان لقيادة الحزب الشيوعي اهمية عظمى نظرا الى انه هو الحزب الحاكم في دولة تقوم على الملكية العامة لوسائل الانتاج . وبفضل ذلك يمكن حشد كافة قوى وموارد الاقتصاد الوطني الى ابعد الحدود مشيا مع الاتجاهات العسكرية وبفضل ذلك الوضع ايضا تتاح امكانيات غير محدودة لحرية استخدام الموارد المادية والبشرية ، وتطبيق سياسة عسكرية موحدة . واخضاع الجميع ، وكل على حدة لتلبية المتطلبات العسكرية .

ومن ناحية العمل الحزبي السياسي فبفضلته تتحقق وحدة ووضوح الهدف بالنسبة لجميع العناصر الثورية الواعية في الجيش والاسطول . كما يتضاعف عدد هذه العناصر الباسلة وتتكون قاعدة عريضة للبطولة الجماعية .

وكما يقول لينين : « ان المعجزة التي تحققت لم يكن من الممكن ان تتحقق لولا ان الحزب كان في غاية اليقظة والانضباط ، ولولا ان الحزب استطاع التنسيق بين جميع المؤسسات والتنظيمات العسكرية ، ولولا ان اللجنة المركزية استطاعت تطبيق الشعار الذي اعلنته « الكل كفرد واحد » والحقيقة ان العشرات فالمئات فالالوف فالملايين قد هبت كفرد واحد وقامت تضحيات لا مثيل لها . لولا ذلك لما احرزنا النصر رغم الحملات المتكررة التي شنتها قوات الدول الامبريالية المتحالفة » .

وثالثا : فاني اود ان اتناول احد مبادئ بناء قواتنا المسلحة وهو مبدأ المركزية المطلقة ، ووحداية القيادة والانضباط الحديدي . خاصة ان المعارضين من مختلف الالوان قد انتقدوا المرة بعد المرة هذا المبدأ

يقول لينين : « ان عدم توحيد القيادة في المجال العسكري يؤدي حتما وفي كل موقع الى الكارثة والفوضى ، والدمر ، وتعدد السلطات والهزيمة » . ونظرا للظروف التاريخية كان من الصعب في بداية سنوات الثورة تطبيق مبدأ « وحادية القيادة » ولكن هذا المبدأ اللينيني اصبح سائدا فيما بعد كاحد الاسس الرئيسية التي يقوم عليها بناء القوات السوفيتية الى جانب تزايد اهمية دور المنظمات الحزبية والسياسية . وبالإضافة الى الانضباط الحديدي القائم على الفهم والادراك العميق من جانب الجندي لواجبه في الدفاع عن الوطن ، تصبح « وحادية القيادة » ضرورة حيوية لخلق وحدة وتلاحم و ارادة وتصميم القوات المسلحة .

وفي كل فترة تاريخية مر بها الوطن كان بناء القوات المسلحة يكتسب ملامح جديدة تزيد من قوته واستعداده للتصدي للعدوان .

ان التجارب والمبادئ العسكرية التي استخلصت من نيران الحرب الاهلية قد تطورت في الثلاثينات والاربعينات لتصبح جزءا لا يتجزأ من جبروت هذا الجيش الذي سحق الفاشية في الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالمية الثانية) .

الفصل الرابع

قيادة كتيبة فلواء

— إعادة بناء اللوات المسلحة — العمل السياسي في الوحدات — القيادة العسكرية بين
الجمود والتطور — ميلاد قائد جديد —

يصف المارشال زوكوف اوضاع روسيا في اعقاب
الحرب الاهلية وحالة الدمار والتدهور الاقتصادي وتعطل
وسائل المواصلات الخ .. وما ادى اليه ذلك من ضرورة
حشد كافة طاقات البلاد على جبهة البناء الاقتصادي .
وبينما كانت الضرورة تقتضي تخفيض عدد القوات المسلحة
واعتماداتها : كانت الضرورة ايضا تقتضي تقوية الدفاع
الوطني . وهو يستشهد بتعبير لينين :

« اننا الان قد فرضنا على عدد من الدول الكبرى ان تتخلى عن
خوض الحرب ضدنا .. ولكن الى متى يستمر هذا الوضع .. نحن لا
نستطيع ان نقطع برأي » .

وفي نهاية عام ١٩٢٤ كان تعداد القوات المسلحة قد انخفض من ٥٥٥
مليون الى ٥٦٢ الفا .

كان التسريح بالطبع يتجاوب مع مصالح ملايين الجنود الذين طال
حينهم الى الحقول والآلات والعودة الى اسرهم وكان من الصعب جدا ابقاء

جنود محترفين . والواقع انه لم يبق في صفوف الجيش العامل غير اولئك الذين كانت مواهبهم وميولهم الشخصية تؤهلهم لتكريس حياتهم للعمل العسكري .

» من حزيران ١٩٢٢ الى اذار ١٩٢٣ كنت اعمل قائدا لسرية في كتيبة الفرسان الثامنة والثلاثين ثم مساعدا لقائد كتيبة الفرسان الاربعين التابعة لفرقة الفرسان السابقة في مدينة سمارسك . كان على رأس هاتين الكتيبتين قادة محنكون تعلمت منهم الكثير . وكان هناك تعاون وقآلف تامان بين القيادة والجهاز السياسي والتنظيم الحزبي .

» كنا نعيش في اماكن متفرقة لدى الفلاحين في القرى المجاورة ونطهى الطعام في مطابخ الميدان المتنقلة ، ولم تكن لدينا نواد او خلافة ولكننا في ذاك الوقت كنا نعتبر هذه الظروف عادية تماما في ظل الاوضاع القاسية التي كانت تسود الوطن .

وقد كان معظم القادة من الشباب الاصحاء الممثلين تحمسا وطاقه وصلابة وعلاوة على ذلك فقد كان معظمنا غير متزوج وبالتالي فليست لديه اية اهتمامات اخرى خارج نطاق الخدمة . ولم تكن ندخر جهدا في اداء الواجب حتى لقد كنا نعمل في اليوم بمعدل ١٥ - ١٦ ساعة . ومع ذلك لم يكن الوقت يتسع لانجاز جميع الواجبات .

وفي ربيع ١٩٢٣ استدعيت الى مقر قيادة الفرقة . لا انكر انني شعرت ساعتها بالقلق ، والخوف من ان اكون قد ارتكبت خطأ ما . لكن قائد الفرقة استقبلني بترحاب وقدم لي الشاي ثم بدأ يسألني عن الاستعداد التكتيكي والقتالي في فرقتنا . . وفجأة سألني :

— ما هو تصورك لمدى استعداد قوات الفرسان لدينا لخوض حرب المستقبل . وما هو تصورك لهرب المستقبل .

كان السؤال يبدو لي صعبا فاحمر وجهي ، وعجزت عن اعطاء الرد على الفور . ولحظ القائد ارتباكى فأهملني حتى استجمعت تفكيري المشتت .

— نحن القادة ليست لدينا المعارف والخبرات الكافية لتعليم قوات بأسلوب عصري . فنحن نعلم مروسينا على النحو الذي علمونا اياه في الجيش القديم .

ولكى نحسن اعداد القوات من كافة النواحي لا بد من تسليح القادة انفسهم بالمفاهيم العصرية للفن العسكري .

- ذلك صحيح ... ولكن حتى تنهيا الظروف المناسبة لا بد ان يعتمد القادة على التشويق الدائمي .

وفي هذا اللقاء انباني قائد الفرقة بفرار تعييني قائدا لكتيبة الفرسان التاسعة والثلاثين .

وعند وداع القائد لفني شعور بالزهو والمسئولية ، فقيادة الكتيبة تعد دائما اهم مرحلة في اتقان الفن العسكري . فالكتيبة هي الوحدة القتالية الرئيسية حيث يتطلب تنظيم القتال تنسيقا للجهد المشترك من جميع انواع القوات البرية بل وقوات اخرى غير برية كما يقتضي الامر في بعض الاحوال .

وفي رأيي ان قائد الكتيبة الذي ينجح في الاحتفاظ بقواته في حالة الاستعداد الدائم للقتال ويبرع في قيادة كتيبته سوف يكون دائما قائدا طليعيا في جميع مراحل القيادة الاعلى في وقت السلم والحرب على السواء .

عندما استعيد الماضي يبدو لي كل شيء عاديا . لكن الامر كان يختلف تماما في حينه . . ففي السادسة والعشرين من عمري اصبحت قائد كتيبة انا الذي انهيت مدرسة ضباط الصف في الجيش الفيصري وفي الجيش الاحمر انهيت فرقة اعداد القادة الحمر . هذا كل ما هناك والحقيقة انني بانتهاء الحرب الاهلية اخذت بمنتهى الجدية ادرس كل ما تصل اليه يدي من الكتب العسكرية وخاصة تلك المتعلقة بالتكتيك .

- كنت من الناحية العملية اشعر بان خبرتي لا بأس بها ولكنني من الناحية النظرية كنت اشعر بتخلفي عن المستوى اللائق بقائد كتيبة . وحين تأملت هذا الوضع لم يطل بي التفكير حتى اهتديت الى انه لا يجوز تضييع الوقت بل يجب ان استमित في تنمية ثقافتي العسكرية ورغم انني في ذلك الوقت كنت اعمل بمعدل ١٢ ساعة في اليوم لرعاية القوات التي تحت قيادتي ، فقد اضفت الى برنامج حياتي اليومي ٢ - ٤ ساعات للدراسة . وكنت ارى ان وقت الراحة سوف ياتي فيما بعد .

ويروي المارشال زوكوف كثيرا عن لقاءاته انثناء المناورات والتدريبات بالقواد البارزين في ذلك الوقت من ابطال الحرب الاهلية المشاهير من طراز حاي وتوخاتشفسكي ، وبلوخير واوردجينكيلدي وفرونزي وبودونوي، وبجوروف وقد اشدوا جميعا بكفاءة الوحدة واخلاص افرادها قادة وجنودا

وهو يشير دائما الى الاهتمام الشديد الذي كان يبداه القادة براحة الجنود وطعامهم واقامتهم وتنمية ثقافتهم .

ويروي كيف استلماه قائد الفرقة واخبره بترشيحه للدراسة في مدرسة الفرسان العليا في ليننغراد ، وكيف ادى الامتحان وكان من زملائه في الدفعة راكاسوفسكي ، وباجراميان ، وبريمنكو وآخرون من قادة الكتائب الذين أصبحوا فيما بعد من المع قادة الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية .

« كمعظم زملائي في الدفعة كنت ارى ليننغراد لأول مرة . وقد تعرفنا على معالم المدينة بمنتهى الشغف ، وتجولنا في المناطق التي شهدت احداث تشرين الاول ١٩١٧ ، هل كان يمكن في هذا الوقت ان يدور بخليدي انني بعد سبعة عشر عاما سوف اقود قوات جبهة ليننغراد التي دافعت عن مدينة لينين ضد القوات الفاشية » .

وفي خريف ١٩٢٥ انتهت الدراسة واتفق رأي قواد الكتائب زوكوف وسافيلوف وريبالكين على القيام بمغامرة مثيرة لم يكن لها مثيل في ذلك الوقت في داخل الاتحاد السوفيتي او خارجه وهي القيام بسباق خيل جماعي لمسافة طويلة تبلغ ٩٦٣ كيلومترا وهي المسافة بين ليننغراد ومقر قيادة القواد الشبان الثلاثة في مدينة مينسك . وكان امهم تسجيل رقم قياسي دولي ولقد قطعوا هذه المسافة في سبعة ايام رغم اصابة جواد زوكوف . واستولى السرور على الفرسان الثلاثة وهم يجدون الشعب والجنود ورئيس مجلس المدينة وقائد المنطقة العسكرية في استقبالهم بالرايات الحمراء ، والهتافات الحماسية الداوية ، اذ كانت اخبار الرحلة المثيرة قد وصلتهم من قيادة مدرسة الفرسان العليا في ليننغراد .

وفي شتاء ١٩٢٦ استدعى زوكوف الى مقر قيادة فيلق الفرسان الثالث حيث احيط علما باختياره مفوضا سياسيا للكتيبة مع احتفاظه بمنصب القيادة . وكانت هذه اول واقعة من نوعها في فرقة الفرسان السابعة .

« وكنت في عملي التنظيمي والايدولوجي استمعين بسكرتير لجنة الحزب ومساعدتي للشئون السياسية . والحقيقة انهما لم يخجلا ابدا من توجيه النقد الحزبي لتصرفاتي واسداء النصيح لي . فقد كنت نظرا لحدائة عهدي بهذه الوظيفة اقنع في بعض الاخطاء . ومن هنا فقد كانت انتقاداتهما تفيد الصالح العام » .

« ولكي يتمكن كبار القادة من توجيه التربية السياسية لا بد ان يكونوا على قدر من الثقافة السياسية ارفع بكثير من مروضيهم . وفي تلك السنوات التاريخية كنا - نحن القادة العسكريين - ننمو في مجال الفكر العسكري اسرع بكثير من نمونا في فكرنا السياسي واستيعابنا لاسس النظرية الماركسية الليننية .

وفي ايار ١٩٣٠ عينت قائدا للواء الفرسان الثاني التابع للفرقة السابعة التي كان راكاسوفسكي قد عين قائدا لها منذ عام . ولقد اشترت من قبل الى ان قسطنطين راكاسوفسكي كان زميلي في مدرسة الفرسان العليا في ليننغراد طوال عامي ١٩٢٤ ١٩٢٥ . ولقد كان يعاملني برقة وكنت انا بدوري اجل حنكته العسكرية وخبرته الكبيرة في الاشراف والاعداد القتالي والتربوي للقوات » .

لقد اضطلعت بقيادة الكتيبة التاسعة والثلاثين قرابة سبع سنوات كانت لي مدرسة قيمة تعلمت خلالها الكثير في مجال التكتيكات والعمليات والمعارف النظرية .. واذا كنت في وقت واحد قائدا عسكريا ومفوضا سياسيا ، فقد ادركت بعمق الدور القيادي التنظيمي لحزبنا وفي بناء القوات المسلحة وفي الحياة اليومية للوحدات » .

« بالطبع كانت لي اخطائي .. ولكن من ذا الذي لا يخطئ ؟ الا ان يكون من اولئك الذين لا يعملون الا بتعليمات من اعلى دون اظهار اي مباداة - وفي رأبي ان المسألة ليست في الخطأ بل في سرعة ملاحظته وتلافيه » .

« كان البعض يلومني على صراحتي الشديدة التي كنت اعتبرها صفة لا غنى عنها للقائد البلشفي . وحين القى نظرة الى الوراء اجد انني بالفعل كنت اقسى مما يجب في بعض الاحوال وانني لم اكن دائما حلما وصبرا ازاء اخطاء مرؤسي فقد كنت افقد توازني ازاء هذا أو ذاك من مظاهر افتقاد الضمير في عمل العسكريين أو سلوكهم الشخصي ويبدو ان البعض لم يفهم ذلك كما انني لم اكن بما فيه الكفاية افتفسر الضعف الانساني » .

لا شك ان هذه الاخطاء قد اصبحت الان اكثر وضوحا لي ، فتجارب الحياة تعلم الكثير . غير انني للان اعتقد انه ليس لاحد الحق في الاستمتاع بحياته على حساب عمل الاخرين .. وعلى العسكريين بالذات ان يدركوا هذه الحقيقة فهم الذين سيتحتم عليهم قبل غيرهم ان يخوضوا المعارك في

مبادئ القتال دفاعا عن الوطن دون ان يخلوا بحياتهم .
كان اللواء الذي عين زوكوف قائدا له يتكون من كتيبتين احدهما
الكتيبة التي ترك قيادتها قبل ترقيته مباشرة ولهذا فهو يقول انه كان
حريصا على عدم اثارة اية حساسية لدى وحدات الكتيبة الاخرى ، وانه
بموضوعية قد ادرك مزايا ونقاط ضعف كل كتيبة وسعى جاهدا الى
خلق الظروف المناسبة لتبادل الخبرات بين الكتيبتين .

وزارة الدفاع بموسكو لاعداد المستويات بالحقاق زوكوف بفرقة دراسية
في مقر

في نهاية ١٩٢٩ صدرت الاوامر القيادية العليا . ويشيد زوكوف في
مذكراته بدور ميخائيل نرونزي في ارساء اساس المدرسة العسكرية
السوفيتية . « وتحديد العلاقة بين الانسان والسلاح وتطوير مختلف انواع
الاسلحة والتنسيق بين استخداماتها ، وتحديد العلاقة بين جبهة القتال
والجبهة الداخلية ، واساليب تدريب القوات ، واستخلاص الدروس من تجارب
الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية » .

وهو يشيد بالقائد الموهوب ميخائيل توخاتشفسكي الذي كانت له
نبوءاته العبقريّة بطبيعة الحرب في المستقبل « وقد وضع توخاتشفسكي
اساسا جديدة لنظريات وتكتيك واستراتيجية وعمليات الحرب في المستقبل
كما بين العلاقة الوثيقة بين نظريات وتطبيقات البناء العسكري وبين
البناء الاجتماعي والقاعدة الانتاجية للدولة » .

ويذكر زوكوف عددا من اسماء الكتب التاريخية لمشاهير القادة
السوفيت الذين كانوا في طليعة المفكرين العسكريين ليس في روسيا
وحدها بل في العالم المعاصر .

ويتحدث عن تطوير الاسلحة في الاتحاد السوفيتي واهتمام الحرب
بانشاء صناعات حربية وتشجيع الاختراعات والابتكارات العملية
العسكرية . « وفي نهاية العشرينات كان لدى القوات المسلحة السوفيتية ٧
آلاف مدفع ميدان فقط ومعظمها من الطراز الخفيف ولم تكن هناك على الاطلاق
مدفعية دبابة ولا مدفعية مضادة للدبابات ولا مدفعية مضادة للطائرات .
وفي ١٩٢٨ كان عدد الطائرات الحربية يبلغ ١٠٠٠ طائرة فقط ، وعدد
الدبابات والسيارات المصفحة ٢٠٠ ، وكان الجيش يفتقر جدا الى الآليات .
ولعله من المضحك ان اشير الى ان الجيش الاحمر لم يكن لديه غير ٢٥٠

سيارة نقل ، ٧٠٠ سيارة ركوب و٦٧ جارا مجنزرا . ولكن لا ينبغي ان ننسى انه قبل ١٩٢٨ لم تكن في بلادنا صناعة سيارات او جرارات على الاطلاق .

« وفي ذلك الوقت كانت الدول الامبريالية الكبرى تنمي قواتها المسلحة ولقد كانت بريطانيا في حالة حدوث حرب تستطيع وقتئذ لان تنتج ٢٥٠٠ دبابة في الشهر وتستطيع فرنسا انتاج ١٥٠٠ دبابة . وكانت القوات المسلحة الامبريالية تمتلك عشرات الالاف من الطائرات . وكانت عملية الميكنة العسكرية تجري بمعدلات سريعة جدا . وبكلمة فقد كان اعداؤنا السابقون (والمحتلون) يسبقوننا بشوط هائل في مجال التسليح بالمقارنة مع اوضاع الحرب العالمية الاولى » .

وبمقارنة هذه الارام لا يسع الانسان الا ان يفكر مرارا في المواقع التي حددتها الظروف التاريخية لنا لكي نبدأ منها سباقنا المير مع العالم الرأسمالي » .

وفي عام ١٩٢٥ قال ميخائيل فرونزي في تقريره حول الاوضاع العسكرية امام اللجنة المركزية :

كثيرون من رفاقنا - واعتقد ان معظمهم ممن استركوا في جبهات القتال في الحرب الاهلية - يعبثون فيما يبدو في الحالة النفسية التي خلقتها ظروف الحرب الاهلية . واني احذر من الخطورة البالغة لهذه النفسية ، فالحرب في المستقبل لن تكون شبيهة بالحرب الاهلية من حيث التسليح ولا اساليب القتال . فسوف نلتقي بجيوش ممتازة مسلحة باحدث الوسائل التكتيكية المتطورة . واذا لم تكن لدى جيشنا مثل هذه الامكانيات فان العاقبة سوف تكون وخيمة وخيمة جدا . لا بد من اخذ هذا في الاعتبار عندما نقرر الاجراءات الواجب اتخاذها لاعداد البلاد للدفاع » .

وفي ربيع ١٩٣٠ عاد الدارسون من موسكو الى وحداتهم . . ولم يطل بقائي في قيادة اللواء اذ رشحت للعمل مساعدا للمفتش العام على سلاح الفرسان السوفيتي وهكذا بدأ زوكوف عمله مع بطل الحرب الاهلية الاسطوري مارشال الاتحاد السوفيتي سيمون بوديوني .

ولم يستغرق استعدادي للرحيل اكثر من لحظات معدودة . فقد كان كل ما فعلته ان ارتديت بدلتي العسكرية وجمعت متاع الاسرة في حقيبة واحدة . لم يكن احد منا في ذلك الوقت يمتلك اكثر من ذلك وكان ذلك يعد ظاهرة طبيعية .

وبعد لقاء حار مع قادة وجنود الفرقة السابعة استمعت فيه الى ارق عبارات الشناء والمودة ركبت القطار مع زوجتي وابنتي ايرا التي كانت في عامها الثاني .

العمل الجديد

اتاح العمل الجديد لزوكوف امكانيات غير محدودة في الاتصال بالقيادات العسكرية العليا ، والاشتراك في اعادة بناء القوات المسلحة السوفيتية على اسس عصرية ، وتكوين قوات المدفعية والطيران ، والبحرية وتغيير طبيعة وتسليح ودور سلاح الفرسان ، ومناقشة القضايا العسكرية العليا على ضوء التطورات العالمية والداخلية خاصة وقد تميزت هذه الفترة بوصول النازية الى الحكم في المانيا ونمو الروح العسكرية العدوانية في اليابان وايطاليا واشتداد حدة الصراع بين الدول الامبريالية على اعادة تقسيم العالم الى مناطق نفوذ وسيطرة .

ويتوقف زوكوف طويلا عند معرفته الشخصية المباشرة بوخاتشفسكي الذي حذر مبكرا من ان العدو الرئيسي للاتحاد السوفيتي في المستقبل سوف يتمثل في المانيا النازية . ويصف زوكوف القائد العظيم بوخاتشفسكي بانه كان « عملاقا في الفكر العسكري والمع نجم بين القادة العسكريين في بلادنا » .

وذاث يوم استدعى زوكوف لمقابلة المساعد الاول للمفتش العام على سلاح الفرسان ، الذي ابلغه باختياره قائدا لفرقة الفرسان الرابعة . وكانت هذه الفرقة تحمل اسم فورشيلوف بطل الاتحاد السوفيتي ووزير الدفاع السوفيتي في ذلك الوقت وكان فورشيلوف قد حارب في صفوفها في انشاء الحرب الاهلية وعلى راس جنودها حقق كثيرا من المآثر البطولية التي ترتفع الى مستوى الاساطير ولكن وضع الفرقة كان قد تدهور . وحين بلغ الامر فورشيلوف انتابه حزن عميق وطلب من بوديوني ترشيح قائد لهذه الفرقة فوقع اختيار بوديوني على زوكوف .

قال بوديوني وهو يودع زوكوف عند نأهبه للرحيل لتسلم مهام منصبه الجديد :

- كانت الفرقة الرابعة خير قوات الفرسان في الجيش الاحمر ولا بد ان تصبح كذلك في المستقبل . ويقول زوكوف في سرد ذكرياته ان التاريخ قد اكد تحقيق مطلب المارشال بوديوني فهو بعمله اللئوب قد اعاد الى تشكيلات ووحدات الفرقة روحها المعنوية والقتالية العالية واشرف

على استيعابها لانواع اسلحة الجديدة وتربية كوادر قيادية انبتت في ميادين القتال اثناء الحرب العالمية كفاءة عالية واستبسلا باهرا .
ويقول المارشال زوكوف انه كان دائما يحتفظ بخطة المناورات في سرية تامة اذ كان يحدد لقيادة الكتيبة مكان التجمع ويختاره بحيث يتحتم على الكتيبة الوصول اليه عن طرق حافلة بالموانع والعوائق الطبيعية ودون ان يزود الكتيبة باحتياجاتها الى الدم من جانب الوحدات الهندسية لكي تنعود القوات على الاعتماد على قواها الذاتية ولينمي فيها القدرة على مواجهة الصعاب بروح التحدي والتصميم على الوصول الى الهدف .
« كانت هذه التدريبات في غاية المشقة من الناحية الجسمية بحيث كان الجنود في بعض الاحوال يسقطون من الاعياء . وكثيرا ما كان الافراد يعانون لعدة ايام متوالية من الحرمان من النوم والطعام الطبيعي . ولكن كم كان الجنود والضباط يشعرون بسعادة غامرة حين يحلون المشاكل العويصة التي تواجههم في الطريق الى تحقيق الهدف المحدد لوحدهم » .

ويقول زوكوف ان تنظيم « امسيات رفاقية » لتبادل الاراء والانتقادات فيما يتعلق بتقييم المناورات والعمليات التدريبية كان يلعب دورا ايجابيا خطيرا في تثقيف الجنود ورفع معنوياتهم واتارة الحمية في نفوسهم .



وفي عام ١٩٣٥ توجت جهود الفرقة بالتقدير الرفيع اذ حصلت على وسام لينين وهو ارفع وسام سوفيتي . وحصل عدد من قادة وجنود الفرقة على اوسمة وميداليات « وحصلت انا على وسام لينين ولقد هزني كل هذا من الاعماق وحين قرأت وثيقة تقليد الوسام فكرت بعمق فيما نستطيع ان نعمله لكي نواصل رفع الاستعداد القتالي والمستوى العام للفرقة » .

« كان عام ١٩٣٥ عاما مشهودا في حياتنا نحن العسكريين اذ قرر الحزب تدعيمنا لنفوذ القادة ادخال نظام الرتب الشخصية في تنظيم الحياة العسكرية وبناء عليه اصبح بلوخير وتوخاتشفسكي وبوديونى وفورشيلوف ويجوروف اول مارشالات الاتحاد السوفيتي .

« وعلى وجه الخصوص اذكر مناورات ١٩٣٦ لا سيما عملية عبور نهر بربوزينا وهو نفس النهر الذي شهد القضاء على فلور جيش نابليون المنسحب من روسيا عام ١٨١٢ » .

وكانت المناورات تجري في حضور المارشال فورشيلوف وزير الدفاع الذي اهتم على وجه الخصوص بالتفتيش على مدى كفاءة الفرقة التي تحمل



لينين زعيم الشيوعية ... والقوة الديناميكية فيها

اسمه . وقد التقى فورشيلوف بكثيرين ممن حارب معهم على ظهور الجياد في الحرب الاهلية وقال لاحدهم - لكم تغير الوضع في سلاح الفرسان عن ايام الحرب الاهلية .. ما هو تقديرك ايها الصديق القديم للدبابة . هل تخيب آمالنا ؟ ايهما اضمن الدبابة ام الجواد .. ما رأيك ؟

ورد عليه فيودور كوستنكو :

- لم يحن الوقت بعد لوضع الجياد والسيوف والرماح في المتحف فقد تفيد الوطن .. ولكننا نولي الدبابة اهتماما خاصا ، فهو نوع حديث من الاسلحة المتحركة .

وتمت المناورة الشاقة بنجاح عظيم مما اسعد القادة العظام وقواد وجنود الوحدات القتالية .

وبعد اربع سنوات من قيادة الفرقة الرابعة رقى زوكوف الى قيادة فيلق الفرسان القوقازي الثالث .

« منذ ذلك الحين مضى اكثر من ثلاثين سنة الا انني وحتى اليوم لا زلت احتفظ باطيب الذكريات عن الجنود والقواد والمسؤولين السياسيين الذين عملوا معي في صفوف الفرقة الرابعة القوقازية » .

الفصل الخامس

قيادة الفيلق الثالث فالسادس

.. بعد عشرين عاما من الثورة - امتحانات غير مشروعة في الجيش - دراسة الاشتراكية والماركسية -

تسلّمت قيادة فيلق الفرسان الثالث القوقازي عام ١٩٣٧ .. كان قد مضى عشرون عاما من عمر السلطة السوفيتية... عشرون عاما من التفتت الشاق والانتصارات المحيية في ميادين الاقتصاد والثقافة وكافة قطاعات البناء الاشتراكي مما كان خير شاهد على عظمة الفكر ثورة تشرين الاول » .

» وكانت الدول الامبريالية الكبرى تحشد الجيوش الهائلة وترصد الزيد فالزيد من الاعتمادات للتحضير لحرب جديدة ... فبين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨ كانت نسبة الاعتمادات العسكرية الى الميزانية العامة قد ارتفعت في اليابان : من ٤٣٪ الى ٧٠٪ ، وفي ايطاليا : من ٢٠٪ الى ٥٢٪ ، وفي المانيا : من ٢١٪ الى ٦١٪ .

وفي ١٩٣٥ استولت ايطاليا على الحبشة وفي ١٩٣٦ اشتركت المانيا وايطاليا في التدخل العدواني على جمهورية اسبانيا وبدأت المعارك والقتال

ليس فقط ببساطة بين دولة واخرى وانما كانت رحى الحرب قد بدأت تدور بين قوى الرجعية والفاشية وبين قوى الديمقراطية والاشتراكية .
في ١٩٣٧ كان الجيش السوفياتي قد أصبح جيشا قويا وعصريا في تسليحه وتدريبه وتنظيمه وثقافته ، وكانت الامة قد اختفت تماما من صفوف الجنود . ومع التطور التكنيكي للقوات المسلحة تطوّر مستوى التأهيل المهني للمقاتل السوفياتي وارتفع مستواه الفكري . وعلى سبيل المثال فقد كان الاعتماد السنوي المخصص للتعليم والثقافة داخل صفوف القوات المسلحة يبلغ ٢٠٠ مليون روبل وكانت مكاتب الوحدات المقاتلة تضم زهاء ٢٥ مليون كتاب . وكان الجيش يشترك بنشاط في الحياة السياسية للبلاد « ولكن يكن قد بقي من العسكريين القدامى الا اولئك الذين اثبتت الحياة اخلاصهم للسلطة السوفياتية اما القيادات الجديدة فقد كانت تتكون من العمال والفلاحين الذين تخرجوا من مدرسة الحرب الاهلية او الذين تلقوا تعليمهم التكنيكي وتربوا سياسيا في مدارس القوات المسلحة وكان العمال والفلاحون يشكلون ٧٠٪ من الكادرات القيادية وكان ٥٠٪ من القواد ينتمون الى الحزب الشيوعي والكمسول » .

« ولهذا فقد كانت حركة الاعتقالات غير المشروعة التي جرت في صفوف القوات المسلحة ظاهرة غير طبيعية وغير منسجمة مع جوهر النظام ولا مبرر لها في الظروف الموضوعية التي مرت بها البلاد عام ١٩٣٧ » .

وامتقل فيمن امتقل عدد من ابرز القادة ، الامر الذي كان يستحيل الا ينعكس الى درجة ما على تطور قواتنا المسلحة .

مكنت قائدا للفيلق الثالث سبعة شهور حتى اقترح على الانتقال الى قيادة فيلق الفرسان السادس القوقازي ورحبت بالفكرة لعدة دوافع من بينها انه كان من حيث التدريب والتسلح والتعداد يتفوق على الفيلق الثالث ، واهم من هذا كله ان الفيلق الجديد كان يضم الفرقة الرابعة التي سبق ان كنت قائدا لها طوال اربع سنوات والتي كنت بالطبع اشعر ازاءها بتعلق خاص .

واذا أصبحت قائدا للفيلق السادس اخذت بمنتهى الجدية اسعى الى استيعاب قضايا العمليات الاستراتيجية مدركا انني لم اكن بعد قد وصلت الى المستوى المطلوب . وكنت بوضوح اضع في اعتباري ان على قائد الفيلق ان يكون على اطلاع واسع جدا . ومن هنا فقد بدلت مجهودا مضنيا في التمكن من العلوم العسكرية .

« كانت السعادة تغمرني حين اجد ان محاضراتي او تدريسي لجموعات من الضباط واركان الحرب تؤدي الى نتائج ايجابية محسوسة فسي رفع مستوى الدارسين . وقد كنت اعتبر هذا بمثابة اعظم مكافأة على جهودي . فاذا كان الدارسون لا يستفيدون شيئا جديدا ولا يحصلون على شيء من خبرة قائدهم فان هذه الدروس في تقديري ليست سوى طعنة مباشرة لضمير القائد ودليل على عدم كفايته . والحقيقة المؤلمة ، انه كان لدينا عدد غير قليل من القادة الذين كانت معارفهم تضعهم دون مستوى مرؤوسيهـم » .
واذا كنت قد درست المسائل العسكرية على نحو تفصيلي ودائم ومتعاطف خطوة بخطوة نظريا وعمليا ، فانني قد تعرفت على النظرية الماركسية اللينينية من مناسبة الى اخرى ، ومن موضوع الى آخر ودون اي تخطيط في معظم الاحوال .

وفي نهاية ١٩٣٨ رشح زوكوف الى منصب مساعد قائد قوات منطقة بيلوروسيا العسكرية .

« وبمقتضى منصبى الجديد كان على في حالة السلم ان اتولى قيادة الاعداد القتالي لوحدات الفرسان وعدد من الوية الدبابات المخصصة بموجب خطة التعبئة لمعاونة الفرسان ، وفي حالة الحرب كان على ان اتولى قيادة مجموعة من الفرسان الميكانيكية قوامها من ٤ الى ٥ فرق فرسان ومن ٣ الى ٤ فرق وغيرها من وحدات التدمير .

« كنت غير متحمس لترك الفيلق الذي الفته ولكن مستقبل العمل مع تشكيلات ميدانية كبرى كان شديد الاغراء ولهذا قبلت الترشيح .
« وبعد توديع الوحدات الخاضعة لقيادتي سافرت الى سمولينسك حيث كان مقر قيادة منطقة بيلوروسيا العسكرية وبحرارة بالغة استقبلني كافاليوف قائد المنطقة .

« خرجت بخبرة ومعرفة كبيرتين من عملي في قيادة الفيلقين الثالث والسادس ولقد احتفظت دوما بشعور العرفان بجميل كل من ساعدني في عملي وكل من عمل بشرف في سبيل تدعيم الدفاع القومي » .

الفصل السادس

الحرب غير المعلنة على النهر

- اليابان تغزو منغوليا - زوكوف يتولى القيادة - اليابانيون يستميتون في القتال - اول انتصار للجيش الاحمر خارج بلاده - اللقاء الاول بستالين - خطر النازية -

في آخر ايار ١٩٣٩ تلقى زوكوف امرا بالمثل الفوري امام وزير الدفاع السوفياني المارشال فورشيلوف فاستقل زوكوف القطر الى موسكو فوصلها صبيحة ٢ حزيران ١٩٣٩.

« وبعد تبادل التحية قال فورشيلوف :

- شنت القوات اليابانية هجوما مفاجئا على جمهورية منغوليا الشعبية التي تعهد الاتحاد السوفياني في ١٢ اذار ١٩٣٦ بان يدافع عنها ضد اي اعتداء خارجي . وها هي خريطة منطقة الاحداث في ٣٠ ايار .

وبعد شرح الموقف قال فورشيلوف :

- هل انت مستعد للتوجه بالطائرة فورا الى هناك ، ولتسلم امباء القيادة اذا اقتضى الموقف ؟ فرد زوكوف باقتضاب :
- « مستعد للطيران في هذه الدقيقة ! »

وصل زوكوف الى منغوليا وأجرى مشاوراته مع قادة القوات المنغولية وقادة القوات السوفياتية الخاصة ، وبعد تدارس الموقف من كافة نواحيه ايقن ان القوات الموجودة في منغوليا لن تتمكن من القضاء على المغامرة العسكرية اليابانية وخاصة فيما لو طور اليابانيون هجومهم في مناطق اخرى وفي اتجاهات جغرافية جديدة ، فأرسل اشارة عاجلة الى وزير الدفاع يقترح فيها خطة عمليات القوات السوفياتية والمنغولية وفي اليوم التالي تلقى زوكوف اشارة تتضمن موافقة المارشال فورشيوف العامة على تقديره وتخطيطه وحينئذ طلب زوكوف ارسال تعزيزات بالطائرات والمدفعية والدبابات .

وقد نجحت خطة زوكوف في القضاء على القوات المعتدية اليابانية المتمركزة في جبل بابن تساجان والتي عبرت نهر خالخين جول رغم التفوق الكبير في تسليح العدو .

« كان الجوكر الوحيد في بلدنا هو كتيبة الفرسان الميكانيكية وقد قررنا ان نستغلها دون ابطاء لكي تشن هجوما « على الطائر » على القوات اليابانية التي لم تتمركز بعد حتى لا تتمكن من بناء الخنادق والاستحكامات الدفاعية المضادة للدبابات . فقد كان العدو بالفعل قد رصد تحرك دباباتنا وبدأ يسلط على طوابيرها نيران مدفعيته . ولم يكن في مقدور العدوان يختبئ فمئات الكيلو مترات من الصحراء المكشوفة الخالية حتى من الاعشاب كانت تحاصره من كل الاتجاهات .

استمرت المعركة طوال نهار وليل ٤ تموز وفي الثالثة صباح ٥ تموز فقط انتهت تملما مقاومة العدو . واسفر القتال عن آلاف الجثث وتلال من الجياد وحطام عدد هائل من المدافع بانواعها المختلفة والسيارات . وفي الاشتباكات الجوية خسر العدو ٤٥ طائرة .

« والى حين اكتمى العدو بالدوريات الاستطلاعية ثم في ١٢ آب بدأ العدو الهجوم بكتيبة من المشاة مدعمة بالمدفعية والسيارات المصفحة والدبابات وقوة جوية قوامها ٢٥ قاذفة قنابل . . وتمكن العدو من احتلال جبل « الرمال الكبيرة » ثم توالى تعزيزات القوات المعادية » .

« وتأهبت القوات السوفياتية المنغولية المشتركة لشن هجوم شامل بهدف القضاء النهائي على القوات اليابانية التي دخلت الاراضي المنغولية . وبناء عليه طلبت القيادة من موسكو ارسال تعزيزات جديدة » .

« وفي ٢٠ آب ١٩٣٩ بدأ الهجوم الشامل لتطويق العدو وتدميرهِ ودارت معارك طاحنة طوال ايام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ ابدى العدو خلالها مقاومة

مستميتة ، وخاصة في منطقة « جبل الرمال الكبيرة » حيث كانت المقاومة .
اضنف مما تصورنا مما اقتضانا ادخال لواء مدرعات احتياطي مدعم
بالمدفعية » .

« وفي صبيحة ٢٦ آب كانت قواتنا قد حطمت جناحي القوات
المعادية واخذت تطوق بنجاح كل حشود الجيش الياباني السادس حيث
دارت معارك متواصلة من أجل تشتيت وحدات العدو وتطويق كل منها
على حدة ثم سحقها نهائيا » .

قاتلت الوحدات اليابانية الى آخر رجل . ولكن الجنود في النهاية
ادركوا كذب الدعاية التي تزعم ان الجيش الامبراطوري لا يقهر . فهم قد
شهدوا بأعينهم كيف عجزت قواتهم عن كسب معركة واحدة في الحرب التي
دامت اربعة شهور .

مع ستالين

وفي ٣٠ آب تم القضاء على الجيش الياباني السادس عن آخره ولكن
زوكوف واصل البقاء بقواته في منغوليا حتى استدعى هو الى موسكو في
اول ايار ١٩٤٠ للتوجه الى وزارة الدفاع لتلقي التعليمات بتعيينه في
منصب جديد .

« وبعد بضعة ايام استقبلني يوسف ستالين شخصيا وكنت في
طريقي الى لقائه اشعر برهبة شديدة فلم يكن قد سبق لي ان التقيت به .
وبصحبة ستالين كان بالكتب كالفين ومولوتوف وغيرها من اعضاء المكتب
السياسي .

كان ستالين يدخن الغليون لكنه بادرني على الفور بالسؤال :

— ما هو تقديرك للجيش الياباني ؟

— الجندي الياباني الذي حاربناه في خالخين جول مدرب جيدا
وخاصة لخوض المعارك المحدودة ، وهو منضبط ومطيع وشرس في القتال
وخاصة في وضع الدفاع .

والضباط الصفار على درجة عالية جدا من التدريب وقاتلون
بشراسة مذهلة . وكالمادة لا يقع صفار القادة في الاسر ولا يتخاذلون في
وقت الشدة ، اما الضباط وخاصة ذوو الرتب المتوسطة والعليا فمستوى
تدريبهم منخفض ولا تظهر عليهم روح المبادرة ويميلون الى القيادة طبقا لما
جرت عليه التقاليد .

وفيما يتعلق بالمستوى التكنيكي للجيش الياباني فهو في تقدير

متخلف . ولا يفوتني ان اشير الى ان قواتهم كانت تتفوق على قواتنا الجوية في بداية الامر وحتى جاءتنا الطائرات الجديدة من طراز « تشايكا » و « اي ١٦ » وعندما جاءتنا مجموعة الطيران ابطال الاتحاد السوفياتي بقيادة سموشكيفيتش اصبحت لنا السيطرة الجوية البارزة » .
وجدير بالذكر اننا واجهنا صفوة الجيش الياباني تلك التي يطلق عليها « الوحدات الامبراطورية » .
واصفى ستالين الى تقريرى باهتمام ثم سألني :



ماوتسي تونغ وبعض رجاله في بكين

— وكيف قاتلت قواتنا ؟

أخذ زوكوف يسرد بالتفصيل تقييمه للحرب ويقول انه لاحظ ان ستالين كان يصفي اليه بشغف فاستطرد :

— بالنسبة لجميع قواتنا ، وقادة وحدتنا ، وبالنسبة لسي شخصيا كلن القتال على نهر خالخين جول مدرسة قيمة للخبرة القتالية . واعتقد ان الجانب الياباني سوف يستخلص لنفسه الآن استنتاجات اكثر دقة فيما يتعلق بقوة وكفاءة الجيش الاحمر .

وتدخل في الحوار كاليفين وطرح على زوكوف سؤالا عن نصوره لهدف الحكومة اليابانية من تدبير هذا العدوان فرد عليه زوكوف بان الهدف في رأيه هو « احتلال الاراضي المنقولة الواقعة خلف نهر خالخين جـول ثم اتخاذ مواقع على النهر تكفل حماية الخط الحديدي الاستراتيجي الذي سعى اليابان لمده حتى حدود الاتحاد السوفياتي فيما وراء البيكال » .

عندئذ قال ستالين : « لديك الآن خبرة قتالية فخذ على عاتقك قيادة منطقة كيف العسكرية واستخدم خبرتك في اعداد القوات للقتال » .
« واذا كنت في فترة وجودي بمنغوليا لا امكن من المتابعة التفصيلية للقتال الدائر بين المانيا من جانب وبين انكلترا وفرنسا من الجانب الآخر فقد انتهزت الفرصة لا تسأل :

— ما هو فهمكم للطابع البالغ السلبية للحرب الدائرة في الغرب وما هي توقعاتكم فيما يتعلق بتطور العمليات العسكرية في المستقبل ؟
» ضحك ستالين ثم اجاب :

— ان الحكومة الفرنسية برئاسة دالاديه والحكومة البريطانية برئاسة تشمبرلين لا تريدان الدخول بجديّة في حرب مع هتلر . فهما تأملان حتى الآن في دفع هتلر الى خوض الحرب ضد الاتحاد السوفياتي . وهما برفضهما عام ١٩٣٩ الدخول معنا في حلف معاد للهتلرية انما عبرا عن رغبتهما في عدم تقييد ايدي هتلر في عدوانه على الاتحاد السوفياتي ... ولكن شيئا من ذلك لن يتحقق . وسوف يتحتم عليهما ان يدفعا ثمنا غاليا بسبب سياستهما القصيرة النظر » .

« عدت الى فندق موسكو .. وظللت طويلا عاجزا عن الاغفاء تحت تأثير انطباعاتي عن لقائي باعضاء المكتب السياسي » .

« كنت في غاية الانفعال بالمظهر الخارجي لستالين ، وبصورته الخافتة ، ودقته ، وعمق تفكيره ، والمامة بالقضايا العسكرية ، واهتمامه الشديد بالاصغاء الى تقديري » .

الفصل السابع

قيادة القوات الخاصة في منطقة كييف العسكرية

- هتار يوزو لودوبا - ستالين ينادي بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا ضد الفاشية -
بريطانيا وفرنسا ترفضان التحالف -

« كان تعييني قائدا لأكبر منطقة عسكرية يعد بالنسبة
لي شريفا خاصا ، وقد بدلت كل ما في وسعي لكي أبرد
الثقة الفالية بي من جانب اللجنة المركزية والحكومة
السوفياتية » ..

وكان زوكوف سعيدا بانتقاله الى موقعه الجديد لما اشتهرت به
منطقة كييف في اوساط العسكريين السوفيات من تفوق بارز في المستوى
التكتيكي والتدريبي ولوجود عدد من القادة المشهود بكفاءتهم الرفيعة ومن
بينهم يوركاييف ، ياكوفليف ، موزيتشنكو ، كوستنكو ، روبتسيف ،
باجراميان ، بتوخيمد .

وعلى امتداد ١٩٤٠ كان زوكوف قد تفقد جميع القطاعات الخاضعة
لقيادته والتي اسعده انها جميعها قد عبرت من ترحيبها الصادق بمقدمه .
كان صيف وخريف عام ١٩٤٨ تدريبات شاقة في منطقة كييف على

استيعاب الدروس المستخلصة من الحربين اللتين خاضهما الجيش الاحمر ضد اليابان وفنلندا وكذلك من العمليات العسكرية الدائرة في الغرب . ففي هذه الفترة كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة في اوروبا . وكان قد تكون محور « برلين - روما » العدواني كما تكون « الحلف المضاد للكومنترن » بين المانيا واليابان .

ومن طرائف هذه الفترة يروي المارشال زوكسوف كيف رفضت الحكومة البولندية مساعدة الجيش الاحمر ضد التهديد النازي بل كيف اخذت تقيم استحکاماتها وتحشد قواتها على حدودها الشرقية استعدادا لمحاربة الاتحاد السوفياتي ، فاذا بالقوات الهتلرية تجتاحها من الشمال والجنوب والغرب وتستولي بسرعة على مخازن السلاح والذخيرة .

« كيف كانت احوال الجيش الاحمر في هذه المرحلة الحرجة ؟ » .

« في تقريره المطروح على المؤتمر الثامن عشر للحزب قال ستالين في تعهد خطورة الحرب الامبريالية الجديدة ان بلادنا تعمل بلا كلل من اجل المحافظة على السلام ولكنها في الوقت ذاته تقوم بعمل هائل من اجل زيادة الاستعداد القتالي لجيشنا الاحمر والاسطول الحربي ولقد كان الامر كذلك في الواقع .

وبينما كان الاتحاد السوفياتي صادقا الى النهاية في سعيه الى خلق نظام دفاعي من اوروبا بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا . وقد بلغ اخلاص الاتحاد السوفياتي حدا جملة يطرح على البعثتين العسكريتين الفرنسية والبريطانية كثيرا من اسرار الدفاع الوطني ولكن الدولتين لوسلنا الى الاجتماع الثلاثي للوفود العسكرية وفدين لينقلا بصراحة انهما كانا يتألفان من شخصيات من الدرجة الثانية .

« وفي التوجيهات السرية للوفد البريطاني جاء بصراحة ان بريطانيا « لا تريد ان تأخذ على عاتقها اية مسؤوليات محددة » يكون من شأنها ان « تقيد ايديها » وكلف الوفد بان يجري مفاوضات « بمنتهى البطء » وان « يعامل الروس بحذر » وفيما يتعلق بعقد اتفاقية عسكرية ينبغي على الوفد ان « يسمى بقدر المستطاع الى الاكتفاء بالصيغ العامة » .

ويورد المارشال زوكوف في مذكراته النص الرسمي لمحاضر اجتماعات الوفود العسكرية السوفياتية والبريطانية والفرنسية .

في ١٥ آب ١٩٣٩ يقول شايشنيكوف رئيس هيئة اركان حرب القوات المسلحة السوفياتية : « ان الجيش الاحمر في القطاع الاوروبي من

الاتحاد السوفياتي يحشد ويضع تحت تصرف الجبهة لدرا العدوان الفاشي على أوروبا ١٢٠ فرقة مشاة ، ١٦ فرقة مدرعة ، ٥ آلاف وحدة مدفعية ميدان ثقيلة ، من ٩ الى ١٠ آلاف دبابة ، من ٥٠٠ الى ٥٥٠٠ طائرة حربية قاذفة ومقاتلة عدا وسائل النقل الجوي » .

اشتراك روسيا

وهناك ثلاثة احتمالات لاشتراك الاتحاد السوفياتي في الحرب ، وهي كالآتي طبقا لما وافق عليه الوفد السوفياتي في المفاوضات :

اولا : اذا اعتدى الحلف العدواني على بريطانيا وفرنسا ، يقدم الاتحاد السوفياتي ما يعادل ٧٠٪ من القوات التي توجهها بريطانيا وفرنسا ضد العدو الرئيسي - ألمانيا كما يشترك الاسطول السوفياتي في الشمال مع الاسطولين البريطانيين والفرنسي في العمليات التي تجري عند شواطئ فنلندا والترويج خارج المياه الإقليمية للدولتين ، كما يشترك الاسطول السوفياتي بالعمليات في بحر البلطيق وتقوم الغواصات السوفياتية بقطع الطريق على نقل المواد الأولية من السويد الى العدو الرئيسي .

ثانيا : اذا وقع العدوان على بولندا ورومانيا واتفقت بريطانيا وفرنسا مع الدولتين ضحيتي العدوان على مرور القوات السوفياتية بأراضيها ، فان الاتحاد السوفياتي مستعد لتقديم ما يعادل ١٠٠٪ من القوات المسلحة التي تقدمها بريطانيا وفرنسا للقتال ضد ألمانيا مباشرة .. وفيما يتعلق بالمجهود الحربي البحري يتولى الاسطول السوفياتي بالإضافة الى المهام الواردة في الاحتمال الاول ، مسؤولية الحيلولة دون تسلسل اسطول او غواصات العدو الى البحر الاسود .

ثالثا : اذا شن العدو هجومه على الاتحاد السوفياتي عن طريق اراضي استونيا وفنلندا ولائفيا فانه يتحتم على بريطانيا وفرنسا الدخول فورا في الحرب ضد العدو او الحلف العدواني ، وعلى بولندا المتحالفة مع بريطانيا وفرنسا ان تدخل الحرب ضد ألمانيا وتسمح للاتحاد السوفياتي بالمرور في الأراضي البولندية .

وعلى بريطانيا وفرنسا ان تقدم ٧٠٪ من القوات السوفياتية التي سبق التنويه بحشدتها على الحدود الأوروبية للاتحاد السوفياتي . كما يتحتم على القوات البحرية لبريطانيا وفرنسا ان تقوم بالمجهود الحربي كما هو مبين في الاحتمال الاول .

وفي ١٧ آب ١٩٣٩ تكلم لوكيتنوف قائد القوات السوفياتية فذكر

المواصفات الفنية الرئيسية للطائرات السوفياتية ، وتحدث عن امكانيات صناعة الطائرات ، والاستعداد القتالي للقوات ، وعن التنسيق في العمليات بين القوات البرية والبحرية والجوية . وقال ان القوات الجوية السوفياتية لن تجعل من اهدافها ضرب السكان المسلمين .

واخذ الكلمة المارشال بيرنيت فقال : « بودي ان اعبر بالنيابة عن الوفدين البريطاني والفرنسي عن شكرنا للجنرال لوكيتنوف على بيانه الدقيق ولقد تأثرت جدا بالطاقة والتنظيم الذي استطاع الاتحاد السوفياتي بواسطتهما من تحقيق هذه النتائج الباهرة في بناء القوات الجوية » .

ماذا كان يحدث لو ؟

يردّد المؤرخون وكتاب المذكرات طرح السؤال التقليدي : « ماذا لو . . . ؟ » وبالفعل ماذا كان يمكن ان يحدث لو ان بريطانيا وفرنسا قبلتا في ١٩٣٩ اقتراح الاتحاد السوفياتي بتوحيد المجهود الحربي ضد العدوان . لا بد ان مستقبل أوروبا كان سيتحدد على نحو آخر .

في منتصف نيسان دعى المكتب السياسي للحزب الى عقد اجتماع موسع للمجلس « العسكري الاعلى » يحضره كبار القادة لبحث مبادئ اعداد القوات المسلحة على ضوء الاوضاع القائمة . وقد قررت اللجنة المركزية تشكيل لجنة عسكرية خاصة برئاسة جدانوف وفوزنيسينسكي للاشراف على عمل وزارة الدفاع . وبناء على توجيهات اللجنة المركزية « والمجلس العسكري الاعلى » اصدرت وزارة الدفاع قرارا يتعلق « بالاعداد العسكري والسياسي للقوات المسلحة في فترة الصيف من عام ١٩٤٠ » .

كان هذا القرار يعني عمليا اعادة تنظيم القوات المسلحة والعمل السياسي لكي يكون المقاتلون في وضع استعداد دائم ولكي يكون التدريب في روح الحرب الفعلية بكل ما تعنيه من احتمالات .

وفي ٨ ايار ١٩٤٠ عين تيموشنكو وزيرا للدفاع وتعيينه وضع التدريبات في اطار سليم اي طبقا لما سوف يحدث في الحرب واصبحنا نركز على المخابرات والاستفادة الفعالة من ظروف البيئة في الدفاع كما في الهجوم . وبدانا نحرص على اقناع المقاتلين بان الوحدة لا تصبح قوة ترهب العدو الا حين يكون مستوى اعداد الافراد جميعهم عاليا .

« وفي نهاية ايلول ١٩٤٠ تقرر عقد اجتماع لكبار القادة في موسكو

وطلب مني وزير الدفاع ان اعد تقريرا عن « طبيعة العمليات الهجومية الحديثة .. وكان علي ان اقدم تقريري الى وزير الدفاع في اول تشرين الثاني » .

كان هذا الاجتماع اشبه بدورة دراسية على اعلى مستوى فقد كلف كبار القادة باعداد تقارير عن اهم موضوعات الفن العسكري الحديث مثل « طبيعة العمليات الدفاعية الحديثة » ، « القوات الجوية في العمليات الهجومية وفي النضال من اجل السيطرة في الجو » ، « قتال الفرقة المدرعة في الدفاع والهجوم » . والقي رئيس اركان حرب القوات المسلحة السوفياتية تقريرا عن المسائل العامة المتعلقة باعداد الجيش الاحمر للعمليات والمعارك . وفي هذا التقرير اشار بوجه خاص الى الاستعداد غير الكافي لدى المستويات العليا من القادة اركان الحرب . وقد كان ذلك يرجع الى ترقية عدد من الكادرات الشابة التي كانت دون المستوى المطلوب لهذه المناصب القيادية العليا .

وبعد انتهاء الاجتماع كان المفروض ان تجري في اليوم التالي « مباراة عسكرية كبرى » الا اننا قد استدعينا للاجتماع بستالين .

الاجتماع الى ستالين

قابلنا ستالين ببرود الى حد كبير فقد حيانا بايماءة لا تكاد تلاحظ .. ثم دعانا الى الجلوس حول المائدة . وعلى الفور وجه اللوم الى وزير الدفاع لانه فض الاجتماع دون ان يعلم رأي ستالين في الكلمة الختامية التي القاها وزير الدفاع نفسه ، ورد تيموشنكو بانه قد بحث بكلمته الى ستالين وتصور انه قد قراها ولم يجد عليها اعتراضا .

طرح ستالين سؤاله على الحاضرين :

— ومتى تبدأ المباراة العسكرية .

فرد تيموشنكو وزير الدفاع :

— غدا صباحا .

قال ستالين : طيب . اجروا المباراة ولكن لا تعرفوا القادة بعد ذلك .. من الذي يلعب عن الزرق ومن الذي يلعب عن الحمر ؟

— عن الزرق (الغرب) يلعب الفريق اول زوكوف وعن الحمر (الشرق) يلعب الفريق بافلوف .

ومن صباح اليوم التالي بدأت المباراة العسكرية الكبرى في العمليات الاستراتيجية . وكاساس للوضع الاستراتيجي اخذت الاحداث المحتمل وقوعها في حالة هجوم المانيا على الحدود الغربية للاتحاد السوفياتي . وكانت قيادة المباراة لوزير الدفاع تيموشنكو ورئيس هيئة اركان الحرب ميرتسكوف . كان الهجوم من جانب الزرق (الالمان) وكان الحمر (الجيش الاحمر في موقف الدفاع) .

كان الهدف الرئيسي من المباراة فسي العمليات الاستراتيجية هو التحقق من واقعية وجدوى المواقف الاساسية فسي خطة تغطية وتحركات القوات في فترة بداية الحرب .

في الاتجاه الاستراتيجي الغربي كانت الجبهة تمتد من بروسيا الشرقية الى بولسيا اما تشكيل القوات فكان كما يلي : الزرق (الغرب) - اكثر من ٦٠ فرقة ، والحمر (الشرق) اكثر من ٥٠ فرقة . وتجري تحركات القوات البرية مع قوات لتعيم جوية هائلة .

كانت المباراة حافلة بمواقف تراجيدية على جانب الزرق (الشرق) وقد كانت هذه المواقف شبيهة جدا بما حدث فعلا بعد هجوم المانيا الفاشية على الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١ . وباتتهاء المباراة اصدر وزير الدفاع اوامره الى قائدي الجانبين اي انا وبافلوف باجراء تحليل لما حدث مع ابداء الرأي في نقاط القوة والضعف لدى كل من الجانبين .

واقترح ستالين اجراء التحليل في الكرملين حيث وجه الدعوة الى قيادة وزارة الدفاع وهيئة اركان الحرب ، وقواد المناطق العسكرية ورؤساء لمركان حريهم . والى جانب ستالين حضر اعضاء المكتب السياسي . « تولى الفريق اول ميرتسكوف رئيس هيئة اركان الحرب وصف سير المباراة وعندما وصل الى سرد البيانات عن موازين القوى وتفوق الزرق في بداية المباراة وخاصة في البيانات والطائرات ، لم يحتمل ستالين هزيمة الحمر فقاطع ميرتسكوف بقوله :

— لا تنس انه في الحرب ليس التفوق الحسابي هو المهم الوحيد ، وان براعة القادة والقوات ليست اقل اهمية . . وبعد ان ابدى ستالين عدة ملاحظات سال الحاضرين :

— هل من رغب في التعليق ؟

أخذ الكلمة بيموشنكو وزير الدفاع وأعلن عن نمو خبرة قادة المناطق ورؤساء الأركان في العمليات التكتيكية وعن الفائدة المؤكدة من وراء الاجتماع الذي انعقد من وراء إجراء مباريات الاستراتيجية العسكرية .

ثم تكلم الفريق بافلوف وما إن بدأ حديثه بتقييم الاجتماع حتى قاطمه ستالين :

ما هي الأسباب الكامنة وراء التحركات الفاشلة لقوات الجانب الأحمر؟ وحاول بافلوف التخلص من الموقف المخرج بالثأرة الضحك قائلا :

— هكذا يحدث دائما في المباريات الحربية . ولم يستحسن ستالين هذا المزاج فرد بقوله :

— لا بد لقائد المنطقة العسكرية من إتقان الفن العسكري والقدرة على إيجاد الحلول الصحيحة في كافة الظروف . . . وهو ما لم يحدث من جانبك أثناء المباراة . هل من رغب آخر في التعليق ؟

وطلبت أنا الكلمة فطالبت بإجراء مثل هذه المباريات بشكل مستديم لأنها مفيدة جدا في تنمية مستوى الإدراك الاستراتيجي للعمليات لدى كبار القادة . ولا بد لرفع مستوى الثقافة العسكرية لكبار القادة من تنظيم حلقات دراسية ميدانية تحت الإشراف المباشر لوزارة الدفاع وهيئة أركان الحرب .

ثم وجهت انتقادي إلى جعل خط الدفاع الأول على الحدود مباشرة كما هو الحال في بيلوروسيا لأنها في حالة الحرب سوف تتعرض للقصف المباشر المركز مما يعرض الخطوط التالية أيضا للتدمير في بداية الحرب . واعتبر بافلوف انتقاد زوكوف بمثابة هجوم شخصي عليه فرد عليه بمحاولة فاشلة للهجوم المعتاد . واشترك فورشيوف في تبادل الاتهامات مما اضطر زوكوف إلى إنهاء كلمته .

ويقول زوكوف إن أغرب ما شهدته هذا الاجتماع هو الخطاب الذي لقيه المارشال كولييك مساعد وزير الدفاع لشؤون التسليح . فقد طالب برفع تعداد فرق المدافع الرشاشة إلى ١٦ — ١٨ ألف مقاتل ، وطالب بحرق المدافع بواسطة الخيول ، ورغم أن تجربة إسبانيا تؤكد أن الدبابات ينبغي أن تعمل أساسا كأسلحة مساعدة للمشاة على مستوى الوحدات الصغيرة . « ينبغي الاقتراض على تكوين فيالق الدبابات والمدفعات وهنا سخر منه وزير الدفاع قائلا » :

كل الكادرات القيادية للجيش ادركت حتمية الاسراع في تكوين فيالق الدبابات والمدرمعات الا كوليك فهو وحده يلتبس عليه الامر . . . وتدخل ستالين في المناقشة مبديا ادانته لموقف كوليك الذي ينم عن تخلف فكري . ثم انتهى تعليقه قائلا :

— ان النصر في الحرب سوف يكون الى جانب القوات التي تملك دبابات ووحدات ميكانيكية اكثر .

« وفي اليوم التالي لاجراء المباراة استدعيت لمقابلة ستالين وبعد تبادل التحية قال لي ستالين :

— ان المكتب السياسي قد قرر اعفاء ميرتسكوف من منصب رئيس هيئة اركان الحرب وتعيينك بديلا له .

كان يمكن ان اتوقع أي شيء الا هذا ولذلك عجزت عن الرد والتزمت الصمت حينما ثم قلت :

— انا لم اعمل في اركان الحرب في اي يوم من الايام . لقد كنت دائما في قيادة القوات . . . ولا استطيع ان اصبح رئيسا لهيئة اركان الحرب .
— المكتب السياسي قرر تعيينك .

وكان ستالين يضغط بشكل خاص على حروف كلمة « قرر » .
— واذا لم اصلح لرئاسة الاركان فاني ارجو ان يسمح لي بالعودة الى قيادة القوات .

— اذن اتفقنا . . . وغدا يصدر قرار اللجنة المركزية .

وبعد ربع ساعة كنت في مكتب وزير الدفاع الذي استقبلني وهو يتسهم قائلا : علمت كيف رفضت تعيينك . . . فقد اتصل بي ستالين تليفونيا منذ دقائق وروى لي ما حدث بينكما . والان اسرع الى كييف وعد فورا الى موسكو . لا تنتظر حتى يصل القائد الجديد ليتسلم منك قيادة المنطقة .
وفي اول شباط ١٩٤١ تقلدت مهام منصبه الجديد كرئيس لهيئة اركان الحرب .

الفصل الثامن

قبل الحرب الوطنية العظمى

— اصدار قانون التجنيد الاجباري — تيموشنكو لم يكن قادرا على تصحيح الاخطاء — الطيران كان هواية شخصية لستالين — ستالين يقول لولوتوف (على مهلك) — المخابرات الاتاتية توزع خرافات بريطانيا على قواها المسلحة — زوكوف يقول : ساعدت من اخطائي فيما بعد —

« طوال شهر شباط كنت مشغولا بدراسة المسائل المرتبطة مباشرة بنشاط هيئة اركان الحرب .. وكان وقت العمل اليومي يمتد الى ١٥ - ١٦ ساعة . وكثيرا ما كنت اضطر الى المبيت في مكنتي . لا استطيع الادعاء بانني قد اعتدت سريعا على مهام منصبتي في الجوانب الكثيرة التنوع . فقد تمكنت من ذلك بعد فترة وبفضل معاوني المخلصين » .

كيف كان حالنا قبيل الحرب ؟ وهل كانت البلاد والقوات المسلحة مستعدة لمواجهة العدو بما ينبغي ؟

يقول المارشال زوكوف ان تقديم رد موضوعي شاملا هو من شأن العلماء والمؤرخين . واما من جانبه فهو على استعداد لان يدلي برأيه في الجانب العسكري منه ، وعلى قدر الامكان سوف يرسم صورة عامة للاحداث المزعجة التي توات في الشهور والايام الاولى من الحرب ثم يتوقف عند بعض هذه الاحداث بالتفصيل .

يبدأ المارشال تقييمه لهذه الظروف بتناول التنمية الاقتصادية والصناعية التي هي أساس القدرة الدفاعية للبلاد فيقرر بالارقام كيفية تخطي معدلات التنمية في خطتي التنمية الاولى والثانية . وكيف كانت ارقام الانتاج في العام الرابع من الخطة الخمسية الثالثة تعادل من ٨٦٪ الى ٩٠٪ مما هو مفروض ان يتحقق في العام الخامس من الخطة الثالثة اي في نهاية ١٩٤٢ ويقرر ان معدلات نمو الصناعة الثقيلة والحربية بالذات كانت اكثر بكثير مما هو مرسوم في الخطة فبينما كان المعدل العام للنمو الصناعي ١٣٪ كان معدل نمو الصناعة الحربية ٣٩٪ في السنة . ويشير الى الدور الخاص الذي لعبه ستالين شخصيا في الاشراف على الصناعة الحربية .

وفي ايلول ١٩٣٩ اصدر مجلس السوفيات الاعلى قانون التجنيد الاجباري وبمقتضاه اصبح سن الاستدعاء للخدمة ١٩ سنة ، وبالنسبة لخريجي المدارس الثانوية ١٨ سنة واصبحت مدة التجنيد تتراوح ما بين سنتين وخميس سنوات .

كما اتخذت الاجراءات لجعل يوم العمل ٨ ساعات وطوال الايام السبعة من الاسبوع . ووضع نظام جديد للتعليم المهني والحرفي . كما فرضت جزاءات صارمة على الاهمال في العمل . كما اصدر مجلس السوفيات الاعلى قراراته بتقسيم وزارة الانتاج الحربي الى اربع وزارات مستقلة للطيران ، والبحرية ، والدخيرة ، والتسليح وبتقسيم وزارة الصناعة الى ثلاث وزارات للصناعة الثقيلة والمتوسطة والخفيفة ، كما انشأت وزارة جديدة على علاقة وثيقة بخدمة المجهود الحربي (وزارة النقل البري ، ووزارة الانشاءات وغيرها) .

وكانت المسائل العسكرية الكبرى والمبدئية تناقش في المجلس العسكري الاعلى للجيش الاحمر ، وكانت المسائل ذات الاهمية الخاصة تناقش ويبت فيها بحضور ستالين وغيره من اعضاء المكتب السياسي . وصدر تعديد قبيل الحرب لتوزيع الاختصاصات بين كبار المسؤولين من وزارة الدفاع .

« والآن فلنستعرض كيف كانت عليه احوال القوات المسلحة قبيل الحرب مباشرة :

● فيما يتعلق بالمشاة : « طلبت انا والمارشال تيموشنكو وزير الدفاع من ستالين في منتصف اذار ١٩٤٠ الاذن باستدعاء قوات الاحتياطي لفرق المشاة لكي نتمكن في الوقت المناسب من الاعداد لمتطلبات المرحلة . في

البداية رفض ستالين طلبنا . وقيل لنا ان استلما الاحتياطي على هذا النطاق الواسع سوف يعطي للامان مبررا لائسرة الحرب . ولكن المطلب تحقق في نهاية اذار واستدعى فصلا ٥٠٠ الف جندي وصف ضابط تكونت منهم ١٦٠ فرقة .

تقوية السلاح

وبالنسبة للمدفعية : « فانه في الفترة من ١ كانون الثاني ١٩٣٩ الى ٢٢ حزيران ١٩٤١ قدمت الصناعة الحربية للجيش الاحمر ٢٩٦٣٧ مدفع ميدان ، ٥٣٤٠٧ هاون ، وجملة المدافع بما في ذلك مدافع الدبابات ٩٢٥٧٨ » .

« في ربيع ١٩٤١ كنا قد بدأنا في تشكيل ١٠ الوية مدفعية مضادة للدبابات ولكننا حتى حزيران لم تكن قد انتهينا من ذلك .

« وان المارشال كولييك الذي كان مسؤولا امام ستالين عن المسائل المتعلقة بالمدفعية لم يكن دائما يحيط ستالين علما على نحو صحيح بفعالية هذا النوع او ذاك من نماذج تسليح قوات المدفعية » .

« وحتى بداية الحرب لم تكن ادارة سلاح المدفعية تعطى الاهتمام اللائق بقضايا « كاتوشا » النفاثة . فقط في حزيران قررت لجنة الدفاع انتاج هذه القذائف على نحو واسع . وهنا لا بد من الاشادة بجهود العاملين في صناعة هذه القذائف الذين تمكنوا بعملهم النشط المخلص من تزويد القوات بالدفعة الاولى في خلال ١٠ - ١٥ يوما من بداية الحرب .

كان ستالين يعتبر المدفعية اكثر اسلحة الحرب اهمية ويوليها اهمية خاصة وقد كان ستالين على معرفة شخصية وثيقة بوزير التسليح اوستينوف ، ووزير الدخيرة فانيكوف ، وبخبراء تصميم المدفعية وعلى رأسهم الجنرالان ايفانوف وجرايين وكان على ثقة كبيرة بكفاءتهم النادرة .

وفيما يتعلق بسلاحي المهندسين والاشارة والطرق البريدية والسكك الحديدية ففي ١٨ شباط ١٩٤١ ارسل الجنرال بافلوف قائد المنطقة العسكرية الغربية تقريرا الى ستالين ومولوتوف ويموشنكو قال فيه : « انني ارى ضرورة اعداد المسرح الغربى للعمليات الحربية في خلال عام ١٩٤١ ولذلك فلا يجوز ابدأ تأجيل انشاء شبكة الطرق والسكك الحديدية لمدة عدة سنوات » .

كذلك ففي تقريره اشار الجنرال جايتش قائد سلاح الاشارة الى نقص وسائل الاتصال الحديثة كما اشار الى عدم احتياطي كاف من وسائل

الاتصال . وكان واضحا من تقريره ان معدلات تزويد القوات بشبكات الاتصال اللاسلكي منخفضة جدا وتراوح ما بين ٢٧٪ وبين ٥٢٪ كما ان القوات ليست مدربة على استخدامها في وقت الحرب تدريبا كافيا . ولم يكن هناك على الاطلاق خطوط تحت الارض للاتصال لكي تستغل في قيادة المعارك الاستراتيجية .

ولكن وزير الدفاع تيموشنكو كان غير قادر على تصحيح الوضع . ولا يرجع ذلك الى تقصيره او عدم رغبته في بذل مزيد من الجهد ولكن لانه قد فعل الكثير بالفعل طوال عام ١٩٤٠ دون ان يتمكن من انجاز المطلوب على الوجه الاكمل وقد قال وزير الدفاع في هذا الصدد :

« انا اتفق معكم في تقدير الموقف ولكنني اعتقد انه يكاد يكون من المستحيل تغييره على نحو جدي لكي يمكن تلافي جميع اوجه النقص . لقد كنت بالامس لدى ستالين . وهو قد تسلم تقرير بافلوف وامر باخباره بانه على الرغم من عدالة جميع مطالبه فليست لدينا الآن امكانيات تحقيقها » .

وفيما يتعلق بالقوات الجوية : فقد سبق ان اشرت الى الاهتمام الكبير من جانب الحزب والحكومة بتطوير القوات الجوية وتنمية صناعة الطائرات وابتكار نماذج اكثر فعالية . ويكفي انه في الفترة من ١ شباط ١٩٣٩ الى ٢٢ حزيران ١٩٤٤ تسلمت القوات الجوية من صناعة الطائرات ١٧٧٥٤ طائرة حربية من بينها ٣٧١٩ طائرة من النماذج الحديثة .

كان ستالين يكرس كثيرا من الوقت والاهتمام بمصممي الطائرات حتى انني استطيع القول بان الطيران كان الى حد ما هواية شخصية لستالين . ومع ذلك فقد كانت صناعة الطائرات متخلفة عن احتياجات المرحلة . ويمكن القول بان ٧٥ - ٨٠٪ من القوة الجوية السوفياتية كان من النماذج العتيقة التي تتخلف كثيرا عن الطراز الموحدة الموجود لدى المانيا الفاشية .

وقد تقرر في اول ١٩٤١ اجراء تعديلات كبرى على انتاج الطائرات وتنظيم التشكيلات الجوية كما رأى التوسع الهائل في انشاء المطارات واعداد الطيارين . ولكن الحرب كانت قد نشبت قبل انجاز كل هذه المشروعات .

كذلك فلم يكن الطيارون قد تدربوا بما فيه الكفاية على النماذج الحديثة وخاصة على القتال الليلي . وبعد عام ونصف من الحرب كانت القوات الجوية السوفياتية في عمرة النضال قد اكتسبت مظهرا جديدا وقويا .

وبالنسبة لقوات الدفاع الجوي :

بناء على اقتراحنا قررت اللجنة المركزية والحكومة دعم قوات الدفاع الجوي بوحدات من الطائرات المقاتلة لتقوية الدفاع عن موسكو وليننجراد .
ولقد لعبت هذه الوحدات كما هو معروف دورا عظيما في صد الهجمات الجوية للوقت الفاشية .

وحتى بداية الحرب لم تكن قوات الدفاع الجوي قد استكملت بعد تسليحها الحديث ولم تكن قد وصلت من ناحية الكم والكيف الى القدرة القتالية المنشودة .

وبالنسبة للقوات البحرية : كان العدد الكلي للسفن الحربية ٦٠٠ قطعة من بينها ٢١١ غواصة ، ٢٧٩ زورق طوربيد هذا بالإضافة الى اكثر من ١٠٠٠ وحدة مدفعية سواحل ، واكثر من ٢٥٠٠ طائرة .

ولم يوجه الاهتمام اللائق بالدفاع الجوي وبالمدفعية الساحلية . ولقد اخطأت وزارة البحرية خطأ جسيما في عدم تقدير اهمية الاسطول الشمالي الذي قدر له ان يلعب دورا بالغ الخطورة .

« وعلى العموم فان القوات البحرية كانت في حالة توحى بالثقة وقد واجهت العدو بشكل مشرف » .

« واخلصا للتاريخ فاني اقرر ان ستالين عند مناقشة المسائل المتعلقة بالقوات البحرية لم يكن يوجه الدعوة لوزير الدفاع تيموشنكو لحضور المناقشة ولا لرئيس هيئة اركان الحرب » (المارشال زوكوف) .

« ويشهد نمو تعداد القوات المسلحة في الفترة من ١٩٣٩ الى ١٩٤١ بمعدل ٢٨٠ ٪ على الاهتمام الكبير بدعم الدفاع الوطني من جانب الحزب والحكومة » .

ويشير المارشال زوكوف الى ان نشر الثقافة العسكرية والتدريب على القتال بين المواطنين وخاصة الشباب قد لعب في اثناء الحرب دورا تاريخيا .

ثم يقول ان مستوى الدراسة في الاكاديميات العسكرية التي كانت خاضعة لاشرافه المباشر كانت على مستوى رفيع ومواكب لمطلبات وخصائص الحرب الحديثة وان المعلمين كانوا يؤكدون ان الحرب الحديثة قد اصبحت تجري دون سابق اعلان فالعدو يفضل استغلال عنصر المفاجأة ، وان القوات المتحاربة قد اصبحت تفضل الدخول في المعارك التكتيكية والاستراتيجية بقواتها الرئيسية منذ البداية ، وان الحرب بطبيعتها لا بد ان تكون قاسية ومريرة وقد تطول مما يتطلب تعبئة كافة قوى الشعب

وتنسيق النضال على جبهة القتال مع النضال الباسل على الجبهة الداخلية .
» وعموما فقد كانت النظرية العسكرية على مستوى العصر الا ان
التطبيق كان متخلفا عن النظرية الى نحو مشهود .

درس الموقف

كنت بعد دراسة الموقف من الناحية التكتيكية والاستراتيجية قد
توصلت الى انه بالنسبة لبلاد عملاقة كبلادنا تصيح مسألة الدفاع عملية
ذات جوانب سلبية كبيرة . وقد اخبرني معاوني في هيئة الاركان بان
خلفائي في المنصب كان لهم نفس الراي .

وكان حشد القوات الفاشية في بروسيا الشرقية وبولندا والبلقان
يشير فينا قلقا خاصا لا سيما وان الاستعداد القتالي لقواتنا المسلحة في
المناطق العسكرية الغربية لم يكن مطمئنا ، كما كان تخلف امكانيات الصناعة
عن تلبية احتياجات الاستعداد للحرب يشير انزعاجنا وعندما ناقشت وزير
الدفاع في هذه الامور قال لي :

القيادة تعرف ذلك جيدا ولكن الدولة غير قادرة على اعطاء المزيد .

وذاذ يوم استدعاني تيموشنكو وقال لي انه كان بالامس لدى
ستالين الذي طلب منه ابلافي بالثول امامه لتقديم تقرير عن الموقف .
وطلب مني ان اكون مستعدا فاستفرت منه عما ينبغي ان استعد له
فقال :

— كن مستعدا لكل شيء . ولكن تذكر انه لن يسمح لك بتقرير
مطول . فما تعرضه علي في ساعات ينبغي ان يعرض عليه في عشر دقائق .
— وما الذي استطيع عرضه في عشر دقائق والامور كلها في غاية
الاهمية ، وتحتاج الى اهتمام جدي لاتخاذ القرارات الحكومية المناسبة .

وفي مساء السبت توجهت لمقابلة ستالين في مقره الريفي فوجدت
عنده المارشال تيموشنكو والمارشال كولييك وبعض اعضاء المكتب السياسي
وبعد تبادل التحية بادرني ستالين بالسؤال :

— هل انت على معرفة بالقذائف النفائة من طراز كاثوشا .

— سمعت بها فقط لكنني لم ارها .

— اذن عليك في الايام القليلة القادمة ان تذهب برفقة تيموشنكو
وكولييك وابورينكوف لمشاهدة اطلاقها . والان حدثنا عن اعمال هيئة اركان
الحرب وحدثته بما سبق ان عرضته على وزير الدفاع لم قلت :

— نظرا لخطورة الوضع السياسي العسكري ارى من الضروري اتخاذ الاجراءات العاجلة لكي نتلافى في الوقت المناسب تلك السلبات في الدفاع عن الحدود الغربية وفي اعداد القوات المسلحة للقتال .
قاطمني مولوتوف :

الطعام مع ستالين

— ما الذي تعنيه . . افي تصورك اننا سوف نخوض الحرب ضد
الامان ؟

— على مهلك .

اوقف ستالين اندفاع مولوتوف .

وبعد استماع ستالين الى تقريرى دعانا الى الغداء حيث استمر الحديث يدور متقطعا . وسالني ستالين عن تقديري للقوات الجوية الالمانية . فقلت له ما كان في تصوري :

— لدى الامان قوات جوية غير سيئة فاطقم الطيارين قد تلقت تدريباً قتاليا راقيا على التعاون مع القوات البرية . وفيما يتعلق بالجانب المادي فان طائراتنا المقاتلة الحديثة الطراز ليست اسوأ في شيء على الاطلاق من طائراتهم . كذلك فالطائرات القاذفة ليست دون مثيلاتها الالمانية بل اعتقد انها افضل منها . المؤسف فقط ان عددها لا يزال قليلا جدا .

تدخل تيموشنكو في الحديث قائلا : الطائرات المقاتلة بالذات قليلة جدا ولست اذكر من الذي تهجم على وزير الدفاع بقوله :

— سرجي كونستنتينوفيتش (تيموشنكو) يركز تفكيره في الطيران الدفاعي . لم يرد وزير الدفاع بشيء . واعتقد انه ببساطة لم يسمع التعليق نظرا لضعف حاسة السمع لديه .

كان الغداء بسيطا للغاية . فالطبق الاول شوربة « بورش » اوكرانية والطبق الثاني جريشكا مع كمية كبيرة من اللحم واخيرا بعض الفواكه مع كوب من الكمبون . كان ستالين في حالة نفسية طيبة . يمزح كثيرا ويشرب نبيدا من صنع جورجيا (بلد ستالين وهي مشهورة باجود انواع النبيذ في الاتحاد السوفياتي) .

وفي نهاية اللقاء قال ستالين : يجب التفكير جيدا في اعداد المسائل التي تقدم للحكومة لاختلاف قرارات بصدها مع اظهار اولويات المسائل المعروضة للبحث . ولكن ينبغي الانطلاق في ذلك من امكانياتنا الواقعية دون الجنوح الى الخيال فيما يتعلق بما نحن الآن عاجزون عن تحقيقه .

قبيل الحرب مباشرة كانت في هيئة اركان الحرب مجموعة متعاونة ومتجانسة من الجنرالات والضباط الواسعي المعرفة والخبرة . كانت هيئة الاركان تضطلع باعباء جسيمة في مجال العمليات والتنظيم والتعبئة وفي وقت السلم كانت الهيئة هي الجهاز الرئيسي لوزارة الدفاع، وفي وقت الحرب كان عليها ان تصبح الجهاز الرئيسي للقيادة العليا . ولقد كان هناك تقصير في اعداد مواقع قيادة تتناسب مع ظروف الحرب .

هذا بالنسبة للقيادة العليا كما بالنسبة لوزارة الدفاع ورئاسة الاركان، وقادة اسلحة وادارات ومناطق القوات المسلحة .

كذلك فقد التغيير المتلاحق في منصب رئيس هيئة اركان الحرب - الذي تولاها اربعة رؤساء في مدى خمس سنوات - عاملا اساسيا في عدم التمكن من الدراسة الالعميقة لامكانيات الدفاع واحتمالات تطويرها في حالة الحرب .

ويزعم الآن بعض المؤرخين وكتاب المذكرات انه قبيل الحرب لم تكن لدينا خطط تعبئة القوات المسلحة وخطط الانتشار الاستراتيجي للوحدات المقاتلة . وليس لهذه المزاعم اساس من الصحة .

« ولقد كان من الاخطاء الاستراتيجية ان المصدر الرئيسي للخطر كان يعتبر الاتجاه الجنوبي الغربي اي اوكرانيا وليس بيلوروسيا . هذا بينما كانت القيادة العليا الالمانية قد حشدت في اتجاه بيلوروسيا اضخم مجموعاتها البرية والجوية . وقد كان لهذا التصور الخاطئ تأثيره السيئ على سير الاحداث في بداية الحرب اذ ارغمت قوات الجيش التاسع عشر وبعض وحدات الجيش السادس عشر على الاشتباك في القتال بمجرد وصولها من اوكرانيا للحم قواتنا المتمركزة في بيلوروسيا وذلك قبل ان تتخذ مواقعها القتالية » .

« كان من رأي وزير الدفاع وهيئة اركان الحرب وانا شخصا انه لا بد من جعل قواعد الامدادات قريبة من مواقع القوات . كان هذا يبدو صحيحا لكن الواقع اثبت انه كان خطأ وقعنا فيه جميعا . ذلك ان العدو في بداية الحرب استطاع بعد فترة قصيرة ان يستولي على هذه القواعد مما خلق صعوبة في امداد القوات وتكوين الاحتياطيات .

« ولقد كان من تصوراتنا الخاطئة كذلك ان اعتبرنا ان القوات الرئيسية لدولتين كبيرتين كالمانيا والاتحاد السوفياتي يمكن ان تشتبك في القتال بعد بضعة ايام من المعارك الدائرة في المناطق المتاخمة للحدود » .

ولقد كنا كذلك نخطئ إذا ساوينا بين الألمان وبيننا في الوقت اللازم لتحرير وتحريك القوات . فقد أظهر الواقع انه لم تكن هناك مساواة على الإطلاق في القوى والظروف » .

ثم ينتقل المارشال زوكوف الى استعراض القوة الاقتصادية والعسكرية الهامة لألمانيا الفاشية خاصة بعد اجتياحها أوروبا والاستيلاء على مصادر الطاقة والوقود والمواد الأولية .

« وطبقا لتقرير رئيس المخابرات العسكرية الجنرال جوليكون بتاريخ ايار ١٩٤١ كانت الحشود الألمانية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي تبلغ من ١٠٣ الى ١٠٧ فرق » .

« ولقد كنا نبليغ ستالين على الفور بالمعلومات التي يقدمها رئيس ادارة المخابرات . ولست ادري ما هي بالذات المعلومات التي كان الجنرال جوليكون يقدمها الى ستالين شخصا » .

الاطباء الروسية

« في حزيران ١٩٤١ كان تعداد القوات المسلحة الألمانية يبلغ ٨ مليون جندي اما عندنا فقد كان تعداد القوات المسلحة بما في ذلك المجندون الجدد يبلغ قرابة ٥ مليون جندي » .

« كان هتلر يرى ان الوقت قد حان للهجوم على الاتحاد السوفياتي ، وكان يلح في التعجيل بهذا الهجوم . ولم يكن الحاحه بلا اساس .. وفقط في الفترة من ٢٥ ايار الى منتصف حزيران دفعت ألمانيا الى الحدود السوفياتية بسبع وأربعين فرقة من بينها ٢٨ فرقة دبابات وآليات » .

« ولقد احطنا ستالين علما بأن قواتنا الموجودة في مناطق البلطيق وكييف واوديسا والمنطقة الغربية لن تكون كافية لصد هجوم القوات الألمانية » .

وفي ايار ١٩٤١ اصدرنا التعليمات الى بعض القوات المتمركزة في الداخل بأن تتوجه الى مناطق الحدود وقد تم بالفعل تحريك ٢٨ فرقة . اعتقد ان الأوان قد آن للتحديث من الخطأ الرئيسي في ذلك الوقت .. الخطأ الذي تربت عليه بطبيعة الحال اخطاء أخرى كثيرة .. عن الفشل في تحديد موعد وقوع الهجوم النازي الألماني .

جاء في خطة عمليات ١٩٤٠ التي كانت تسري عام ١٩٤١ بعد ادخال التعديلات عليها انه في حالة الحرب لا بد فوراً من :
- وضع القوات المسلحة في حالة الاستعداد الكامل .

- اعلان التعبئة العسكرية على نطاق البلاد كلها .
 - استكمال تعداد القوات طبقا لما هو وارد في خطة التعبئة .
 - حشد وتحريك القوات المعبأة في مناطق الحدود الغربية طبقا
 لخطط المناطق العسكرية والقيادة العسكرية العليا .
 وهنا يثار سؤال : لماذا لم تقم القيادة برئاسة ستالين بتنفيذ
 الاجراءات التي وضعتها وقررتها هي بنفسها في خطة العمليات الحربية ؟
 غالبا ما يدان ستالين على هذه الاخطاء وسوء التقدير . بالطبع كانت
 لستالين اخطائه . ولكن . . لا يجوز البحث عن اسباب هذه الاخطاء بمزمل
 من الظواهر والظروف الموضوعية التاريخية ، عن جملة العوامل السياسية
 والاقتصادية مجتمعة . وبعد ان تتضح كل النتائج فليس اسهل من
 الرجوع الى بداية الاحداث واعطاء مختلف الوان التقييم . وليس اصعب
 من محاولة تفهم كل هذه العوامل المتداخلة ، والقوى المتصارعة والآراء
 والمعلومات والوقائع المتناقضة في الفترة التاريخية المعينة .
 وبمقارنة وتحليل جميع الاحداث التي ادلى بها ستالين في حضوري
 وبين المقربين اليه ، توصلت الى اعتقاد راسخ : لقد كانت افكاره واعماله
 كلها متأثرة برغبة واحدة هي تفادي الحرب . ولقد كان واثقا من ان ذلك
 سوف يتأني له .
 لقد كان ستالين يفهم جيدا ما هي الكوارث القاسية التي يمكن ان
 تلحق بشعب الاتحاد السوفياتي اذا وقعت الحرب مع عدو قوي ومحنك
 مثل المانيا الفاشية . ولهذا فقد سعى شانه في ذلك شأن حزبنا كله الى
 تفادي الحرب .
 تحت انظارنا الآن ، وخاصة في الاعلانات المتاحة على اوسع نطاق ،
 حقائق في معظمها تحذر من وقوع العدوان على الاتحاد السوفياتي وعن
 حشد القوات الفاشية على حدودنا ، . . ولكن الوثائق ، التي لوحظت
 بعد قهر المانيا الفاشية ، تؤكد انه في تلك الفترة ، كانت توضع على مكتب
 ستالين اخباريات كثيرة من نوع مختلف تماما . واليكم اسوق المثل الاتي :
 بناء على توجيهات هتلر في الاجتماع المنعقد بتاريخ ٣ شباط ١٩٤١ ،
 اصدر الفيلد مارشال كيتيل رئيس اركان حرب القيادة العليا بتاريخ ١٥
 شباط ١٩٤١ امرا خاصا « بتضليل العدو » . ولتغطية عملية بارباروس
 قام قسم المخابرات ومكافحة الجاسوسية التابع لهيئة الاركان العليا
 « بتخطيط » وتنفيذ عدة اعمال تهدف الى نشر اشاعات ومعلومات كاذبة .
 فتحريك القوات نحو الشرق كان يصدر على انه « اكبر عملية خداع في

التاريخ الهدف منها تحويل الانظار عن الترتيبات النهائية لغزو بريطانيا .
وزيادة في التمويه نشطت المطابع الالمانية فسي اصدار نشرات عن
طوبوغرافية بريطانية لتوزيعها على القوات ، كما ارسلت مجموعة هائلة من
الترجمين الى اللغة الانكليزية ، واعدت خططا للاستيلاء على مناطق على
مضيق المانش ، واشيعت معلومات عن « فيلق المظلات » المتأهب للغزو .
واقامت على الساحل بطاريات صواريخ وهمية . وانتشرت بين القوات
اخبار عن أنهم يذهبون الى الشرق للراحة قبل بدء الهجوم على بريطانيا كما
الحدود ايضا أنهم يحتشدون على الحدود السوفياتية تمهيدا للمرور عبر
اراضي الاتحاد السوفياتي الى الهند . ولتأكيد هذه الفكرة وضمت بالفعل
خطط خاصة تحت اسماء سرية « اكولا » و « جاربون » وسلطت الدعاية
النازية في هذا الوقت هجوما على بريطانيا بينما لجأت الى مهاجمة الاتحاد
السوفياتي . وفي هذه العملية اشترك الدبلوماسيون .. وخلافه .
« مثل هذه المعلومات بالاضافة الى انخفاض مستوى الاستعداد
للقتال في القوات المسلحة السوفياتية هو الذي جعل ستالين يبدي حذرا
شديدا ازاء تنفيذ الاجراءات التي تقتضيها خطط التعبئة والعمليات
استعدادا للتصدي للهجوم المحتمل » .

ستالين والحرب

وكان ستالين كذلك يدرك ان التغييرات التي طرأت مؤخرا على تنظيم
القوات المسلحة قد ادت الى وجود عجز لا يستهان به من القادة في مواقع
لا تؤهلهم لها خبرتهم القتالية . وقد كانت كل الجهود توجه الى تصحيح
هذه الاوضاع في نهاية ١٩٤١ .

« كان ستالين حريصا على السلام كشرط اساسي لبناء الاشتراكية
في الاتحاد السوفياتي . وكان يعتقد ان حكومات بريطانيا والولايات المتحدة
وغيرهما من الدول الغربية ترغب في الخروج من الوضع العسكري
الصعب ، وانقاذ انفسهم من الكارثة وذلك بالعمل بكل وسيلة على دفع
المانيا الى خوض الحرب ضد الاتحاد السوفياتي . ولهذا كان ستالين ينظر
بريبة بالغلة الى اخباريات الحكومة الغربية عن تأهب المانيا للحرب ضد
الاتحاد السوفياتي » .

ويسوق المارشال زوكوف عددا من الامثلة التي جعلت ستالين
يشك كثيرا في صدق المعلومات الواردة عن طريق الحكومات الغربية .
« وفيما يتعلق بمعاهدة عدم الاعتداء بين المانيا والاتحاد السوفياتي

فليس هناك اساس للزعم بان ستالين قد كان يثق في جديته . ولقد وقع في ظروف كان لا يجوز فيها ان يعرض الاتحاد السوفياتي نفسه لخطر الهجوم عليه من جانب المانيا ومن جانب اليابان في وقت واحد . وعلى اي حال فانا شخصا لم يحدث قط ان سمعت من ستالين ما يوحى باطمئنانه الى معاهدة عدم الاعتداء » .

« وفي خطاب في الاحتفال بتخريج دفعة جديدة من الاكاديمية العسكرية قال ستالين في ٥ ايار ١٩٤١ : صحيح ان المانيا لديها افضل جيش من ناحية التكتيك . كما من ناحية التنظيم . ولكن الالمان واهمون في تصورهم ان جيشهم جيش مثالي وانه لا يقهر . ليست هناك جيوش لا تقهر ان المانيا لن يكتب لها النصر تحت شعارات حروب الغزو والاغتصاب، تحت شعار اذلال الشعوب واخضاع الدول والحكومات . . ولا بد علينا من اعادة تنظيم دعاتنا وصحافتنا وسياستنا الاعلامية . ان الاستعداد للحرب جيدا لا يعني فقط بناء جيش عصري وانما يعني كذلك التعبئة السياسية » . ويقول المارشال زوكوف : « ان الحزب والشعب قد اعدا البلاد للدفاع في اللحظات الحاسمة . واني لا اقول هذا تهريا من المسؤولية عن اخطاء تلك المرحلة فالذي يهمني هو ان اساعد في رسم صورة حقيقية لما حدث » .

الاخبار السرية

نتنشر الآن مزامم كثيرة عما اذا كنا قد علمنا على التحديد بخطة الهجوم ويوم بداية التنفيذ .

انا لا استطيع ان اقطع بما اذا كان ستالين قد احيط علما بذلك ام لا . وهل حقا اخبر بيوم الهجوم ام لا . فالحقائق الهامة التي كان ستالين يتلقاها بنفسه لم يكن يقولها لي . الا انه حقا قد قال لي ذات مرة : هناك شخص يمدنا بمعلومات هامة جدا عن نوايا حكومة هتلر لكن لدينا بعض الشكوك فيها .

ربما كان ستالين يعني بذلك الشخص ريخارد زورج الذي عرفت قصته بعد الحرب فقط » .

وبهذه المناسبة اود ان اقول اننا كثيرا ما كنا نتلقى معلومات قيمة بالفعل لكننا كذلك كثيرا ما كنا نخطئ استخلاص النتائج منها فعلى سبيل المثال قدم الجنرال جوليوف مديبر المخابرات تقريرا قيما يصف فيه احتمالات خطة الهجوم الالمانى ويحدد للهجوم ميعادا ما بين ١٥ ايار

و ١٥ حزيران . ولقد جاء الهجوم بالفعل في الميعاد وعلى النحو المذكور لكن الجنرال جوليكوف أنهى تقريره حينذاك بقوله :

« ولا بد من اعتبار هذه المعلومات والوثائق بمثابة تضليل صادر عن المخابرات البريطانية وربما عن المخابرات الألمانية ذاتها » .

وفي ٦ أيار ١٩٤١ أرسل وزير البحرية الأدميرال كوزنتسوف تقريراً الى ستالين بنفس المعنى السابق وفي الختام قال الأدميرال : « واعتقد أن هذه المعلومات كاذبة ومختلفة بدافع تحسس رد فعل الاتحاد السوفياتي » .

وفي ١٣ حزيران اتصل تيموشنكو بـ ستالين في حضوره وطلب منه الإذن بأعطاء الأمر بوضع القوات على الحدود في وضع الاستعداد للقتال فرد ستالين : سوف نفكر في ذلك .

وفي اليوم التالي ذهب تيموشنكو الى ستالين وأخبرناه بالقلق الشديد في المناطق العسكرية المتاخمة للحدود وطلبنا منه الإذن بإعلان حالة الاستعداد القصوى فرد ستالين : انما تقترحان إعلان حالة الطوارئ ، وتحريك القوات فوراً نحو الحدود ، تلك هي الحرب ! فهل يفهم كل منكم هذا أم لا ؟

الا ان ستالين بدأ معنا حواراً حول الموقف : ما عدد الفرق الموجودة في هذه المناطق ؟

— ١٤٩ فرقة ، ولواء مدفعية خفيفة .

— وهل هذا قليل . ان الألمان طبقاً لمعلوماتنا ليس لديهم هذا القدر من القوات .

— تقارير المخابرات تفيد بان الفرقة الألمانية الواحدة تعدادها حوالي ضعف تعداد الفرقة السوفياتية .

— لا ينبغي تصديق المخابرات على الدوام . .

وفي هذه الأثناء دخل سكرتير ستالين وأخبره بان نيكيتا خروشوف يتصل به من كييف . رفع ستالين السماعة . ومن الأجابات أدركنا ان الحديث يدور حول الزراعة .

— طيب . . . انهي ستالين المحادثة بهذه الكلمة ويبدو ان خروشوف كان يعطيه صورة وردية عن المحصول القادم .

خرجت من الكرملين في حالة نفسية سيئة ووددت ان انزله قليلاً وفي حديقة الكسندر كان الأطفال يمرحون بشقاوة فتذكرت طفولتي وداهمني شعور حاد بالمسؤولية الكبرى التي تقع على عاتقنا نحن جميعاً ازاء الأطفال . . ازاء مستقبلهم ومستقبل البلاد .

وفي مساء ٢١ حزيران اتصل بي تليفونيا رئيس اركان منطقة كيف واخبرني بان جاويشا المانيا قد هرب من قواته وسلم نفسه الى قوات الحدود واعلن انهم يستعدون - اي الالمان - لشن الهجوم صباح ٢٢ حزيران. على الفور اخبرت بذلك وزير الدفاع وستالين الذي استدعاني ووزير الدفاع الى مكتبه بالكرملين .

وفي الطريق اتفقت مع الوزير ومساعدني الجنرال فاتوتين على الحصول بأي وسيلة على موافقة ستالين على اعلان حالة الاستعداد القصوى في القوات المسلحة استقبلنا ستالين وحده وكان يبدو متوترا . الا يجوز ان الجنرالات الالمان قد ارسلوا هذا الجندي لكي يتسبب في الثورة الصدام المسلح ؟ هكذا بادرننا ستالين بالسؤال فرد لميه ييموشنكو :

- لا . نحن نرى ان الجندي الهارب يقول الحق .

في تلك اللحظة دخل اعضاء المكتب السياسي فطرح عليهم ستالين السؤال التالي :

- وما العمل ؟

لم يرد احد .

وهنا قال وزير الدفاع : ينبغي فوراً اصدار توجيه الى قوات مناطق الحدود باتخاذ وضع الاستعداد الكامل للقتال .
فقال ستالين : اقرا مشروع التوجيه .

قرا زوكوف مشروع التوجيه فطلب ستالين اختصاره ثم اقره .
وفي الدقيقة الثلاثين من صباح ٢٢ حزيران تم ابلاغ التوجيه الى المناطق العسكرية المختصة .

ويصف المارشال زوكوف شعوره بعد عودته من اللقاء الاخير بـستالين قبل نشوب الحرب بانه كان « شعورا عجيبا وغريبا ومزدوجا » فهو من جانب يحس بنوع من الرضا لانه بلل كل ما في وسعه من اجل تدعيم الدفاع الوطني وهو من جانب آخر يحس بقلق شديد لان هجوم الالمان قد يبدأ قبل ان يصل التوجيه الى الجبهة . وان كثيرا من الاعمال التي ينبغي اداؤها قبل نشوب القتال قد يكون ولي اوانها .

« كان الظلام قد خيم منذ وقت طويل ، وكان يوم ٢١ يوشك ان يطويه التاريخ ، وكنت امضي اتا وييموشنكو وزير الدفاع صامتين الى مقر وزارة الدفاع . ولكنني كنت واقفا من ان هذه التأملات ترهق فكرر ييموشنكو هو الآخر . ونزلنا من السيارة بعد ان اتفقنا على اللقاء في مكتب وزير الدفاع بعد عشر دقائق » .

الفصل التاسع

بداية الحرب

- الآن .. بدأت الحرب .. - ستالين يستدعي الكتب السياسي - العدو يهاجم بكل قوة ..
- الجيش الثامن ينسحب ويتبعه الجيش العادي عشر .

في منتصف ليلة ٢١ حزيران اتصل بي قائد منطقة
كييف واخبرني بان جنديا المانيا ناتيا من الكتيبة ٢٢٢ التابعة
لفرقة المشاة ٧٤ الالمانية قد عبر النهر سيحاحا وتقدم من
حرس الحدود واخبرهم بان القوات الالمانية سوف تبدأ
الهجوم في تمام الرابعة صباحا .

بعد موت ستالين ظهرت ادعاءات بان الهجوم قد
فاجأ بعض القواد ورؤساء الأركان وهم ينامون في سلام او
يلهون بلا اكتراث . وذلك تجنبيا على الحقيقة . فقد كانت
ليلة السلام الاخيرة ليلة مشهودة حافلة بالعمل المصني .

وفي الساعة الثالثة والدقيقة السابعة عشرة صباحا اتصل بي قائد
اسطول البحر الاسود الادميرال اکتيا برسكي واخبرني بان طائرات مجهولة
كثيرة العدد تقترب من اتجاه البحر . وفي الثالثة والنصف اتصل بي
الجنرال ليموفسكي رئيس اركان المنطقة الغربية وافلاني بان الطائرات

الالمانية قد افارت على مدن بيلوروسيا وبعد عشر دقائق افادني الجنرال بوركايف رئيس اركان منطقة كييف بان الالمان قد قاموا بهجوم جوي على مدن اوكرانيا .

وامرني وزير الدفاع بالاتصال بستالين وكان نائما فجاءني على النليفون بعد ٣ دقائق واحطته علما بالموقف وطلبت منه السماح بالامر بدء العمليات المضادة فالتزم ستالين الصمت لكن انفاسه كانت تصل الى سمعي .

— هل فهمتني ؟

مرة ثانية لا شيء غير الصمت . ثم اخيرا سألني ستالين :

— واين الوزير ؟

— يتصل بكيف .

— احضر وتيموشنكو الى الكرملين واطلب من يوسكوبيشيف استدعاء جميع اعضاء المكتب السياسي فورا .

ثم اتصل بي الاميرال اکتيايرسكي ثانية .

— تم صد الهجوم الجوي للعدو . فشلت محاولة ضرب السفن . لكن المدينة اصابها بعض التدمير .

واحب ان اشير الى ان قوات اسطول البحر الاسود كانت في طليعة وحداتنا التي واجهت هجوم العدو بمقاومة منظمة .

وفي الرابعة وعشر دقائق بدأ الهجوم البري فسي منطقة البلطيق العسكرية .

وفي الرابعة والنصف دخلت وتيموشنكو مكتب ستالين الذي كان يجلس الى المائدة شاحب اللون يدخن غليونه ومن حوله جميع اعضاء المكتب السياسي .

المقاومة الروسية

قال ستالين : يجب الاتصال فورا بالسفارة الالمانية . وكلف مولوتوف باستقبال السفير الذي افاده بان المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفياتي . غاص ستالين في مقعده واستغرق في تفكير عميق . وساد الجو صمت طويل وثقيل حتى غامرت انا بتبديده قائلا : لا بد من الدخول في المعركة بكل ما نملك من قوة وايقاف العدو عن مواصلة التوغل .

فصاح وزير الدفاع تعبيرى بقوله : ليس ايقافه .. بل تدميره .
واتضح فيما بعد ان العدو بمساعدة المتسللين والعملاء قد استطاع

تدمير خطوط الاتصال السلبي . ولقد سبق ان اشرت الى ان وسائل الاتصال اللاسلكي لم تكن متوفرة لدى جميع قوات مناطق الحدود . نسّم بدات ترد الى رئاسة اركان المناطق معلومات متناقضة من مصادر مختلفة وكان لبعضها طابع تخريبي . كذلك فان رئاسة هيئة الاركان لم تتمكن من الحصول على معلومات حقيقية من المناطق مما وضع هيئة اركان الحرب والقيادة العليا في موقف حرج .

وتكونت القيادة العليا على النحو التالي : تيموشنكو رئيسا ، زوكوف ، ستالين ، مولوتوف ، فورشيلاف ، بوديوني ، كوزنتسوف . وجدير بالذكر ان هيئة الاركان كانت قد اقترحت تعيين ستالين رئيسا . فالواقع ان ستالين كان لا يمكن الا ان يكون رئيسا للقيادة العليا . فالوضع الجديد قد خلق ازدواجية كان لها تاثيرها السلبي اذ اصبح تيموشنكو الرئيس القانوني بينما ظل ستالين الرئيس الفعلي .

وفي الساعة ١٣ يوم ٢٢ حزيران اتصل بي ستالين . وقال لي انه لا يثق في قدرة قادة المناطق العسكرية على مباشرة مهامهم الخطيرة في هذه الظروف الصعبة ولهذا فقد قرر المكتب السياسي ارسالي الى الجبهة الجنوبية الغربية . كممثل للقيادة العليا ، وارسال المارشالين شابوشنيكوف وكوليك الى الجبهة الغربية . وطلب مني السفر فورا الى كييف ومنها الى رئاسة اركان الجبهة في نرنوبول بصحبة خروشوف .

وبناء عليه كلفت الجنرال فاتوفين بنسيير شؤون رئاسة هيئة اركان الحرب بالنيابة عني في غيابي .

وفي مقر المجلس العسكري للجبهة جرت مناقشة الوضع بالتفصيل . واقتُرحت على قائد الجبهة ان يأمر مبدئيا وعلى الفور بتجميع الفيالق الميكانيكية بهدف توجيه ضربة مضادة الى المجموعة الرئيسية من حشود جيش « الجنوب » الذي توغل في منطقة سوكول على ان يكون هناك تدعيم تشترك فيه كل القوات الجوية التابعة للجبهة بالإضافة الى مجموعة مساعدة من القوات الجوية القاذفة البعيدة المدى التابعة مباشرة للقيادة العليا . وفي الحال قامت رئاسة اركان حرب الجبهة بتجهيز خطة العمليات المبدئية وتوزيعها على جيوش الجبهة وفعالقها . ولا بد ان اشد بالصلابة النفسية والقدرة التنظيمية التي كان ينحلي بها قادة الجبهة وخاصة الجنرالين م. ا. بوركايف و م. ب. كيريونوس .

وها هو ما كتبه في مذكراته اليومية رئيس اركان حرب القوات البرية للجيش الالماني الجنرال جالور في يوم ٢٤ حزيران ١٩٤١ :

« العدو باستمرار يواصل دفع مزيد من قواته الجديدة النشيطة الى ساحة القتال لمواجهة اسفين دبابتنا . وكما توقعنا ، قام العدو بقوات كبيرة من الدبابات بشن هجوم مضاد على الجناح الجنوبي لمجموعة الدبابات الاولى وتلاحظ تحركات في اماكن متفرقة » . هكذا قامت قوات الجبهة الجنوبية الغربية بشن واحدة من اولى الهجمات المضادة على العدو . ولقد كان يمكن لقواتنا ان تبعد قوات العدو لو كان تحت تصرف الجبهة قوات جوية اضعف وفيلق او اثنان من فيالق المدفعية الخفيفة . وعلى كل فقد تمكنت قواتنا من تحقيق المهمة الرئيسية وهي ايقاف زحف العدو في اتجاه مدينة كييف عاصمة اوكرانيا .

ومن اتصالاتي بموسكو في هذه الفترة اخبرني الجنرال فاتوتين (القائم باعمال زوكوف) بان قائد ورئيس اركان الجبهتين الغربية والشمالية الغربية لم يتمكنوا لان من استعادة الاتصال بقيادة الجيوش مما جعل الفيالق والفرق تخوض المعارك متفرقة دون تنسيق جهودها مع القوات المجاورة ولا مع القوات الجوية . وتأكد لي من ذلك ان الوضع على الجبهتين حرج وخطر للغاية .

وافادني فاتوتين بان ستالين عصبي وميال الى تحميل المسؤولية كلها لقيادة الجبهة الغربية ورئاسة اركانها وانه يتهم المارشال كولييك بالتقصير . وبعد فترة قصيرة تأكد ان القوات الالمانية قد تمكنت من اختراق دفاعات الجبهتين في بضع مناطق وانها تتقدم بسرعة في داخل بيلوروسيا والبلطيق .

هكذا بدأت محنة الشعب السوفياتي !

التهامات

في السنوات الاخيرة جرت العادة ان يوجه الاتهام الى القيادة العليا لتباطؤها في دفع القوات الضاربة الرئيسية للاتحاد السوفياتي من اعماق البلاد الى مناطق الصدام على الحدود لصد ضربات العدو وارغامه على التقهقر . لست ارضى لنفسى ابداء رأي قاطع فيما كان يمكن ان يتطور اليه الوضع لو ان هذا كان قد حدث .. الى افضل .. ام الى اسوأ . علي انني اشير الى انه كان من المحتمل ان تقع القوات الرئيسية السوفياتية في نفس الوضع القاسي الذي وقعت فيه قوات مناطق الحدود . ذلك انها كانت تفتقر الى ما فيه الكفاية من وسائل الدفاع المضادة للدبابات والطائرات . كما كانت اقل قدرة على الحركة من قوات العدو ، وكان يمكن

تماما ان تعجز عن الصمود امام الضربات البائرة للقوات المدرعة للعدو .
في الصباح الباكر من يوم ٢٦ حزيران افادني فاتوتين بان الوضع في
البلطيق وبيلوروسيا سيء للغاية وان الجيش الثامن التابع للجبهة الشمالية
الغربية ينسحب في اتجاه ريفا ، وان الجيش الحادي عشر ينسحب فسي
اتجاه بولوتسك . وان الفيلق الميكانيكي الواحد والعشرين يتقدم من منطقة
موسكو لتدعيم الجبهة .

« بوجه عام كان ما يجري مصداقا لما حدث اثناء المباراة التي جرت
في ايار من نفس العام فسي رئاسة الاركان تحت اشراف المارشال
تيموشنكو » .

« تحدثت من قبل عن بعض الاوضاع التي قادت الى هزيمتنا في
بداية الحرب وسوف اتحدث عن العوامل الاخرى التفصيلية فيما بعد
ولكنني اريد الآن ان اسير الى ان الاخطاء التي وقعت فيها القيادة العليا
لا تعفي القيادة العسكرية على جميع المستويات ، من المسؤولية عن سوء
التقدير والمواجهة » .

« ان كل قائد عسكري يقوم بعمليات فاشلة لا يملك الحق في التنصل
من المسؤولية بالقاء الذنب على القيادات الاعلى . فعلى القوات المسلحة
وقياداتها طبقا للوائح ان تكون على الدوام مستعدة لتحقيق المهام القتالية .
الا انه قبيل الحرب بل وحتى مساء ٢٢ حزيران كان قادة بعض التشكيلات
والتجمعات الداخلة في نطاق الدفاع عن الحدود ، ينتظرون الى آخر
دقيقة وصول التعليمات من اعلى دون ان يتخذوا وضع الاستعداد الملائم
رغم انه كان يصل الى اسماعهم ضجيج المونورات وجلبة الجنازير على
الجانب المقابل من خط الحدود » .

وقبيل الحرب كان ستالين وسيموشنكو ورئاسة الاركان يعتقدون بناء
على معلومات المخابرات بان القوات الالمانية اذا هاجمت الاتحاد السوفياتي
فانها سوف تكون مضطرة الى الابقاء في اوربا والشرق الادنى وبقية البلاد
المحتلة على ما لا يقل عن ٥٠٪ من مجموع القوات الالمانية .

وفي الحقيقة كانت المانيا قبيل الهجوم على الاتحاد السوفياتي قد
ابقت في المناطق المشار اليها فقط على اقل من الثلث وفيما بعد انخفضت
هذه النسبة .

كانت الضربة القوية للقوات البرية والجوية الالمانية على جبهتنا
الاستراتيجية الغربية تنطلق كالسهم في اتجاه موسكو .
ونشا وضع حرج في منطقة برست . الا ان العدو لم يتمكن من

القضاء على مقاومة الابطال المحاصرين في قلعة برست مما ارغم القوات الالمانية على الدوران من حول المدينة الصامدة التي كانت ملحمتها البطولية مفاجاة لقوات جودريان المدرعة والجيش الالمانى الرابع .

وانطلقت قوات جودريان الى مشارف مينسك حيث دار قتال بطولي عنيف . وقد ركز العدو القصف بالطيران على المدينة التي اشتعلت فيها النيران في كل جانب وقضت على آلاف السكان المسالين وفي لحظات الموت كان آلاف المدنيين يصبون لعنائهم اليائسة على الطيارين الالمان المتوحشين .

وفي ٢٦ حزيران اتصل بي ستالين شخصيا وبلغني بسوء الاوضاع على الجبهة الغربية وطلب مني العودة الى موسكو . وقال ان المارشال كولييك قد انقطعت اخباره .

سافرت الى موسكو ومن المطار توجهت مباشرة الى ستالين الذي استقبلني ومعه تيموشنكو ومساعدى الاول فاتوتين . حياني ستالين بايماءة خفيفة ثم قال لي على الفور :

« فكروا معا فيما يمكن عمله في هذا الوضع الحرج ثم قولوا لي رأيكم » ووضع امامنا خريطة الجبهة الغربية . قلت له : نحتاج الى ٤ دقيقة لمناقشة الموقف . — وهو كذلك .

وبالمناقشة لم نجد حلا افضل من الانسحاب والتحصن عند خط الدفاع المار بدافين الغربية وبولوتسك دفيتيبسك واورشسا وموجيليوف وموزير ، وفي نفس الوقت لا بد من اتخاذ اجراءات اقامة خط الدفاع التالي عند بحيرة سيليجاروفا وسمولينسك وروسلاف . ومع تكوين ثلاثة جيوش جديدة من فرق موسكو الاحتياطية .

استنزاف قوات العدو

كان الهدف الاساسي من اقتراحنا استنزاف قوى العدو وايقاف زحفه الى موسكو عند احد الخطوط الدفاعية ثم تنظيم هجوم مضاد بالاعتماد على قوات الشرق الاقصى وتكوين قوات جديدة .

متى واين سوف نتمكن من ايقاف زحف العدو نحو موسكو ؟ وما هي المناطق التي سوف نتخذها منطلقا للهجوم المضاد وما هي القوى التي سوف نعبرها لتحقيق هذا الهدف ! لم تكن بعد ندري . فقد كان هذا مجرد امنية . وفي ٢٧ حزيران بدأت اعطي التعليمات بتنفيذ المشروع الى القوات

المعنية رغم البطولة الجماعية للجنود والقادة الصغار وبرغم الصمود الباسل والعناد الذي أبداه القادة الكبار ، ظل الوضع على الجبهة الغربية يرداد سوءا حتى انتهى الامر في ٢٨ حزيران الى انسحاب قواتنا من مدينة مينسك ، التي اقتحمها العدو واخذ بوحشية يبيد السكان المدنيين ويدمر بنيانه اثار المدينة ومعالم حضارتها . وكان لسقوط مينسك عاصمة بيلوروسيا وقع سيء ومؤلم على نفسية القيادة العليا وهيئة اركان حرب . في ٣٠ حزيران اتصل بي ستالين تليفونيا وامرني باستدعاء قائد الجبهة الغربية الجنرال د. يافلوف . وفي اليوم التالي وصل يافلوف الى موسكو وقد تعرفت عليه بصعوبة كبيرة . فلكم قد تغير خلال ايام الحرب الثمانية وفي نفس اليوم اعفى من قيادة الجبهة وقدم الى المحاكمة وبناء على اقتراح المجلس العسكري للجبهة قدم الى المحاكمة ايضا رئيس اركان حرب الجبهة الجنرال كليمووسكينج وقائد قوات الاشارة الجنرال جريجوريف وقائد قوات المدفعية الجنرال كليتش وعدد آخر من الجنرالات اركان حرب الجبهة .

تقرر تعيين المارشال تيموشنكو وزير الدفاع قائدا للجبهة الغربية وتعيين الجنرال يريمينكو مساعدا له . وبغرض تدعيم الجبهة ضمت اليها جيوش الجبهة الاحتياطية .

وعلى الجبهة الشمالية الغربية استمرت الاوضاع سيئة الى حد كبير . ونتيجة لسوء التنظيم من جانب قيادة الجبهة ، تحملت قوات الجيش الثامن والحادي عشر خسائر كبيرة لانسحابها غير المنظم في اتجاهات مختلفة اثناء محاولتها تفادي الوقوع في الحصار .

في ٣٠ حزيران اتصل بي ستالين واخبرني بالتعديلات الجديدة في القيادة العسكرية التي اصبح بمقتضاها مساعدي الاول الجنرال فاتوتين رئيسا لاركان حرب الجبهة الشمالية الغربية .

وبعد ١٨ يوما من بداية الحرب كانت الجبهة الشمالية الغربية قد انسحبت بالكامل من جمهوريتي لاتفيا ولتوانيا وجزء من جمهورية روسيا الاتحادية . وبناء عليه اصبح هناك خطر فعلي من هجوم العدو على ليننجراد التي كانت المناطق المؤدية اليها غير محصنة بالقوات والاستحكامات الكافية . وطوال هذه الفترة لم تكن هيئة اركان حرب القيادة العليا تتلقى من اركان الجبهة الشمالية الغربية التقارير الوافية التفصيلية التي تبين وضع قواتنا ، وحشود العدو ومواقع تجمعاته الآلية والميكانيكية . وكنا كثيرا ما نضطر الى تقدير الموقف بالتخمين للتطورات المحتملة . ولكن هذا

الاسلوب كما هو معروف يؤدي بالضرورة الى الوقوع في اخطاء .
على الجبهة الغربية كانت المعارك في الايام الاولى من تموز تدور في
ظروف التفوق الساحق للعدو في القوات المدرعة والجوية وكانت قواتنا
التي انهكتها المعارك الطاحنة والمتوالية تنسحب الى الشرق لكنها حتى في
هذه الظروف القاسية كانت تكبد العدو خسائر جسيمة وتحاول بقلدر
المستطاع تعويق تقدمه .

وعلى نهر بريوزينا (نفس النهر الذي شهد هزيمة فلور نابليون
١٨١٨) دار قتال طاحن في منطقة مدينة بوريوسف بين قوات العدو وبين
قوة مدرسة الدبابات حتى جاءتها قوات فرقة موسكو المدرعة الاولى بقيادة
الجنرال كريزر . كانت فرقة موسكو تشكل طبعا لمواصفات زمن الحرب
من حيث الافراد والتسليح . وكانت مزودة بالدبابات من طرازات : ٣٤
الحديث . وقد تمكن الجنرال كريزر من وقف تحرك قوات فرقة دبابات
العدو الثامنة عشرة والمدمعة بقوات مساعدة ، لمدة يومين كاملين . ولقد
كانت لذلك اهمية كبيرة في تلك الفترة . وقد كشف الجنرال كريزر في
هذا القتال عن كفاءته العالية .

وعلى الجبهة الجنوبية تقدمت من الاراضي الرومانية قوات التحالف
الالمانى الرومانى موجهة ضرتها الرئيسية في اتجاه موجيلوف - بودولسكي
- جيمرينكا مشكلة بذلك تهديدا لجناح ومؤخرة الجيوش السادس، والثاني
عشر ، والسادس والعشرين التابعة للجبهة الجنوبية الغربية .

وبعد ٦ ايام من المعارك العنيفة استطاع العدو اختراق الجبهة
الجنوبية والتوغل الى عمق ٦٠ كيلو مترا . وقد ازدادت اوضاع الجبهة
الجنوبية سوءا بتمكن القوات الالمانية من اختراق خط دفاعنا في منطقة
روثنو - دوينو - كريمينتس والانطلاق الى الداخل .

ولكن زحف قوات العدو امكن ايقافها بفضل عدة عمليات عسكرية
قامت بها الجبهة الجنوبية الغربية . وبذلك امكن تدمير الدفاع عن كييف
وفشل محاولات القوات الالمانية في تطويق قوات الجبهة الجنوبية الغربية .
وفي الجبهة الشمالية بدأت المعارك في ٢٩ حزيران وكانت لها اهمية
محلية محدودة التأثير في الوضع الاستراتيجي العام لتطور الاحداث .

وفي بداية الحرب لم تشتبك قواتنا البحرية مع قوات العدو في
معارك ذات اهمية . اذ تركز جهدها القتالي في صد الغارات الجوية الا ان
وضع اسطول البلطيق كان حرجا للغاية . وخاصة بالنسبة للقاعدة البحرية
الاساسية حيث كانت توجد اكبر الحشود البحرية التابعة لاسطول البلطيق .

لقد أصبحت قاعدة تالين والمدينة ذاتها تفتقر الى الغطاء المتين من ناحية البحر نتيجة للمعارك الخاسرة التي خاضتها قوات الجيش الثامن التابع للجبهة الشمالية الغربية . وقد هبت جميع قوات اسطول البلطيق وكثائب العمال المسلحين للدفاع عن عاصمة جمهورية استونيا السوفياتية . حاول العدو الاستيلاء الخاطف على قاعدة مدينة تالين ، لكنه ووجه بمقاومة بطولية عنيدة من جانب فيلق المدفعية الخفيفة العاشر التابع للجيش الثامن ، ووحدات مشاة الاسطول ، ومدفعية الاسطول الثقيلة ، وكثائب المقاومة الشعبية المسلحة .

تراجع ومقاومة

كذلك لعبت قوات طيران الاسطول دورا كبيرا في القصف المركز المباشر لقوات العدو المهاجمة . ولا بد ان اشييد بجنود اسطول البلطيق البواسل الذين اظهروا بطولتهم في البر والبحر على حد سواء .

في تلك الفترة كان الاسطول الشمالي ينسق جهوده مع قوات الجبهة الشمالية وقد قام بعدة عمليات ناجحة بالغواصات ضد سفن النقل الالمانية التي كانت تنقل خام النيكل من بتسامو . وقام اسطول البحر الاسود اساسا بنقل الافراد والدخيرة الى الجيوش المقاتلة في المناطق المتاخمة للبحر . كما قام بقطع طريق مواصلات العدو البحرية مع موانئ رومانيا وبلغاريا .

وبالاشتراك مع الطيران قامت قطع اسطول البحر الاسود بتوجيه ضربة الى القاعدة البحرية الرومانية في كونستانتسا . . . وكذلك كانت قوات الاسطول الجوية تغير باستمرار على المنشآت البترولية ، وخطوط السكك الحديدية الرومانية .

انني لا اتوقف بالتفصيل عند العمليات الحربية التي قامت بها القوات البحرية ايمانا بان ادميرالات وقادة الوحدات البحرية اقدر مني على القاء الضوء على هذا الجانب . غير اني لا بد ان اقول ان نتائج التعاون بين القوات البحرية والقوات البرية العاملة في المناطق الساحلية كان يمكن ان تصبح اكثر فعالية لو كنا قبل الحرب استطلعنا ان نجد حولا موفقة لمسائل الدفاع عن السواحل والقواعد البحرية . فللاسف الشديد كان اهتمام القيادة العامة للقوات البحرية ، ووزارة الدفاع ، وهيئة اركان الحرب متأخرا جدا عن الوقت المناسب .

كانت قد مضت قرابة ثلاثة اسابيع منذ تقضت المانيا الفاشية اتفاقية

عدم الاعتداء بالهجوم الذي شنته قواتها المسلحة . وحتى ذلك الحين بلغت خسائر القوات الهتلرية حوالي ١٠٠ ألف فرد ، وما يزيد عن ١٠٠٠ طائرة ، وزهاء ١٥٠٠ دبابة (٥٠ بالمئة مما كان متوفرا لدى العدو في بداية الحرب) .

تكبدت القوات المسلحة السوفيتية لا سيما على الجبهة الغربية خسائر جسيمة مما كان له تأثير على تطور الاحداث فيما بعد . واصبح ميزان القوى الالمانية السوفيتية يميل اكثر من ذي قبل لصالح العدو فالعدو قد حقق انتصارات حاسمة وتوغل في الاراضي السوفيتية الى عمق ٥٠٠ - ٦٠٠ كيلومتر واستولى على مناطق اقتصادية ومواقع استراتيجية بالغة الاهمية .

كان ذلك كله مفاجأة كبيرة للشعب السوفيتي وقواتنا المسلحة . وفي هذه الايام العصبية ظهرت الوحدة الروحية والسياسية للمواطنين السوفيت بقوة عارمة .

سياسة الردع

لم يفقد الشعب ولا الحزب توازنهما ! فعند الوهلة الاولى اخذ الحزب يوما بعد يوم يظهر طاقة تنظيمية وسياسية جبارة تستهدف امرا واحدا : تعبئة كل قوى الشعب لردع العدو .

ففي ٢٣ حزيران نفذت خطط التعبئة التي كانت معدة من قبل وخاصة في مجال تكوين القوات الاحتياطية . وتلقت الوزارات المختصة تعليمات بزيادة انتاج الدبابات والطائرات والمدافع المختلفة وكافة انواع المعدات العسكرية . وبعد اسبوع من الحرب عدل برنامج الانتاج الحربي لرفع معدله بنسبة ٢٥ بالمئة في مدى الشهور الثلاثة التالية من عام ١٩٤١ ، وبالاعتماد على الارصدة الحكومية الاحتياطية قررت الحكومة اجراء تطوير جلدي لبرامج التوسع الصناعي في مناطق سيبيريا والاورال وكازاخستان وآسيا الوسطى . ولقد لقيت هذه المناطق دورا حاسما في التحول الى اقتصاد الحرب . وكان للجان الحزب فضل كبير في اعادة تنظيم الاقتصاد الوطني في شرق البلاد . ولا بد من الاشارة على وجه التخصيص بالجهد الرائع الذي بذلته لجنة تشليابنسك الحربية وعلى رأسها الرفيق باتالوتشيف .

وبدأت اعادة تنظيم الصناعة والمواصلات وتوزيع الموارد المادية والبشرية ، وتهيئة الزراعة لخدمة المجهود الحربي . واخذت آلاف المصانع

التي كانت بالامس تنتج السلع الاستهلاكية ، تنتج المعدات الحربية .
وعدل تصميم مصانع الصناعات الهندسية والميكانيكية لكي تتمكن
من انتاج الدبابات والطائرات . وكلفت صناعة التعدين بالتوسع في انتاج
الشرائط المصفحة ، ومستلزمات الصناعات الحربية وانواع ممتازة من
الصلب وحددت للصناعات الالكترونية مهمات جديدة وطلب من مصانع تكرير
البتروول تركيز انتاجها في انواع الوقود اللازم للطائرات والدبابات
والمدفعات . لقد حل انتاج اجهزة التفجير محل انتاج الساعات ، وكان
حطام القاطرات يرسل الى ورش السكك الحديدية لاعادة التصنيع .

كان العدو قد احتل عددا من اهم المناطق الاقتصادية ، وشل حركة
التعبئة العسكرية في المناطق العسكرية التي وقعت تحت الاحتلال ، لقد
وقعت ملايين المواطنين ، وقدر هائل من الموارد تحت قبضة العدو والغاصب
ففي الاراضي التي جرى احتلالها في مدى ثلاثة اسابيع كان يتركز ٤٠
بالمئة من المواطنين ، ٣٠ بالمئة من جملة الانتاج الوطني ، وانخفض الى
حد خطير انتاج المواد الاستراتيجية كالحديد والصلب ومصادر الطاقة
وتعرضت المراكز الصناعية الجديدة للخطر الفعلي .

كان لا بد من اتخاذ قرارات استثنائية حاسمة لكي تقتلع المصانع
من مواقعها ثم تنقل الى الشرق ، وتنضم الى الوحدات الانتاجية القائمة
هناك . حتى يمكن الاعتماد على هذه المناطق في الاستعداد للانقضاء
على العدو وايقاف زحفه ثم تدميره .

بدأ عمل لم يعرف التاريخ له مثيلا في ابعاده وطبيعته ! وبمقتضى
قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، والحكومة السوفيتية تكونت
« لجنة التهجير » عين لها شفيرنك رئيسا ، وكوسفين وبيرفوخين نائبين
لرئيس ، وفي فترة وجيزة جدا من حزيران الى تشرين الثاني ١٩٤١
كان قد تم « تهجير » وتشغيل ما يزيد عن ١٥٠٠ مؤسسة صناعية
كبرى معظمها خاص بالانتاج الحربي . وفي نفس الوقت كانت القوات
تزايد وباستمرار تتوجه نحو الغرب والجنوب الغربي حيث يدور القتال .
كان هذا التحول العملاق يجري بمنتهى التوتر والايلام والعقبات
والارهاق العصبي لكنه رغم كل شيء كان يجري دون توقف تحت
الاشراف القيادي والتنظيمي للحزب .

(واعتقد ان ستارا من النسيان يسدل بغير حق على هذا الجانب
البطولي في حياة الشعب والحزب . كذلك فان ما فعله الحزب والشعب

في هذه المرحلة العسيرة على الجبهة الاقتصادية لا يأخذ للان ما يستحقه من الثناء) .

ان النظام الاشتراكي القائم على الملكية العامة لوسائل الانتاج لم يجد خيرا من تلك الظروف الخطيرة لكي يكشف خلالها بمنتهى الوضوح عن ميزاته الكبرى .

ان ملحمة العمل الشعبي في تهجير وتشغيل الطاقات الانتاجية في سنوات الحرب ، والعمل التنظيمي الضخم الذي قام به الحزب لا يقل مطلقا في ابعاده واهميته بالنسبة لمصير وطننا عن اكبر المعارك في الحرب العالمية الثانية .

اذا لم تخني الذاكرة فان المكتب السياسي للحزب قد قرر في الايام الاولى من الحرب توجيه قرابة خمسين من اعضاء اللجنة المركزية الاصليين والاحتياطيين ، واكثر من مائة من سكرتيري لجان الحزب في المحافظات والاقاليم والجمهوريات الاتحادية وكبار رجال الدولة المحنكين للعمل المباشر في جبهات القتال . كذلك فقد قام الحزب بعدة اجراءات عملية من شأنها تقوية القيادة المركزية للحزب في مختلف الحياة العامة وفي القوات المسلحة على نحو خاص . وفي هذه الظروف اعيد تنظيم جهاز اللجنة المركزية وتوزيع الاختصاصات على اعضائها ليتولى كل منهم قيادة قطاع معين من الشؤون العسكرية والاقتصادية والسياسية .

معسكر حربي

(لقد تمكن حزبنا باقتدار من تحويل البلاد كلها الى معسكر حربي) وكان الشعب يؤمن ايمانا عميقا بان الحزب سوف يجد مخرجا من هذا المأزق الصعب وسوف يتمكن من تحقيق النصر على القوات الفاشية الالمانية . كانت المسألة مسألة وقت فحسب !

في ٣٠ حزيران ١٩٤١ تشكلت « لجنة الدفاع الوطني » برئاسة ستالين السكرتير العام للحزب . وكانت اللجنة صلاحيات وسلطات مطلقة . وكان يتحتم على جميع المنظمات المدنية والحزبية والحكومية ان تنفذ اوامر وتعليمات « لجنة الدفاع الوطني » وكان للجنة ممثلون يشرفون على تنفيذ قدراتها في الاقاليم والمحافظات والوزارات والمؤسسات والمنشآت الكبرى .

وكانت اجتماعات اللجنة تعقد في اي وقت من النهار او الليل وغالبا

ما تكون في الكرملين اودانشا ستالين (منزل ريفي في ضواحي المدن الكبرى . وقد جرت العادة في روسيا منذ القدم ان يكون للشخصيات المرموقة منازل من هذا الطراز يلوذون بها من ضواء المدن) . وفي هذه الاجتماعات كانت تناقش القضايا الهامة وتتخذ بشأنها القرارات المناسبة ، وقد شهد هذا المنزل التخطيط للعمليات العسكرية الكبرى التي كان يشترك فيها اعضاء لجنة الدفاع واللجنة المركزية ومجلس الوزراء . وكان ذلك ضمن - حين تستلمى الحالة - تحقيق سياسة موحدة في مجال القيادة الاستراتيجية وتنسيق التعاون بين العمليات العسكرية والمجهود العام للشعب كله .

وكثيرا جدا ما كانت ثور مناقشات حادة ومحددة وفي العادة كان ستالين يدور حول المائدة وهو يصغي بانتباه الى الاراء المتعارضة . كان هو شخصيا لا يكثر الكلام ولا يحب اكثار الاخرين في القول . وكثيرا ما كان يقاطع المتحدثين بقوله : « اوجز » « اوضح » . كان يفتتح الاجتماعات بدون مقدمات او كلمات افتتاحية . واذا تكلم فبهذوء وطلاقة ونفاذ الى الجوهر مباشرة وكان يصيغ افكاره بوضوح وابعاز .

وحين كان المجتمعون لا يصلون الى رأي موحد كانت على الفور تشكل لجنة تضم ممثلين للاطراف المتعارضة وتكلف بابلاغ المجتمعين بالاقتراحات التي يتفق الجميع عليها . هكذا كان يحدث ما لم يكن ستالين قد كون رأيا نهائيا . اما حين كان ستالين يدخل الاجتماع برأي محدد فلم تكن المناقشات ثور اصلا او سرعان ما تهلا حين ينضم ستالين الى احد الاطراف .

وطوال فترة الحرب اتخذت لجنة الدفاع ما يقرب من ١٠ آلاف قرار في المسائل العسكرية والاقتصادية .

المنظمات القتالية

كان ستالين انسانا قوي الارادة . ولا اذكر اني رأيته مقهورا الى حد ما غير مرة واحدة . كان هذا في فجر ٢٢ حزيران ١٩٤١ حين تبدد يقينه من قدرته على الحيلولة دون وقوع الحرب .

منذ ٢٢ حزيران ١٩٤١ وطوال فترة الحرب كلها ، بالاشتراك مع اللجنة المركزية والحكومة السوفيتية ، كان ستالين بصلاية يقود البلاد والنضال المسلح وسياستنا الدولية .

رغم الموقف البالغ التعقيد ، كانت المنظمات الحزبية والهيئات

السوفيتية في اوكرانيا وبلوروسيا والبلطيق تناضل من اجل التعبئة الشعبية النشيطة لمواجهة العدو . ولتحقيق هذا الهدف تكونت في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال المؤقت تنظيمات سرية للحرب والكممول (كممول هي اختصار لثلاث كلمات روسية تعني اتحاد الشباب الشيوعي) وتشكلت الكادرات الرئيسية لفصائل المقاومة الشعبية التي انضم اليها القادة العسكريون والسياسيون للوحدات التي خرجت من الحصار .

ما ان وطئت اقدام العدو ارضنا حتى شعر بالكراهية التي يكنها المواطنون السوفيت للغاشية الالمانية وبالخسائر الجسيمة التي لحقت به على ايدي الرجال الذين انضموا الى العمل السري . في تلك الايام لم يكن امام القيادة العليا غير طريقة واحدة : الدفاع على امتداد الجبهة الاستراتيجية . فالقوى والامكانيات لم تكن آنذاك تسمح بالقيام بعمليات هجومية كبرى . كان لا بد من تكوين قوات احتياطية استراتيجية ضخمة وتسليحها تسليحا يضمن لها التفوق على العدو ، ويمكنها من اخذ المبادرة ثم الانتقال الى العمليات الهجومية والشروع في طرد القوات المعادية من الاتحاد السوفيتي . كل هذا تحقق .. ولكن ليس فورا .

فقواتنا قد انتقلت الى الدفاع الاستراتيجي نتيجة للانحباب القهري . وقد فرض علينا ان نتحرك نحو الهدف بتجمعات تكتيكية وفي ظل عدم توفر القوى والامكانيات اللازمة لاقامة دفاع متين وعلى الاخص ضد الدبابات .

ولا يجوز ان ننسى ضعف قذائف مدفعيتنا المضادة للطائرات ، وعدم وجود غطاء جوي فعال . ففي بداية الحرب كان للعدو السيادة في الجو مما اضعف قوة جيشنا .

(ومع ذلك ، فبرغم عدد من الاخطاء وبرغم عدم المقاومة الكافية من جانب قواتنا المسلحة في بعض الاحوال ، تم تنظيم الدفاع الاستراتيجي على وجه العموم .)

وكما هو معروف فان القوات الالمانية حين جاء الدور عليها في المرحلتين الثانية والثالثة من الحرب ، سادها الشعور بمرارة الهزيمة على امتداد الجبهة السوفيتية لم تنجح في اقامة دفاع .. كذلك الذي اقمناه نحن .

في ذلك الوقت كانت اهداف دفاعنا الاستراتيجي كما يلي :

● إيقاف القوات الفاشية امام خطوطنا الدفاعية لاقصى مدة ممكنة
كسبا للوقت حتى يتسنى لنا الحصول على قوى اضافية من اعماق البلاد،
وتكوين احتياطيات جديدة ، وحشدنا تم تحريكها في الاتجاهات الرئيسية .
● تكبيد العدو اقصى خسائر ممكنة ، وانهاكه واستنزاف دمه وبذلك
يمكن الى حد ما تدارك الخلل في ميزان القوى .

● تأمين الاجراءات التي يقوم بها الحزب والحكومة لتهجير المواطنين
والمنشآت الصناعية الى اعماق البلاد ، وكسب الوقت الضروري لاعادة
تنظيم الصناعة طبقا لمتطلبات الحرب .

● الوصول الى الحد الاقصى من القوة لشن الهجوم المضاد بهدف
تصفية المخطط الهتلري للحرب على وجه العموم .

واذا كنا نركز جهودنا على الدفاع الاستراتيجي فان قواتنا لم
تكتف بالصمود في مواجهة العدو في البر والبحر والجو . بل كانت تقوم
كلما امكنها بشن هجمات مضادة على العدو ولقد سببت قواتنا المسلحة
وقوات المقاومة الشعبية للعدو اضرارا بالغة حينما استطاعت .

في اليوم الخامس من الحرب بدأت بناء على قرارات اللجنة المركزية
حركة تجنيد واسعة لاعضاء الحزب والكمسول . والحاقهم بقوات
الجهة كموجهين سياسيين . وكان عليهم ان يصبحوا ركيزة للتنظيمات
الحزبية العسكرية .

فقبل الحرب كان عدد الشيوعيين في الجيش الاحمر والاسطول
يبلغ ٦٥٠ ألفا وفي خلال الشهور الستة الاولى منذ بدأت الحرب التحق
بالقوات المسلحة اكثر من مليون و٨٠٠ ألف شيوعي .

في المؤلفات الاجنبية ما زلنا حتى اليوم نصادف تصويرا للشيوعيين
والعاملين بالاجهزة الحزبية وكانهم « صفوة » او فئة من اصحاب
الامتيازات في مجتمعنا . وكأنسان عسكري فأنني اتمنى لكل دولة ان
تكون بها مثل هذه الصفوة « الممتازة » التي يلبي ممثلوها النداء للموت
في سبيل الوطن بطولية ووفاء ..

حدث كثيرا ان التقيت بالمقاتلين السياسيين المتوجهين الى جبهات
القتال . كان هؤلاء الرجال يحملون في طيات انفسهم ايمانا لا يتزعزع
بحتمية انتصارنا .. « انا لصامدون » .. كانوا يرددون .. وكنت اشعر
بانها ليست مجرد كلمات بل هو اسلوب في التفكير .. هو نموذج
اصيل للوطنية السوفيتية . وبروحهم التغاولية السامية كانوا يزرعون
الامل من جديد في النفوس التي بدأت تجذب .

تضحية الشبان والفتيات

وفي ٣ حزيران القى ستالين كلمة من الاذاعة باسم اللجنة المركزية شرح فيها الموقف في الجبهة وناشد جموع الشعب السوفيتي ان يعيدوا تنظيم حياة البلاد واقتصادها على ضوء متطلبات الحرب مع العدو القوى الشرس . ودعا الحزب والشعب لان يهبوا للنضال المقدس ضد العدو ، ولان يقضيا على الغفلة ويرفعا يقطعتهما الى ابعد الحدود .

كانت كلمات ستالين التاريخية الى الشعب اشبه بناقوس الخطر المدوي والذي تسمع في اصداؤه صيحة لينين الشهيرة « المجتمع الاشتراكي في خطر » وكان واضحا ان الناقوس سيظل يصدر رنينه الرنان حتى يرحل اخر غاصب فاشي عن اراضي الوطن .

ان الحرب باطلاق شعاره التاريخي « كل شيء من اجل الجبهة .. ان كل شيء من اجل النصر » قد وضع كل مواطن امام الخطر وجها لوجه .

وفي الجبهة والخطوط الخلفية ضرب فتياننا وفتياتنا اروع الامثلة على الوطنية السوفيتية . وظهروا استعدادهم للتضحية بحياتهم في سبيل الوطن .

في الايام الاولى من تموز عندما كان العدو يحتل مدينة مينسك ويحاول التقدم الى نهر بريوزينا ، كان من المقرر اسقاط مجموعة من المتسللين للتجسس على الخطوط الخلفية للعدو في منطقة مينسك وكانت المجموعة تضم شايبين وفتاتين من الكموسول الذين يجيدون اللغة الالمانية . واعتقد ان الفتاتين كانتا من طالبات معهد اللغات الاجنبية . واتضح من حديثي معهما انهما من موسكو وعندما سألتهما الا يحسان برهة من الخطوط الخلفية للعدو ؟ نظرتا الى بعضهما وتبادلتا الابتسام :

بالطبع . تمة رهبة . وسوف يكون الامر سيئا لو اصطادونا في لحظة الهبوط بالظلال . اما اذا مرت هذه اللحظات دون ان تقع في قبضة العدو فسوف يكون كل شيء على ما يرام .

الوطن ناداهم فلبوا النداء !

كان العدو يخطط لاختراق جبهتنا الغربية بقوات ضاربة ضخمة ، وتطويق المجموعة الرئيسية من قواتنا في منطقة سموليتسك ، وفتح الطريق بذلك الى موسكو .

دارت عدة معارك ابلت فيها بلاء حسنا وخاصة وحدات الجيش

الحادي والعشرين بقيادة الجنرال ف - كوزيتسوف التي عبرت في ١٣ تموز نهر الدنيبر وحررت مدينتي روجاتشوف وجلوين وانطلق في الاتجاه الشمالي الغربي . واستشهد في هذه المعارك الجنرال بتروفسكي الذي اعرفه كواحد من اكثر القادة العسكريين ثقافة وموهبة والذي لولا استشهاده المبكر لاصبح بالتأكيد قائدا من ارفع طراز .

غير ان العدو قد حشد قوات اضافية واستطاع في النهاية ان يقتحم مدينة سمولينسك . مما كان له اسوأ الوقع في نفوس اعضاء لجنة الدفاع وستالين شخصيا الذي فقد السيطرة على نفسه . . ولقد شعرنا نحن العسكريين بوطاة الغضب الستاليني . ولكن المعارك لم تخدم في سمو ليتسك بل اشتعلت من جديد وباعنف مما سبق بعد ان انشأت القيادة العليا جبهة جديدة انتشرت على الخطوط الخلفية للجبهة الغربية . على ان هذه المعارك رغم القتال العنيف من جانب قواتنا قد انتهت على وجه العموم لصالح العدو ، وفشلت قواتنا في التقدم في اتجاه كييف . . وفي هذه المعارك الطاحنة استخدمت قواتنا لأول مرة قذائف « كاتيوشا » في نهاية تموز ابلغت بضرورة التوجه بصحبة المارشال تيموشنكو قائد الجبهة الغربية حينذاك ، لمقابلة ستالين .

كنا نظن ان ستالين يريد مشورتنا في التخطيط لعمليات المستقبل . ولكن ثبت لنا ان الاستدعاء كان لغرض اخر فحين دخلنا مكتب ستالين وجدنا جميع اعضاء المكتب السياسي تقريبا جالسين حول المائدة بينما كان هو واقفا في منتصف الحجرة ممسكا في يده بفلونه غير المشتعل وهو دليل قاطع على سوء مزاجه .

قال ستالين : المكتب السياسي بحث وضع تيموشنكو كقائد للجبهة الغربية وقرر اعفائه من هذا المنصب - وهناك اقتراح بتعيين زوكوف خلفا له فما هو رأيكما - كان يوجه السؤال الى تيموشنكو والي .

ظل تيموشنكو صامتا وتوليت انا الرد .
- ان كثرة تغيير القيادات تنعكس - ايها الرفيق ستالين - انعكاسا سيئا على تطور العمليات اذ يرغم القادة على الدخول في معارك طاحنة قبل ان يتمكنوا من التعرف على واقع الامور - فالمارشال تيموشنكو قد استلم قيادة الجبهة منذ ثلاثة اسابيع . وقد تعرف خلال معركة سمولينسك على قواته وادرك المدى الحقيقي لقدراتها - فهو قد فعل ما كان ينبغي ان يفعله اي قائد في مكانه وقد اوقف زحف العدو طوال شهر . واعتقد ان احدا غيره لم يكن يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك . وان القوات تثق في

تيموشنكو . وهذا اهم شيء واعتقد ان تنحية تيموشنكو من قيادة الجبهة عمل غير عادل وغير حكيم .
علق ميخائيل كالينين على ذلك بقوله :
- هذا صحيح بالفعل
دون تعجل اشعل ستالين غليونه واخذ ينظر الى اعضاء المكتب السياسي ثم قال :
- هل توافق على رأي زوكوف ؟
- انت على حق يا رفيق ستالين - ترددت بعض الاصوات - تيموشنكو يستطيع ان يتدارك الموقف .
وانتهت المقابلة بان طلبوا من تيموشنكو العودة الى الجبهة

الاستيلاء على اوكرانيا

كان واضحا ان تلك الملاحظات قد آلمت تيموشنكو للغاية ولكن الحرب لا تستبعد اي شيء . فليس من الميسور دائما ان تراهى لمشاعر كل فرد اثناء حل المسائل الصعبة والكبرى .

وفي اثناء معارك سموليتسك حاولت احدى مجموعات العدو شق الطريق الى ليننغراد عن طريق لوجا ولكنها لاقت الفشل وقد كررت القوات الفاشية المحاولة من جديد وقد نجحت في اختراق خطوطنا الدفاعية ولكنها اوقفت ثانية .

ما الذي كان يجري في اوكرانيا في ذاك الوقت ؟ حيث كانت قوات الجبهة الجنوبية الغربية تخوض معارك دفاعية عنيفة .

كان الاستيلاء على كييف هدفا كبيرا الاهمية بالنسبة للقوات الالمانية، فقد كان النازيون يحرصون على سرعة احتلال جمهورية اوكرانيا لكي يحرموا الاتحاد السوفيتي من استغلال امكانيات واحدة من اكبر القواعد الصناعية ، ولكي يستفيدوا هم في مجهودهم الحربي بخامات الحديد في « كريفوري روج » ومناجم الفحم في دونيتسك وخامات المنجنيز في نيكوبيل وكذلك بمحاصيل القمح الأوكرانية الوفيرة .

ومن الناحية الاستراتيجية فان الاستيلاء على اوكرانيا كان يفتح الطريق الى موسكو .
ومنذ الايام الاولى للحرب جاء تطور الاحداث مخيبا لتوقعات الالمان

ومخطط الحرب الخاطفة . فالقوات السوفيتية قد أبدت مقاومة عنيدة طول انسحابها تحت ضغط الهجوم الألماني المركز . وبشجاعة واقتدار وبسالة قاتلت الجيوش الخامس ، والسادس ، والسابع والعشرين تحت قيادة الجنرالات بوتابوف ، كوستنكوف ، موزيتشكو ويسعدني الإشارة بهؤلاء الجنرالات الشجعان خاصة ان ثلاثهم كانوا من قبل قوادا للكتائب التي عملت تحت قيادتي في الفرقة الرابعة القوقازية في الفترة من ١٩٣٢ الى ١٩٣٦ .

الا ان وصول العدو الى نهر الدنيبر، والانطلاق في اتجاه زابوروجيا ودنيبروبتروفسك واوديسا قد وضع القوات السوفيتية على امتداد الجبهة الجنوبية الغربية في وضع سيء جدا . على ان القوات الألمانية قد دفعت معنا باهظا لهذا النصر . فقد تكبدت خسائر جسيمة واستنزفت قواها الى مدى بعيد .

لقد رأيت الاحداث التي وصفتها بعد عودتي الى موسكو من الجبهة الجنوبية الغربية ، من موقع رئاسة اركان حرب القيادة العليا . وبهذه الصفة اشتركت فيها ، وتحملت عنها المسؤولية بالتضامن مع بقية اعضاء القيادة ، واحسست في خلالها ببعض الراحة ازاء الانتصارات النادرة لقواتنا . وهنا يحيل لي ان الفرصة مناسبة لكي اسحدث قليلا عن القيادة العليا وعن ستالين شخصا .

في ١٠ تموز اجرت لجنة الدفاع الوطني تعديلا على تنظيم القيادة العليا بحيث اصبح اعضاءها : ستالين (رئيسا) مولوتوف تيموشنكو ، بوديوفي ، فورشيلاف ، شابوشنيكوف وزوكوف . وفي ١٩ تموز تقرر تعيين ستالين وزيرا للدفاع وفي ١٨ آب اصبح ستالين القائد الاعلى للقوات المسلحة السوفيتية .

وقد استقبل الشعب والمقاتلون نبا تعيين ستالين قائدا اعلى بأمل كبير نظرا لما كان يتمتع به من شعبية كبيرة . وبعد ذلك قررت القيادة العليا انشاء ثلاث قيادات عامة لادارة القتال في الاتجاهات الرئيسية . ولكن هذا لم يكن يعني عدم التدخل المباشر من جانب القيادة العليا في شؤون الجبهات . فقد كانت القيادة العليا تتدخل نظرا لانها تخضع لقيادتها المباشرة الاحتياطي المحدود من القوات البرية والجوية في تلك الفترة . ولقد اضعف هذا بالطبع من استقلال القيادات العامة الثلاث .

مكتب ستالين

وقد كان المألوف ان تنفذ قرارات وتوجيهات القيادة العليا عن طريق رئاسة هيئة اركان الحرب . وكان اعداد القرارات واتخاذها يتم عادة في الكرملين في غرفة مكتب يوسف ستالين .

وكانت غرفة فسيحة مضيئة ، مكسوة جدرانها بالواح من شجر البلوط تتوسطها مائدة طويلة مغطاة بمفرش من الجوخ الاخضر . وعلى اليمين واليسار صورة مكبرة للماركس وانكلز ولينين . وفي فترة الحرب اضيفت صور سوفوروف وكوتوزوف (من ابطال الحرب الروسي الفدائي ولهم في نفس الشعب الروسي منزلة خاصة فالاول قهر الانراك والثاني قهر نابليون ومن كلماته الخالدة التي قال زوكوف في مذكراته انها لا تزال الى اليوم شعار الجندي السوفيتي « ضح بنفسك لانقاذ رفيك ! » وكان اثاث الحجرة بسيطا وبعيدا عن الابهة ، وفي الحجرة المجاورة نموذج ضخم للكرة الارضية وبجواره منضدة ، وعلى الجدران خرائط للعالم .

وفي اخر حجرة المكتب بجوار الحائط كان يوجد مكتب ستالين الذي كانت تتكسد عليه دائما اكوام من الونائق والخطابات والخرائط ، وعلى المكتب بضعة اجهزة تليفونية . وفوق المكتب مقلّم بها مجموعة من الاقلام الملونة . وكان من عادة ستالين ان يضع بأشيراته باللون الازرق . كان يكتب بسرعة وبخط واسع لكنه واضح .

كان الداخل الى ستالين يمر عبر حجرة سكرتيره بوسكريستيف ومقر صغير لرئيس الحرس الشخصي للقائد الاعلى . ومن وراء غرفة المكتب غرفتان احدهما استراحة والاخرى للاتصالات التليفونية واللاسلكية وعن طريقهما كان السكرتير يوصل ستالين بقيادة الجبهات وغيرهم .

وعلى المائدة الطويلة كان رجال اركان الحرب والقيادة العليا يفردون الخرائط ويدلون بتقاريرهم . كانت العادة ان يدلي القيادة بتقاريرهم وقولا . وكانت عادة ستالين ان يستمع الى التقارير وهو يتمشى في ارجاء الحجرة ثم يقترب في بعض اللحظات من المائدة ويحدّق في الخرائط باهتمام ليتبين الموقف . ونادرا ما كان يتوجه الى مكتبه ليأخذ كيسا من التبغ ليفضه ويملا غليونه .

كانت المهمة الرئيسية للقيادة العليا تتلخص في اعداد المهمات الاستراتيجية التي توضع للتنفيذ امام الجبهات المختصة ، وتوزيع القوى والموارد على جبهات القتال وتخطيط وتحديد نشاط القوات المسلحة بوجه عام .

وكانت المسائل الصغيرة ذات الاهمية الاستراتيجية تناقش في حضور اعضاء لجنة الدفاع الوطني ، وقادة هيئة اركان الحرب ، وقواد الاسلحة ، وغيرهم من كبار المسؤولين العسكريين ، وكان قواد الجبهات يحضرون هذه الاجتماعات اذا كانت المناقشة تتعلق بامور تدخل في نطاق اختصاصهم .

وفي اجتماع القيادة العليا . كانت تسود الجو روح العمل الجدي ، وكان كل واحد يستطيع ان يدلي برأيه صراحة ، وكان ستالين يعامل الجميع بطريقة موحدة تتصف بالجدية والرسمية . وكان يجيد الاستماع حين تتلى عليه تقارير جوهرية .

وبالمناسبة فقد تأكدت طوال سنوات الحرب من ان ستالين لم يكن على الاطلاق الشخص الذي لا يمكن ان تطرح عليه اسئلة حادة ، ولم يكن الشخص الذي لا يمكن معارضته . بل كان من الممكن ان يتمسك المرء برأيه المعارض لرأي ستالين . واذا كان هناك من يؤكد عكس ذلك فاني اقول بصراحة : ان مزاجهم غير صحيحة .

كان ستالين لا يطبق الاجابات المائعة . كان يتطلب الوضوح والدقة الكاملة . ولم يكن من الممكن ان يذهب المرء اليه بخريطة عليها « بقعة واحدة بيضاء » ولم يكن من الممكن ان تدلى في حضرته بمعلومات تقريبية او مهولة .

كان ستالين يتمتع بقدرة خاصة على اكتشاف نقاط الضعف في التقارير او الوثائق . . . كان يلاحظها على الفور ويحاسب المسئول عن عدم توخي الدقة . . . واذا كان يتمتع بذاكرة حادة فانه لم يكن ينسى ما سبق ان قيل له ، ولم تكن تفوته فرصة لوم الآخرين على النسيان . ولهذا فقد كنا نحاول - قدر استطاعتنا في تلك الفترة - ان تعد له تقارير هيئة اركان الحرب بمنتهى العناية .

وصف ستالين

ويشيد المارشال زوكوف بأعضاء هيئة اركان الحرب بكفاءاتهم العالية ويقول انه طوال فترة الحرب لم يفقد حرارة الصلات الوثيقة بمعاونيه . اتيحت لي فرصة التعرف عن قرب علي يوسف ستالين بعد عام ١٩٤٠ حين عينت رئيسا لهيئة اركان الحرب ، وخاصة في فترة الحرب حين كنت اعمل مساعدا للقائد الاعلى . كثيرا ما كتبوا عن المظهر الخارجي لستالين . . غير طويل القامة ، غير

مثير للانتباه من الوهلة الاولى ، لكنه قوى التأثير في الناس ، وكان ابعده ما يكون من التصنع والادعاء ، وقادرا على استمالة جليسه اليه ببساطته الشديدة في التعامل مع الغير .

ان طبيعته المنطلقة في الحوار وقدرته على التعبير عن افكاره بدقة، وعقله التحليلي بالفطرة ، وحنكته الكبيرة ، وذاكرته الخارقة كانت ترغم حتى الشخصيات الكبير اهمية ومهارة على تركيز فكرهم وجمع شتات انفسهم قبيل التحدث الى ستالين .

لم يكن ستالين يطبق الجلوس طويلا وفي اثناء الحوار كان غالبا ما يتمشى في الحجرة ويقف من برهة الى اخرى ثم يقترب من جليسه ويقف ملقيا اليه نظرة فاحصة مباشرة تتميز بالصفاء والنفاذ . كان يتكلم بصوت خافت ومع فواصل محددة يبين كل عبارة واخرى . وفي خلال الحديث لم تكن تبدر منه تقريبا اية ايماءات وغالبا ما كان يمسك بغليونه في يده سواء كان مشتغلا ام لا ، وكان من عادائه ان يسوى شاربه بطرف غليونه .

كان يتكلم بلكنة جورجية ملحوظة . ولكنه كان يعرف اللغة الروسية بامتياز وكان يجب استخدام الاستعارة ، والامثال ، والتشبيهات الادبية .

كان ستالين نادرا ما يضحك ، واذا ضحك فبصوت خفيض يكاد الا يكون مسموعا لاحد غيره . لكنه كان يحسن تقدير النكات والقهقهات كان حادا للنظر ، يستطيع القراءة في اي وقت من النهار او الليل دون استعمال نظارة . وكقاعدة كان يكتب بنفسه... كان قارئا نهما وواسع الاطلاع في اكثر المجالات تنوعا . من الصعب القول اي الصفحات كانت في شخصيته ابرز مما هدها فهو قد كان انسانا متعدد الجوانب ، موهوبا وذو ارادة قوية .

كان في العادة هادئا رزين التفكير لكن هذا لا يمنع انه كان احيانا يستشيط غضبا . حينذاك كان يتخلى عن موضوعيته . كان هذا التحول يظهر على نحو تدريجي العين ، فيزداد وجهه شحوبا ، وتصبح نظراته ثقيلة وقاسية قليلون اولئك الشجعان الذين عرفت عنهم قنوتهم على احتمال الغضب الستاليني .

كانت حياة ستالين اليوم غير عادية . فقد كان يعمل اساسا في

المساء والليل . لم يكن يستيقظ قبل الثانية عشرة ظهرا . وكان يعمل وقتا طويلا يمتد من ١٢ - ١٥ ساعة في اليوم . وتمشيا مع برنامج الحياة اليومية لستالين كانت اللجنة المركزية ، ومجلس الوزراء ، والوزارات واجهزة التخطيط ودواوين الحكومة ، تعمل حتى وقت متأخر من الليل .

كان هذا ينهك الناس بشدة !

استطيع ان اكرر : كان ستالين باستمرار يدرس كثيرا مسائل التسليح والتكنيك الحربي وكان كثيرا ما يدمو كبار مصممي الطائرات والدبابات والمدافع ويسألهم في تفاصيل تصميماتهم لهذه الانواع من الاسلحة وتصميم النماذج المشابهة في الخارج . ويجب ان اعطيه حقه ، كان يفهم في نوعيات التسليح الرئيسية على نحو غير سيء .

ويدون موافقة ستالين لم يكن يستخدم اي نوع من الاسلحة والمعدات او يلقى استخدامه . وطبيعي كان هذا يعوق مباداة وزير الدفاع ومساعديه الذين يشرفون على شئون تسليح الجيش الاحمر .

قبل الحرب الوطنية العظمى وخاصة بعد الحرب كان يشار الى الدور العظيم الذي لعبه ستالين في انشاء القوات المسلحة ، ووضع اسس العلم العسكري السوفيتي ، والمبادئ الاساسية في مجال الاستراتيجية والعمليات ؟

لقد درست ستالين بمنتهى التفصيل كرجل عسكري . وذلك بحكم انني خضت الحرب كلها معه .

كان ستالين متمكنا من مسائل تنظيم العمليات الجبهوية والعمليات التي تشترك فيها عدة جبهات . وكان يقودها بمعرفة كاملة الامر . مع فهمه الجيد للمسائل الاستراتيجية الكبرى وقد بدأت مواهب ستالين كقائد عام تظهر على وجه خاص ابتداء بـ ستالينغراد .

لقد كان قادرا على العثور على الحلقة الرئيسية فـ في الوضع الاستراتيجي ، وعلى ان يبدي - قابضا عليها - مقاومة للعدو ، وان ينظم هذه او تلك من العمليات الهجومية الكبرى .

لا شك انه كان قائدا اعلى قدرا !

ويقول زوكوف انه كان ينسب لستالين شخصا وضع بعض المبادئ العسكرية السوفيتية في اساليب الهجوم بالدفعية ، وتحقيق

السيطرة الجوية ، واساليب تطويق العدو ، وتشتيت وحدات العدو المحاصرة ثم القضاء عليها فرادى والواقع ان هذه القضايا فسي الفن العسكري هي بمثابة ثمار جنيت في التطبيق ، في القتال والمعارك ، وهي حصيلة تفكير عميق وتعميم لخبرات مجموعة كبيرة من القوات والقادة .
« وفضل ستالين في ذلك انه اخذ بنصائح الخبراء العسكريين وطورها ووضعها في صيغة عامة في المراجع واللوائح والتوجيهات كما انه قدمها دون ابطاء للقوات للاسترشاد بها » .

« ومن ناحية تنظيم كل ما تحتاج اليه الجبهة فاني اقول صراحة انه كان موهبة تنظيمية عملاقة » .

وينهي زوكوف كلامه بواقعة مثيرة بينه وبين ستالين اذ كان كمفكر عسكري قد توصل الى ان الهجوم على موسكو لن يكون وشيكا ، وان الهجوم على ليننغراد سوف يتأخر حتى تحقق القوات الفاشية نصرا حاسما على الجبهة الوسطى ، وكان سقوطها لو حدث من شأنه ان يعرض موسكو للخطر .. وفكر في الحل فوجد ان « الممكن الوحيد في الوضع القائم هو انسحاب القوات السوفيتية الى ما وراء نهر الدنيبر تمهيدا للاستعداد لشن هجمات مضادة قوية ذات طابع استراتيجي . ولكن هذا الحل كان يعني ترك كييف عاصمة اوكرانيا . ويقول زوكوف انه كان يعلم كم كان هذا مؤلما للشعب السوفيتي وستالين .. لكنه لم يستسلم للنزعات العاطفية وعندما واجه ستالين بالحقيقة احتد النقاش بينهما - ما هذا الهراء .. كيف استطعت ان تصل في تفكيرك الى تسليم كييف للعدو ؟

- اذا كنتم تعتبرون ان رئيس هيئة اركان الحرب قادر فقط على الهواء فليس له هنا محل عندئذ . وانا اطلب امغاثي من رئاسة هيئة اركان الحرب وارسالي الى الجبهة فهناك - فيما يبدو - سوف اكون اكثر نفعاً للوطن !

- لا تنفعل .. وبالنسبة .. اذا كنت هكذا تطرح القضية فنحن بدونك نستطيع تدبير الامور .

- ان لي وجهة نظري الى الموقف ووسائل خوض الحرب . ولقد عرضتها كما تبدو لي وهيئة اركان الحرب .
- اذهب الى عملك . وسوف نتشاور هنا ثم نستدعيك .
فجمعت الخرائط وخرجت من الغرفة غاضبا ..

وبعد . { دقيكة استندميت لمقابلة القائد الاعلى
- تشاورنا في الامر وقررنا اعفاءك من مهام منصب رئيس هيئة اركان
الحرب . وسوف نعين شوبوشنيكوف بدلا منك - الواقع ان صحته ليست
على ما يرام .. ولكننا سنساعده .
- الى اين تأمرونني بالتوجه ؟
- والى اين ترغب ؟
- استطيع ان اؤدي اي عمل . استطيع ان اقود فرقة او جيشا
او جبهة .
- لا تنفعل .. لا تنفعل .. انت في تقريرك تحدثت عن تنظيم ضربات
مضادة في منطقة « يلين » فخذ على عاتقك هذه المهمة سوف نعينك قائدا
للجبهة الاحتياطية . متى تستطيع الرحيل ؟
- بعد ساعة ..
- ليكن في علمك انك لا تزال عضوا في مجلس القيادة العليا .
- اسمحوا لي بالانصراف
- اجلس لتناول الشاي معنا - ثم اخذ يبتسم - فسوف نتحدث في
بعض الموضوعات
جلسنا الى المائدة واخذنا نشرب الشاي غير ان الحديث لم يتم .

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

هنا يوسف (الروشي)

الفصل العاشر

من يلين الى لينينغراد

- بالسيف والسيف وحده - الاخطار في وجه العمليات العربية - تصورات ستالين عن
تطور العرب -

((لم امكث طويلا في مقر الازكان ... بل اخلت اتعرف
على المنطقة ...))

ما الذي كان يحترق ؟ لم اكن ادري . الا ان منظر
الحرائق كان يثير في نفسي انطباعات مريسة . ففي لهيب
النيران كانت تتبدد الثروة الوطنية وعمل الشعب السوفياتي
طوال سنوات عديدة . سالت نفسي : كيف وبماذا ينبغي ان
يود الشعب السوفياتي على العدو الذي يبلد الدمار في
طريقه الدموي ؟

لم يجعل بخاطري غير رد واحد .. بالسيف وبالسيف وحده
لا بد من ابادة العدو الشرير .

بعد مناقشة الموقف مع القواد ادركت ان العدو قد اتقن اقامة دفاعه
ولا بد انه سيقاوم بعنف . ففي الخطوط الامامية وفي الاعماق كان قد حفر
خنادق لدباباته ووحدات مدفعيته وحول بذلك منطقة لسان يلين الى منطقة
جيدة التحصين .

وفى العشرينات من شهر آب بدأت الضربة المضادة الرئيسية التي قام الجيش الرابع والعشرون بتسديدها الى قوات العدو . ونشبت معارك ضارية على خط القتال . لم تقف العمليات اثناء الليل والنهار . وكان التفوق لنا في الجو وكان العدو يسلط نيرانا كثيفة مركزة على مواقعنا . ويروي المارشال زوكوف كيف استطاعت احدى كتائب المشاة الاستيلاء على قرية فولوسكوفو لكنها بذلك وفعت فسي حصار . وبمساعدة الطيران وبعض وحدات الفرقة ١٠٧ استطاعت الكتيبة بعد قتال استمر دون توقف ثلاثة ايام من الخروج من الحصار بل القضاء على العدو والاستيلاء على محطة سكة حديد .

كم كانت مثل هذه الامثلة البطولية تكرر بجانبك ، ومن حولك ، وفي كل موقع ، في الليل والنهار .

دفع العدو ثمننا باهظا في الاحتفاظ بلسان « يلسن » كراس جسر . وابلغت ستالين بنتائج عملية « يلين » . دمرت للعدو خمس فرق ، وخسر ٤٧ - ٥٠ الف جندي ما بين قتل وجريح ، وكمية كبيرة جدا من المدافع والهاونات . ولكننا لم نتمكن من انجاز تطويق حشود العدو في لسان يلين . اذ لم تكن تتوفر لدينا الامكانيات الكافية .

وطاردنا العدو في ٧ ايلول حتى نهر ستريان وفي ٨ ايلول اصدرت تعليماتي بمواصلة التقدم الهجومي مع تنسيق الجهود مع مجموعة الجنرال سوبينكوف .

كنت قد ازددت يقينا بصحة موقفي فيما يتعلق بمستقبل العمليات . (الموقف الذي تسبب في اعفاء زوكوف من رئاسة اركان الحرب) وحيث انني كنت لا ازال عضوا في مجلس القيادة العليا فقد وجدت من واجبي ان اواصل اقناع القيادة برأيي .

في ١٨ آب ابرقت الى ستالين بما يلي :

« العدو يعدل مؤقتا عن الهجوم على موسكو لتاكده من وجود حشود كبيرة لقواتنا في الطريق الى العاصمة . وهو قد انتقل الى الدفاع ضد الجبهتين الغربية والاحتياطية موجها كل قوائمه الضاربة من الآليات المتحركة والدبابات ضد الجبهات الوسطى والجنوبية الغربية والجنوبية . والتخطيط المحتمل للعدو هو القضاء على الجبهة الوسطى والوصول الى منطقة تشرنيجوف - كونتوب - بريلوكي مع توجيه ضربة خلفية لجيوش الجبهة الجنوبية الغربية ، وبعد ذلك يبدأ الهجوم على موسكو .

ولقطع الطريق على هذا المخطط الخطير للعدو ارى من الضروري
والعاجل حشد قوات ضخمة في منطقة تشرنيجوف - كونتوب - بريلوكي .
وبهذه القوات يمكن توجيه ضربة الى جناح العدو المهاجم .
وفي اليوم التالي ١٩ آب تلقيت رد ستالين :
« تصورك فيما يتعلق بهجوم العدو المحتمل على منطقة تشرنيجوف -
كونتوب - بريلوكي هو في نظرنا صحيح ... تتخذ الاجراءات المناسبة .
يجري تكوين جبهة جديدة ... »

الى الجبهة

كنت اعلم ما هي القوة الحقيقية لجبهة برانسك الجديدة التي يجري
تكوينها على عجل ، ولذلك وجدت من الضروري ان الح على القائد الاعلى في
الامر بانسحاب جميع قوات الجناح اليميني للجبهة الجنوبية الغربية الى
ما وراء نهر دنيبر .
لكن نصائحى لم يؤخذ بها .

قال لي ستالين : انه تكلم منذ لحظات مع خروشوف وكيربونوسوف وان
هذين قد اقنعاه بأنه لا يجوز الانسحاب من مدينة كييف في الوضع الراهن
بأي حال من الاحوال . كان هو نفسه معتقدا ان جبهة برانسك اذا لم تقض
على العدو فاتها على الاقل سوف تعطل تقدمه .

ومعروف ان الجبهة الجنوبية الغربية قد دفعت فيما بعد ثمننا باهظا
لهذا الموقف غير القائم على التحليل الدقيق للوضع .

وفي ٨ ايلول استلمتاني ستالين .

- لا بأس بما فعلته في منطقة لسان « يلين » . كان الحق الى جانبك
عندما ناقشنا الامر من قبل (يقصد يوم المناقشة الحادة) والى أين تريد
الآن ان تتوجه ؟

- الى الجبهة مرة اخرى .

- الى أي جبهة ؟

- الجبهة التي ترونها .

- توجه الى مشارف ليننغراد . فليتنفراد تعاني الآن من وضع حرج
... ان الالمان لو تمكنوا من الاستيلاء على ليننغراد فانهم سوف يلتحمون
بالفنلنديين ويبدأون في توجيه الضربات في اتجاه موسكو من الشمال
الشرقي . مما يزيد الوضع تدهورا .

- اوافق على السفر فورا . ارجو السماح لسي باصطحاب اثنين او
ثلاثة من الجنرالات لاحتلالهم محل القواد المنهكين .

— خذ معك من تشاء — ثم تنهد قليلا واضاف — الوضع يتدهور في
الجهة الجنوبية الغربية . وقد قررنا تغيير القيادة . فمن الذي يمكنك
ترشيحه .

— ان المارشال تيموشنكو قد اكتسب خبرة كبيرة في تنظيم العمليات
وهو يعرف اوكرانيا جيدا . ولذلك اقترح ارساله .
تأهبت للخروج حين سألني ستالين :

— كيف تتصور الخطط المقبلة وامكانيات العدو .
— في هذه اللحظة ارى ان الجهة الجنوبية الغربية هي منطقة الخطر
الاولى بعد ليننغراد . انني اكرر اقتراحي بسحب جميع القوات الى الضفة
الشرقية لنهر الدنيبر . وعلى اساسها ينبغي تكوين قوات احتياطية فسي
مكان ما من منطقة كونتوب .

— وما هو مصير كييف ؟
— مهما كان الامر مؤلما فلا بد من اخلاء كييف . ليس امامنا مخرج آخر .

العمود سبيل النصر

وقبل توجهي الى ليننغراد قمت بزيارة فاسيليفسكي الذي كان وقتها
المساعد الاول لرئيس هيئة اركان الحرب وسألته عن الوضع فيما يتعلق
بالاتجاه الجنوبي الغربي فاجاب :

— اعتقد اننا تأخرنا جدا في سحب قواتنا الى ما وراء الدنيبر . .
وهنا اريد ان اقطع تسلسل الاحداث من شهر ونصف مرير منذ بدأ
الحرب كانت خسائرنا فادحة في اليوم الاول فقط من الحرب خسرت القوات
المتحركة بمناطق الحدود ما يقرب من ١٢٠٠ طائرة وكان العدو بدباباه
ومدرعانه وطائراته يتقدم ليهاجم تجمعاتنا ويضرب اجنحتها ويدمر خطوط
وشبكات المواصلات . وراح ضحية ذلك عشرات الآلاف من الجنود
والمواطنين السوفيات .

ومع ذلك فمنذ البداية لم تكن الاحداث وفق حسابات وتقديرات
القيادة الالمانية . فما الذي عاق توغل الالمان في بلادنا بالمدل السريع الذي
توقعوه ؟ البطولة الجماعية لقواتنا ، ومقاومتهم المستميتة وصمودهم
الباسل ، والوطنية لدى الجيش والشعب .

ان التاريخ والعصر يقدمان امثلة غير قليلة لقوات فقدت قدرتها على
المقاومة ولاذت سريعا بالفرار ملقية اسلحة ممتازة فلا احد يستطيع ان يرسم
خطوطا فاصلة بين دور السلاح والمعدات الحربية وبين دور الروح المعنوية

للقوات . الا انه بالتاكيد ، اذا تساوت الامكانيات تكون الغلبة فسي المارك
الكبرى والحروب من نصيب القوات التي تتسلح بارادة في النصر لا تقهر ،
وبادراك الهدف من القتال وبالتماسك الروحي ، وبالاخلاص للرايات التي
تحارب تحت ظلها .

وفي هذا المجال ارى من المناسب ان اعطي الكلمة للعدو الذي واجهناه
في الحرب الوطنية العظمى (اشرنا من قبل الى ان الحرب العالمية الثانية
تطلق عليها هذه التسمية في الاتحاد السوفياتي) .

يشكو الجنرال كورت مدير المخابرات العامة الالمانية من ضعف امكانيات
التجسس على الاتحاد السوفياتي مما جعل « تقدير القوة العسكرية للاتحاد
السوفياتي ولو على نحو تقريبي مهمة تكاد تكون مستحيلة التحقيق » . .
« ولقد كانت الدوائر السياسية في المانيا نامل بشدة ان تنهار الدولة
السوفياتية بعد بضع هزائم عسكرية كبرى » . . . « لقد تاهب الاتحاد
السوفياتي للصدام المسلح على قدر استطاعته . ولم تكن القيادة الالمانية
تستطيع الاعتماد على المفاجأة الاستراتيجية وكان اقصى ما يمكن ان نصل
اليه هو ان نحفظ بسرية موعد الهجوم ، لكي تساعدنا المفاجأة التكتيكية على
التوغل في اراضي العدو » . . . « وكان الهدف الرئيسي لخطة بارباروس -
يتلخص في تدمير القوات الروسية للجيش الروسي الموجود في المنطقة
الغربية من روسيا (كان الاصح ان يقال : « . . . من الاتحاد السوفياتي فهذه
المنطقة تضم عده جمهوريات قومية مثل اوكرانيا وبلوروسيا ، ولاتفيا
ولوتوانيا . . .) ، ودق عدة اسافين ، بواسطة الدبابات والمدفعات التي
توغل في عمليات سريعة شجاعة لتقطع الطريق على القوات السوفياتية
القادرة على القتال للحيلولة دون انسحابها المنظم الى اعماق الاراضي
الروسية الشاسعة . وكان على القوات الالمانية ان تتقدم الى المدى الذي
يجعل القوات الجوية السوفياتية تتأخر عن القيام بغارات جوية على الاراضي
الالمانية وكان الهدف النهائي للعملية هو الوصول الى خط « الفولجا -
ارخانجل » لكي تتمكن القوات الجوية الالمانية اذا استلهم الامر - من شل
المنطقة الصناعية الوحيدة المتبقية لدى روسيا .

وتتصف هذه الخطة بالتفاؤل الذي ينبغي تفسيره بالزهو الذي نشأ عن
الانتصارات السريعة على فرنسا . . . وجاراتها . ولهذا فهي تتوقع من العدو دورا
سلبيا كذلك الذي شهدته المانيا في حروبها السابقة « . . . » لم يكن لدى
هتلر اي شك في ان عملية واحدة تكفي للقضاء على الاتحاد السوفياتي . . .

« لقد أبدى العدو قدرة على المقاومة لا نظير لها على الإطلاق . ان الخسائر الفادحة التي تكبدها ليس فقط في صيف ١٩٤١ بل وفي فترة الهجوم الشتوي الذي شاركت فيه مجموعات ضخمة من القوات لم تكن قادرة على تحطيم صلابة الجيش الاحمر . فقد كان لا يزال لديه عدد كاف من الكادرات القيادية للبدء في تكوين تشكيلات جديدة وتدريبها على القتال .

الحرب العالمية الثانية

وفي كتابه « الحرب العالمية الثانية » يستشهد ف. س. فوللير باقوال الصحافة الالمانية في ٢٩ حزيران ١٩٤١ ومن بينها ما جاء بصحيفة « فيولكشير بيوباختر » : « يتفوق الجندي الروسي على عدونا في القرب بازدرائه للموت ، فاحتماله وتعصبه يدفعانه الى الصمود حتى يقتل في مخبئه او يسقط في قتال بالسلاح الابيض » .

وفي صحيفة « فرانكفورتر تسيتونج » قيل في ٦ تموز : « ان التسلل النفسي الذي كان يترتب في القرب عادة على ابر التوفل الخاطف لم يلاحظ الى هذا الحد في الشرق » . ففي معظم الحالات لم يكن العدو فقط يحتفظ بقدرته على التحرك بل كان بدوره يحاول ان يطوق الكماشات الالمانية (يعني الالتفاف المضاد) . ولقد كان هذا الى حد ما ظاهرة جديدة في التكتيك الحربي وهو ما كان مفاجأة لم يتوقعها الالمان .

وفي المذكرات اليومية لرئيس اركان حرب القوات البرية لالمانيا الفاسية الجنرال جالدر جاء ما يلي :

« ٨ تموز ١٩٤١ : اليوم السابع عشر من بداية الحرب : الساعة ١٢.٠٠ تقرير الى الفوهرر في مقر قيادته العليا . شرح قائد القوات البرية اخر تطورات الموقف على الجبهة ثم القيت انا تقريري عن وضع العدو ووضع قواتنا . اسفرت المناقشة عما يلي :

١ - يرى الفوهرر ان الحل المطلوب والامثل هو ان تقوم قوات جيش « الوسط » بمحاصرة قوات العدو المواجهة لها والقضاء عليها . ثم فتح الطريق الى موسكو .

٢ - يقرر الفوهرر بحسم قاطع اقتلاع موسكو وليننغراد من الارض حتى يتم التخلص نهائيا من سكان هاتين المدينتين . والا فاننا سنكون مضطرين لاطعامهم فيما بعد طوال فترة الشتاء . على الطيران ان يتكفل

بمهمة سحق المدينتين . لا دامي لتدخل الدبابات في تحقيق هذا الهدف .
ويعترف جالدور في مذكراته اليومية بالخسائر الباهظة التي منيت بها
القوات الألمانية « في الشهرين الاولين فقط من الحرب فقدت القوات البرية
الألمانية زهاء ٤٠٠ الف جندي » ويشير المارشال زوكوف الى ان « القوات
الألمانية المقاتلة فقدت في الفترة من حزيران السى كانون الاول ١٩٤١ على
جميع الجبهات الاخرى عدا الجبهة الألمانية السوفياتية قرابة ٩ الاف جندي
فقط (١) ثم ارتفعت خسائر العدو حتى نهاية عمليات الصيف والخريف الى
٨٠٠ الف جندي » .

كل هذا على الرغم من الظروف السيئة التي صادفتنا . فالخبرة القتالية
كانت متوفرة لدى العدو الذي كان يخوض الحرب منذ فترة طويلة ، وكانت
المبادأة في يد العدو الذي شن هجومه الفادر ، كما كان التفوق في جانبه
كما وكيفا حيث انه قد استعد طويلا لشن الحرب وطور كثيرا من اسلحته
ومكن قواته الى حد بعيد . كذلك فقد كان لدى العدو تفوق بارز في
الامكانيات والموارد الاقتصادية خاصة بعد اجتياحه لاوروبا .

ثم يعود المارشال زوكوف في مذكراته الى تكليفه بقيادة الجبهة في
منطقة ليننغراد فيقول انه استقل الطائرة الى موقعه الجديد في ٩ ايلول
١٩٤١ .

« في تلك الفترة كانت ليننغراد بالفعل تمر بفترة عصيبة . ولقد كان
وضع القوات والمواطنين شاقا الى حد اعتقد معه ان احدا غير المواطنين
السوفيات لم يكن على الاغلب يستطيع ان يتحملة .

وحين نتذكر نحن الذين بقينا على قيد الحياة تلك الايام فانه لا يسعنا
الا ان نحني الرؤوس احتراما عميقا للذكرى المشرقة التي خلدها اولئك الذين
وهبوا اتمن ما يملكه البشر . . وهبوا حياتهم فداء للوطن وللمستقبل الاجيال
اللاحقة .

ففي نهاية آب كانت القوات الألمانية قد تمكنت من محاصرة ليننغراد بحيث لم
يبق للمدينة اتصال بالوطن الصامد الا عن طريق الجو وبحيرة لادوجا . وكان
الفنلنديون يتحينون الفرصة للهجوم على المدينة من الشمال .

وصلت وبصحبتي الجنرال جوزين والجنرال فيديونينسكي الى قصر
سمولني حيث مقر اركان حرب جبهة ليننغراد . وواقفنا الحرس ومنعنا من
الدخول وعشنا حاولت تعريفه بنفسى اذ لم يكن معنا تصريح بالدخول . تلك
هي الخدمة العسكرية ؟ (كان قصر سمولني هو مقر قيادة ثورة اكتوبر
الاشتراكية عام ١٩١٧) .

وحين دخلت مقر اركان الحرب كان النقاش يدور بين اعضاء المجلس العسكري للجبهة عن الاجراءات التي يتحتم عملها اذا قُدر ليننغراد ان تسقط في قبضة الغزاة الالمان ، والمنشآت العسكرية التي يجب تدميرها في هذه الحالة .

في مساء ١٠ تشرين الاول ١٩٤١ تسلم المارشال زوكوف قيادة الجبهة وعلى الفور وضع بمساعدة عدد من القواد (استشهد معظم من ذكرهم) خطة دقيقة للدفاع عن مدينة ليننغراد « مهد » ثورة اكتوبر وحاملة اسم الزعيم « لينين » . « جراد » بالروسية تعني مدينة ومن هنا تأتي تسمية بعض المدن بأسماء قادة الثورة مثل ليننغراد وستالينغراد الخ . .

« بعد ٩٠٠ يوم من الصمود عاشها الجيش الاحمر ، والاسطول ، وسكان ليننغراد الجبلية . فلا التضحيات الهائلة ولا الجوع ولا البرد استطاع ان يقل عزيمة وبسالة المدافعين عن مدينة لينين كانت اللجنة المركزية للحزب تتابع الموقف في ليننغراد يوميا وتعبيء كافة الامكانيات والوارد لمساعدة المدينة المحاصرة . لقد اصبحت بطولة ليننغراد اسطورة . كان بودي ان اصف بالتفصيل كل ما دار طيلة الايام التسعمائة العصيبة ولكنني ببساطة لا اجد الكلمات المناسبة للتعبير عن بطولة حماة ليننغراد . واني لافخر بتكليفي قائدا لجبهة ليننغراد في الفترة التي اصبح العدو فيها على مشارف المدينة المهددة بخطر مميت .

وفي كانون الثاني ١٩٤٣ كلفتني لجنة الدفاع الوطني بتنسيق الجهد مع فورشيوف لكي نقوم جبهتا ليننغراد وفولخوف بعملية مشتركة لرفع الحصار عن ليننغراد .

كل هذا قد زاد ارتباطي بليننغراد ومواطنيها الذين شعرت ازاءهم ولا زلت اشعر باكبر درجات الاحترام .

كتب الكثير عن بطولة ليننغراد الخارقة لكنني ارى انه لا بد من اصدار سلسلة من الكتب - الملاحم عن ليننغراد وبقية المدن - البطلة (« مدينة - بطلة » . . هو لقب حازت عليه بضع مدن سوفياتية تقديرا لبطولتها فسي الحرب العالمية الثانية ومن بينها موسكو وليننغراد وستالينغراد) . ولا بد ان تكون هذه الكتب - الملاحم مزودة بالصور وفي طباعة انيقة ، ومبنية قبل كل شيء على المواد الحقيقية الوثائقية وان تسجل الاحداث فيها باخلاص وصدق . . لدينا ما يسمى بالمدن - الشقيقة ، « والمدن الرفيقة » الخ هذه المسميات . . ولكن المدن - البطلة ليست كثيرة العدد جدا وهي موجودة في بلادنا السوفياتية .

الفصل الحادي عشر

معركة الدفاع عن موسكو

- اعلان على ابواب موسكو .. - احرق اعلان قريتي .. « بيت امي » . - من الذي يقول « لا » لهتلر . -

في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٤١ ، اتصل ستالين بللار شال زوكوف وطلب منه الحضور الى موسكو بالطائرة ، لآخذ رايه فيما ينبغي عمله ازاء تدهور الوضع على الجناح الايسر من الجبهة الاحتياطية . ولكن الاحداث على الجبهة تطورت على نحو منع زوكوف من السفر الى موسكو واتصل به ستالين مرة اخرى في ٦ تشرين الاول سنة ١٩٤١ . . .

- ما هي تطورات الوضع عندكم ؟ وما الجديد في تحركات العدو ؟
- خفف الالمان حدة الهجوم ، وبناء على استجابات الاسرى ، فان قواتهم قد تكبدت خسائر جسيمة في معارك ايلول ، اتخذت على اثرها مواقع الدفاع في ضواحي ليننغراد . ويسلط العدو الان نيرانه على المدينة بالطيران والمدفعية ، وقد رصدت طائراتنا الاستطلاعية تحركات كبيرة لدبابات العدو وطواير مدرعته من ليننغراد في اتجاه الجنوب . والغالب انها تتجه نحو موسكو .

كرر ستالين مطلبه بحضور زوكوف فوراً الى موسكو وتعيين غيره في قيادة الجبهة مؤقتاً .

ويقول زوكوف : « دعوت اعضاء المجلس العسكري لجبهة ليننغراد ، جدانوف ، كوزنيتسوف ، شتيكوف ، كابوستين ، سولوفيوف ، الذين عملت معهم بروح الصداقة الوطيدة اثناء الايام العصيبة للدفاع عن ليننغراد » .

في ٧ تشرين الاول ، توجه زوكوف الى مقابلة ستالين في مسكنه الخاص بالكرملين ، نظراً لانه كان وقتها مصاباً بانفلونزا ، واخبره ستالين بأن القيادة لا تعرف الوضع الحقيقي في الجبهة الغربية ، ولهذا فهي لا تستطيع ان تتخذ اي قرارات محددة ، وطلب منه ان يسافر على الفور الى هناك ليدرس الموقف على الطبيعة ويتصل به من هناك في اي وقت ، فسوف يكون في انتظار مكالمته .

وفي الطريق كنت ادرس الوضع على الخريطة في ضوء بطارية جيب . . وحتى لا يغلبني النعاس كنت من وقت الى آخر اوقف السيارة . . واجرى على قدمي برهة سيرة .

وهناك تدارست الموقف مع القادة . فما الذي حدث على الجبهة الغربية . حتى بداية الهجوم في اتجاه موسكو ، كانت المداخل البعيدة الى العاصمة محصنة بثلاث جبهات : الغربية بقيادة الجنرال كونيوف ، والاحتياطي بقيادة المارشال بوديوني ، وبرانسك بقيادة الجنرال يريمتكو . وفي نهاية ايلول كان تحت تصرف هذه الجبهات قرابة ٨٠٠ الف من انشط المقاتلين ، و ٧٨٢ دبابة ، و ٦٨٠٨ مدافع ميدان وهاونات ، و ٥٤٥ طائرة . وكانت اكثر القوى والموارد تحت تصرف الجبهة الغربية .

وفي اثناء الاستعداد للهجوم على موسكو ، كانت حشود العدو قد تفوقت على حشود جبهاتنا الثلاث ، بما يعادل ١٢٥ مرة في المشاة ، ٢٢ مرة في الدبابات ، ٢١ مرة في المدافع والهاونات ، ١٧ مرة في الطائرات . وفي ٢٠ ايلول شن العدو هجومه على جبهة برانسك ثم في ٢ تشرين الاول امتد الهجوم الى الجبهتين الغربية والاحتياطية . . وبعد ضربات قوية للعدو على الجبهات الثلاث ، استطاعت قواته الضاربة ان تتقدم الى الامام . ومن الشمال والجنوب استطاعت ان توقع مجموعة من قوات الجبهتين الغربية والاحتياطية في حركة كماشة . وتقدمت قوات العدو بقيادة جودريان نحو الجنوب ، فاستولت على مدينة اول ، حيث لم تكن لدينا قوات كافية لصد الهجوم ، واصبحت قوات الجيشين الثالث والثالث عشر التابعين

للجبهة الغربية في وضع حرج يهددها بالوقوع في الحصار . وقد تم للعدو اختراق جبهة برانسك ، التي تكبدت خسائر جسيمة ، واضطرت الى الانسحاب في سلسلة من المارك .

واصبح الوضع خطيرا في الطريق الى تولا .

يرداد الجيش الالماني اقترابا من العاصمة السوفياتية . وفي فجر ٦ تشرين الاول ، وقعت في الحصار غربي نهر فيازما مجموعة كبيرة من قوات جبهة برانسك ، والجبهة الغربية . . . وفي رأيي ان قواتنا كانت تستطيع تفادي الكارثة لو انها استطاعت بتحليل الموقف جيدا ، ان تكتشف اتجاه ضربات العدو المركزة وتعبئ قواتها على نحو يمكنها من صد الهجوم . .

في الثانية والنصف فجر يوم ٨ تشرين الاول ابلغت ستالين - وكان ساعتها يقظا - بانني ارى الخطر الرئيسي الان في ضصف دفاعنا من ناحية ماجايسك ، وانه يتحتم تدعيم هذه المنطقة بقوات من اي مكان . والا فاننا لن نفلجا اذا ظهر العدو على مشارف موسكو .

ثم اتفقت مع ستالين ، على ان اذهب للبحث عن مقر قيادة بوديوني ، وان اتصل به من هناك ، وفي صباح ٨ تشرين اول وصلنا الى اوبنينسكوبا (على بعد ١٠٥ كيلو مترات من موسكو) ، وراينا جنديي لاسكلي يمدان سلكا من فوق جسر على نهر بروتفا فسالتهما :

- الى اين تمدان السلك يا رفاق ؟

فاجابني جندي فاره الطول ، دون ان يصبرني اي التفات :

- نمده الى حيث امرنا .

واضطرت الى تعريفه بنفسي ، وبحثني عن مقر قيادة بوديوني ، وحينئذ نصب الجندي قامته واستدرك :

- معذرة ايها الرفيق الفريق اول. نحن لم نعرفك شخصا من قبل، ولهذا اجبتك على ذلك النحو - ثم دلنا على موقع القيادة - .

قابلت رئيس الاركان الجنرال مخلص الذي افادني ان القائد غير معروف مكانه واظهر تخوفه من ان يكون قد جرى مكروه للمارشال بوديوني، خصوصا وانه كان بالنهار بين قوات الجيش الثالث والاربعين ، وفهمت ان رئيس الاركان يحاول تجميع الوحدات المشتتة تمهيدا لاعادة تسليحها وتشكيلها . ولم اصل الى معلومات قيمة عن آخر تطورات الموقع ، فقررت ان اقوم بنفسي بجولة تفقدية .

وحين عبرت نهر بروتفا ، عادت الى ذاكرتي سنوات طفولتي . كنت

اصرف هذه الاماكن جيدا ، ذلك انني في باكورة صباي قد تجولت فسي انحائها بالطول وبالعرض . فعلى بعد ١٠ كيلومترات من مقر قيادة الجبهة الاحتياطية تقع قريتي ستريلوكفا . . هناك لا زالت تعيش امي ، واختي بابنائها الاربعة . كيف تراهم الان ؟ ماذا لو مررت بهم ؟ لا . . ليس في الامكان . الوقت لا يسمح . ما الذي يمكن ان يلهم بهم لو وقعت القرية تحت الاحتلال الفاشي ؟ وما الذي يمكن ان يفعله الفاشيست بهم لو عرفوا انهم اقارب الفريق اول زوكوف ؟ لا بد انهم سيطلقون عليهم الرصاص . ينبغي ان انقلهم الى منزلي في موسكو في اقرب فرصة ممكنة .

وبعد اسبوعين احتل الفاشيست قرية ستريلوكفا . ولكن ابناء بلدتي لم يجلسوا وايديهم على صدورهم . فقد نظموا فصيلة من الفدائيين الذين شنوا كثيرا من الهجمات الجسورة على اركان حرب ، ومواقع ، ومناطق شئون ادارية للعدو . وفي احدى المرات دمروا مقر اركان حرب فيلق من قوات الفزو .

وعندما اضطر الالمان للانسحاب اشعلوا النيران في القرى ، ومن بينها ستريلوكفا . والتهمت النيران بيت امي . . .

البحث عن جبهة

ويروى زوكوف ذكريات مثيرة عن بحثه اللاهث عن انقاض جبهة كاملة ، وكيف كان هو رئيس الاركان السابق وعضو القيادة العليا ، وقائد جبهة ليننغراد ، يبحث غير بعيد من موسكو عن قوات كبيرة فرقتها ضربات العدو ، لكنها لم تقتل فيها روح الغداء والاصرار على القتال وهو يعثر على المارشال بوديوني في مدينة تبدو خاوية من كل سكانها ، فاذا بوديوني لا يعرف اين المقر الجديد الذي انتقلت اليه قيادته ، واذا به يصادف قوات صغيرة ، قوامها بضع مئات من الرجال تتحدى فرقة باكملها ، واذا به في احدى الغابات يتوقف على صوت جندي يحذر من مواصلة المسير . فالالمان على بعد كيلومترات ، ويكشف ان الجندي يتبع لواء دبابات باكملة استطاع ان ينسحب بانتظام واختار له قائده موقعا تصور ان القتال لا بد ان يجري من حوله ، واذا به يسمع من مدينة كان الطريق اليها خاليا الا من شرطيين اثنين فقط ، ويقف على اخبار فرق وفيالق محاصرة لكنها لا تزال تقاوم ، بل وتقوم داخل الحصار بهجمات مضادة . وليس يشغل بالها قوادا وجنودا الا امر واحد هو الخروج من نطاق الحصار ليس طمعا في النجاة ، بل تطلعا

الى الالتحام مع بقية قوات جبهتها لمواصلة المعركة ، واذا به يشهد معارك محدودة لكنها ببسالة الرجال القلائل قد لعبت دورا عظيما في وقت زحف قوات العدو نحو العاصمة .

ويصف كيف كان في طريقه يتوقف من حين الى حين ليدرك ان كان ينطلق الى ارض محتلة ام الى ارض صامدة ، خشية ان يقع في ايدي العدو ، ويرسم زوكوف لوحات انسانية مؤثرة لجدة تبحث بين انقاض بيت عن شيء ما . . واذا كانت عجوزا متهاككة ، فقد اشفق عليها وتوقف ليسألها عن امرها ، فأهل المدينة كانوا قد رحلوا عنها ، فاذا امرأة اخرى تبحث هي الاخرى عن شيء ما . . فاما العجوز فكانت تملا من البشر اثناء حين قصف طيران العدو بيوت المدينة ، ورات بعينها كيف اتهار البيت الذي كان فيه وقتها حفيدان لها . وجنت العجوز . . وتركها المارشال حزينا وهي تواصل بين الانقاض بحثها عن الطفلين . . واما المرأة الثانية فكانت تبحث بين انقاض بيتها عن شيء قد يفيدها من ملابس او خلافة .

ثم يعود المارشال زوكوف الى سرد ذكرياته من الحرب . . فيقول انه في كالوجا ، تلقى اشارة تليفونية من رئيس هيئة لركان الحرب ، يطلب فيها منه ان يذهب الى رئاسة اركان حرب الجبهة الغربية وينتظر مكالمة من ستالين في ١٠ تشرين اول . وفي الوقت المحدد اتصل به ستالين :
- قررت القيادة تعيينك قائدا للجبهة الغربية . . هل لديك اعتراض ؟
- كلا . . لا يمكن ان يكون لدى اعتراض . . فقط ارجو ارسال مزيد من القوات الاحتياطية ، حيث ان العدو يحتمل ان يطور في القريب ضرباته في اتجاه موسكو .

اللقاومة الخارقة

ويقول زوكوف انه شرع على الفور في تنظيم الاجراءات الضرورية لاقامة خط دفاعي متماسك ومدعم بمؤخرة قوية ، وفي تأمين التسليح والامدادات ، « واهم من ذلك كله تنظيم العمل الحزبي السياسي لرفع الروح المعنوية للمقاتلين ، وتأكيد ثقتهم في قوتهم ، وفي حتمية قهر العدو على مشارف موسكو . »

« كانت الجبهة تشهد عملا متواترا طوال الليل والنهار ، وكان الناس يسقطون من الإرهاق وقلة النوم ، ولكنهم مدفوعون بالاحساس بالمسئولية الشخصية عن مصير موسكو ومصير الوطن ، قد بدلوا جهودا جبارة لبناء خطوط دفاع قوية تحول دون الوصول الى موسكو . »

وفي مساء ٧ تشرين اول ، بدأت القيادة العليا تدفع الى الجبهة بقوات كبيرة ، تكونت منها اربعة جيوش قوامها ٩٠ الف مقاتل . وبالطبع فقد كانت هذه القوات غير كافية لاقامة خطوط دفاع متينة على امتداد الجبهة ، ولكن القيادة العليا لم تكن وقتها قادرة على تقديم مزيد من القوات ، ولاسيباب عديدة كان قد تأخر استحضار قوات اضافية من الشرق الاقصى (المقصود بالشرق الاقصى هو المناطق السوفيتية المتاخمة لحدود اليابان والصين) .

وهكذا كانت الجبهة الغربية قد تكونت - في واقع الامر - من جديد . تلك الجبهة التي وضع التاريخ على كاهلها عبئا مضميا ... الدفاع عن موسكو . وحتى هذا الوقت كانت القوات المحاصرة لا تزال تواصل القتال المرير . . . حتى تستنزف قدرات العدو على فرو موسكو . ومنذ ١٣ تشرين اول ، اشتعل القتال الضاري في كل الاتجاهات الهامة المؤدية الى موسكو .

لقد كانت اياما عصيبة بحق !

وانضمت اللجنة المركزية ولجنة الدفاع الوطني قرارا بتهجير السلك الدبلوماسي ، وعدد من المؤسسات الحكومية المركزية من موسكو الى كوبيشيف . وكذلك بنقل النفائس ذات الاهمية الخاصة . ويوما بعد يوم كانت الغارات الجوية على موسكو تزداد شدة ، حتى لم يكن مساء واحد يخلو من الغارات . ولكن الحزب في ذاك الوقت كان قد فعل الكثير من اجل تلميم قوات الدفاع الجوي ، وكان ملايين السكان في موسكو قد خاضوا ، بناء على تعليمات الحزب تدريبا على الوقاية الدائية من القصف الجوي . . حتى لم يمد « الوهيج » يخيف الموسكوفيين . ومنذ ٢٠ تشرين الاول ، اعلنت في موسكو وضواحيها حالة الطوارئ . وطبق داخل الوحدات المدافعة عن موسكو نظام في غاية الصرامة . وكانت الاجراءات الحاسمة تتخذ في حالة المخالفات الجدية للقوانين . كذلك فقد قطع سكان موسكو الطريق على اولئك الذين يسهلون مهمة العدو بالاراء الفزع .

لقد واجهت العاصمة الخطر المحقق بها ببطولة . وكانت نداءات اللجنة المركزية بسحق العدو مفهومه للموسكوفيين والمقاتلين ، وكافة الشعب السوفيتي . ووجدت هذه النداءات صدى عميقا لها في افئدة الناس . لقد احال الموسكوفيون العاصمة والمشارف المطلة عليها الى قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها . ولمواجهة كافة الاحتمالات ، فقد كون الشعب العامل في

موسكو مئات الكتائب المسلحة وفصائل المقاومة ومجموعات المقاومة الانتحارية للدبابات . وفي وقت واحد كان ١٠٠ ألف من مواطني موسكو يتدربون على السلاح دون الانقطاع عن الانتاج . ان العمل المتعدد الجوانب للشيوعيين في موسكو وضواحيها ، من اجل توحيد قوى الشعب العامل في الدفاع عن موسكو ضد العدو الشرير قد امتزج باللمحة البطولية . وبمبادأة شعب موسكو ، كان المتطوعون في الشهور الاولى من الحرب قد شكلوا خمس فرق للمقاومة الشعبية للدفاع والهجوم كان المتطوعون من مختلف المهن والاممار ، لكن شيئا مشتركا كان يجمع بينهم ، وهو الصلابة المتناهية ، والايان بالنصر . وهل هي مجرد صدفة ان كثيرين من المتطوعين لقوات المقاومة الشعبية قد التحقوا بالقوات المسلحة - بعد ان احسن تدريبهم - وكانوا من خيرة المقاتلين في التشكيلات العسكرية .

وتلبية لنداء اللجنة المركزية ، تطوع الآلاف من الشيوعيين والكممول - من موسكو وغيرها من المدن - للالتحاق بالجبهة كموجهين سياسيين ، وفي الوقت نفسه فانهم في القتال قد رفعوا الروح المعنوية بقوة المثال .

ايها الرفاق

وفي ايام تشرين الاول المصيبة ، وجه المجلس العسكري للجبهة الغربية نداء الى القوات جاء فيه :

« ايها الرفاق : ان حياة كل منا هي ملك الوطن ، في هذه الساعة التي تتعرض دولتنا فيها للخطر الرهيب . ان الوطن يتطلب من كل فرد منا اقصى ما يقدر عليه من صلابة ، ورجولة ، وبطولة . . ان الوطن ينادينا لان نقف سدا منيعا في طريق قطعان الفاشيست الى موسكو الحبيبة . ان الوقت - كما لم يحدث من قبل - يفرض علينا اليقظة ، والانضباط الحديدي ، والتنظيم ، والعمل الحاسم ، والاصرار العنيد على النصر والاستعداد للتضحية بالذات » .

كانت الاحداث الحاسمة تقترب .

ونظرا لان خط دفاع موجايسك - مالاو يارسلافيتس - سيريوخوف ، كان قد دم بقوات ليست على قدر كبير من القوة ، ولان العدو كان قد سيطر على بعض مواقعه ، وخوفا من ان يخترقه العدو في الطريق الى موسكو ، فقد قررت قيادة الجبهة ، الانتقال الى خط الدفاع التالي . ولما

كان الخط التالي أكثر امتدادا مما يصعب السيطرة على جميع القوات أثناء القتال ، فقد وافقت القيادة العليا على اقتراح الجبهة الغربية يضم جيوشها الثاني والعشرين ، والتاسع والعشرين ، والثلاثين ، والحادي والثلاثين ، الى قوات جبهة كاليفين التي يجري تكوينها جديدا تحت قيادة الجنرال كونيوف .

كان وضع جبهة برانسك لا يزال سيئا نظرا لان معظم قوات الجبهة كانت محاصرة . وبعد معارك بطولية استطاعت هذه القوات ان تخرج من نطاق الحصار المضروب حولها . ولكن طلائع جيش جودريان انطلقت في مطاردة لقوات جبهة برانسك ، حتى وصلت الى مشارف مدينة تولا . (تبعد عن موسكو حوالي ٢٥٠ كيلومترا ، وفي ضواحيها عاش كاتب روسيا العظيم ليف تولستوي) .

قام العدو طوال شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، بمحاولات مستميتة للاستيلاء على مدينة تولا ، وبذلك يشق طريقه الى موسكو من ناحية الجنوب . غير انه فشل في ذلك ، كانت تولا تقف في وجه العدو كقلعة شامخة الاسوار . لقد قيدت تولا بذلك اقدام وايدي كل الجناح الايمن للقوات الالمانية ، مما اضطر العدو الى مواصلة تقدمه من وراء المدينة دون مزيد من الاصرار على اقتحامها ، ولهذا السبب كان العدو مرغما على نشر قواته مما افقدها الكثافة التي تميز بها جيش جودريان في عملياته التكتيكية . لقد كان لتولا وسكانها فضل كبير في تدمير قوات العدو حول موسكو .

بطولات في سبيل الوطن

ويقول المرشال زوكوف انه لا دامي لذكر تفاصيل العمليات ، فتلک مهمة قد اضطلعت بها كتب التاريخ في الاتحاد السوفيتي مرارا . ويكتفي فقط بأن يشير الى ان القوات الفاشية قد استطاعت طوال عمليات تشرين اول ان تقطع في الطريق الى موسكو ٢٣٠ - ٢٥٠ كيلومترا ، بعد معارك طاحنة دامية . على ان خطة هتلر في الاستيلاء على موسكو قبل منتصف تشرين الاول قد باءت بالفشل . واصبح العدو بالقرب من موسكو منهك القوى مبثر القوات .

ويقول زوكوف ان ذكر اسماء الابطال الذين برزوا في معارك تشرين اول سنة ١٩٤١ ، دفاعا عن العاصمة ، امر غير قابل للتحقيق . فالبطولة لم تكن صفة لافراد بعينهم ، بل كانت من طابع تشكيلات بأكملها استحققت

المجد ببطولاتها القتالية في سبيل الوطن . ولقد كانت مثل هذه التشكيلات في كل موقع . وفي اتجاه موجايك ، واجهت فرقة المشاة الثانية والثلاثون ، بقيادة العميد بولوسوخين ، الفيلق الميكانيكي الاربعين للعدو (واتضح من الحلقات السابقة ان الفيلق يتكون من عدة فرق او فرقتين على الأقل) . وبعد قرابة مائة وثلاثين عاما من حملة نابليون ، كان من نصيب هذه الفرقة تعميد سلاحها مع العدو على ارض بورديفو . . على نفس الارض التي صارت منذ عهد بعيد من مقدساتنا القومية ، وبمناخية نصب تذكري خالد للمجد العسكري الروسي . ان مقاتلي الفرقة الثانية والثلاثين لم يسيثوا الى هذا المجد ، بل زادوه تألقا (ارض بورودينو هي المساحة التي اقتتل عليها جيشا نابليون وكوتوزف ، وانتهت بأول هزيمة لنابليون . . . ومن بعدها ظل يتقهقر حتى غرقت بقايا قواته في نهر بريوزينا) .

في اول تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، استندت الى القيادة العليا . قال ستالين : بمناسبة ذكرى ثورة تشرين اول . . نحن نريد ان نقيم عرضا عسكريا في موسكو ، بالاضافة الى الاجتماع السياسي . فما رأيك . . . هل يسمح لنا الوضع في الجبهة باقامة مثل هذا الاحتفال ؟

فاجبته : في الايام القليلة القادمة لن يشن العدو هجوما واسعا ، فهو قد تكبد خسائر فادحة في المعارك السابقة وهو الان مرغم على استكمال واعادة تشكيل قواته . ولمواجهة طيران العدو الذي لا بد انه سوف ينشط ، اقترح تقوية الدفاع الجوي باستدعاء قواتنا الجوية المقاتلة قريبا من موسكو .

ومعروف ان الاجتماع السياسي قد انعقد قبيل العيد في ردهة محطة مترو « ماياكوفسكي » (نفق يمتد مئات الامتار تحت الارض ، ويستطيع ان يتسع لعدد من المدعوين يزيد على ما تتسع له قاعة الاحتفالات في الكرملين . ولعل المكان قد اختير كاجراء امن في ظروف الحرب خاصة وان المدعوين هم كبار رجال الحرب والدولة والجيش) ، واقسم العرض العسكري يوم ٧ تشرين الثاني في الميدان الاحمر . وكان لهذا الحدث تأثيره البعيد المدى على رفع الروح المعنوية للجيش والشعب . وفي خطابه ردد ستالين من جديد ايمان الحزب والحكومة بالقضاء العتمي على العدو .

وذاث يوم جرى بيني وبين القائد الاعلى اتصال تليفوني لا يسر . قال ستالين لزوكوف : انه ورئيس هيئة اركان الحرب يعتقدان انه من الضروري تفادي ضربات العدو بتوجيه ضربات مضادة تحليرية ، وحدد اتجاهات الضربات ، فقال زوكوف : وبأي قوى يمكن توجيه هذه الضربات

.. الجبهة الغربية ليست لديها قوات طليقة . لدينا من القوات ما يكفي للدفاع فقط .

وحدد ستالين المواقع التي يمكن سحب بعض القوات منها . فرد زوكوف : لا وقت الآن للعمل لهذا . فنحن لا نستطيع ان نوجه آخر احتياطات الجبهة للقيام بضربات احتمال نجاحها محل شك . لن نجد ما ندعم به الدفاع حين يشن العدو هجوما بقواته الضاربة .

ستالين : في جبهتك ستة جيوش . فهل هذا قليل ؟ زوكوف : ان خط دفاع الجبهة الغربية قد امتد طويلا ، وهوانحناءاته يبلغ الان اكثر من ٦٠٠ كيلومتر . لدينا احتياطي قليل جدا في العمق ، وخاصة في وسط الجبهة .

ستالين : اعتبر مسألة الضربات المضادة امرا منتهيا . ابلغني بالخطأ مساء اليوم .. هكذا أنهى ستالين الحوار متبرما .

تهديد ستالين

وبعد ١٥ دقيقة جاءني بولفانين وقال وهو على عتبة الباب :

— يا لغسيل المخ الذي تعرضت له الآن .

— ما الذي تعنيه ؟

— قال لي ستالين : لقد اصابك الفرور انت وزوكوف .. ولكننا سوف نجد طريقة للقصاص منكما . وطالبني بان اجيئك على الفور ، وان ننظم الضربات المضادة دون ابطاء .

ولواصله الزحف الى موسكو ، اعدت القيادة الالمانية قوات دمم اضافية حتى بلغت الحشود الالمانية في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ : ٥١ فرقة على الجبهة الغربية ، ١٣ فرقة على جبهة كلين — فولكولامسك ، ٩ فرق في اتجاه تولا — تشير ، ٤ فيالق في الاتجاه الجنوبي .

وفي ١٥ تشرين الثاني ، بدأت المرحلة الثانية من الهجوم على موسكو . واستمرت المعارك بعنف بالغ حتى ١٨ تشرين الثاني . ولا اذكر بالتحديد في اي يوم بعد هذه المعارك بقليل اتصل بي ستالين تليفونيا وسألني :

— هل انت واثق من قدرتنا على الاحتفاظ بموسكو ؟ انني اسألك والالم يحرق في نفسي . تكلم بشرف ... كشيومي .

— بالتأكيد فاننا سنحتفظ بموسكو . ولكننا نحتاج الى جيشين ومائتي

دبابة على الأقل .

واشتدت حدة المعارك من جديد ، وعلى كل الجبهات « وكانت جبهة

الدفاع تتلوى كثيرا ، مما يترتب عليه ظهور اماكن ضعف .. ولكن يبدو لنا ان الكارثة على وشك الوقوع .. ولكن هذا لم يحدث ... فالمقاتلون لم يتخاذلوا ، بل اعتمدوا على قوات الدم في اقامة خط دفاع لا يقهر .

كان وضع الجبهة محرجا ومثيرا لأكبر انفعالات القلق والتوتر ، ويروي المارشال زوكوف واقعة في غاية الطرافة ، فقد اتصل ستالين تليفونيا ، وقال له انه قد ابلغ بان مدينة ديدوفسك قد سقطت في قبضة الالمان (من ضواحي موسكو) فلما اجاب زوكوف بانه لم يعرف بذلك عنفه ستالين على جهله بتطور الوضع على جبهته . ثم امره بالتوجه فورا الى هناك وتنظيم عملية هجوم مضاد لاسترجاع ديدوفسك . ولكن زوكوف تأكد من ان لسي الامر لبنا ، فالتى سقطت ليست مدينة ديدوفسك ، بل قرية ديلوفا .. وحين ابلغ زوكوف هذه الحقيقة الى ستالين ، قال القائد الاعلى ، وهو في قمة برمه : ما دام الامر كذلك فعليك ان تسافر فورا ومعك الجنرال روكوسوفسكي لكي تستعيدا بالقوة هذه القرية الملعونة . ولم يكن من الممكن اقناع ستالين بالعدول عن ذلك .. ويحكى زوكوف كيف دهش روكوسوفسكي ودهش قائد المنطقة التي توجد بالقرب منها هذه القرية لبيوتها التي تعد على الاصابع .. وقد استرجعت هذه القرية فعلا بقوة « اورطة » واحدة .

وفي اول كانون الاول شن الالمان هجوما على الجيشين الخامس والثالث والعشرين وانتهى هذا الهجوم الغادر بالفشل .

وفي الايام الاولى كان قد ظهر جليا ان العدو الالماني لم يعد بقواه وموارده قادرا على مواصلة الهجوم . ومن استجواب الاسرى ، ظهر ان القوات الالمانية لم تعد تثق في امكانية الاستيلاء على موسكو .

وتكدت الجبهة الغربية بدورها خسائر فادحة ، واصبحت منهكة القوى ، لكنها لم تسمح للعدو باختراق الجبهة في اي موقع . لقد ضاعف المدافعون عن موسكو قواهم عشرات المرات مستمدين صلابتهم من الدم الاحتياطي ، ومن نداءات الحزب .

في خلال المرحلة الثانية من محاولة غزو موسكو ، فقد الالمان ما يزيد عن ١٥٥ الف قتيل وجريح ، وحوالي ٨٠٠ دبابة ، وما لا يقل عن ٣٠٠ مدفع ميدان ، وقاربة ١٥٠٠ طائرة . ولقد أدت الخسائر الفادحة ، وعدم انجاز الاهداف الاستراتيجية الى غرس بدور الشك في جماهير القوات الالمانية في النصر النهائي في الحرب . وفقدت القيادة السياسية العسكرية الفاشية مظهرها في آعين الرأي العام العالمي « كقوة لا تقهر » .

يحاول الجنرالات والمارشالات الهتلريون السابقون القاء مسؤولية

فشل خطة غزو موسكو على هتلر شخصيا ، لرفضه نصائحهم بأن نواصل قوات جيش « الوسط » هجومها الظافر المقرر في آب ... واصدار اوامره بايقاف هذا الجيش وارسال مجموعة كبيرة من قواته الى اوكرانيا . يقول ف. ملنتين : « كان يمكن لعملية ضرب موسكو ، التي كان جودريان من انصارها ، والتي تخلى عنها في آب مؤقنا حتى نستولي اولا على اوكرانيا ، كان يمكن لهذه العملية ان تنتهي السى النجاح لسو حظيت باستمرار بالنظر اليها كضربة رئيسية يتوقف عليها مصير الحرب . وكان يمكن أن تمنى روسيا بهزيمة بطعنة في القلب » . ويرى الجنرالات جودريان ، وجوت وآخرون ، ان السبب الرئيسي لهزيمتهم حول مشارف موسكو هو الطقس الروسي القاسي ، بالاضافة الى اخطاء هتلر .

طبيعة الجو

لا شك في ان للطبيعة والمناخ دورهما في اي عمليات حربية . ولكن هذه الظروف تؤثر بنفس الدرجة في القوتين المتحاربتين . نعم .. لقد كان وطننا حريصا على تدفئة ابنائه بالملابس الشتوية الملائمة ، بينما كان الالمان يلجأون الى سلب الاهالي كل ما يقع تحت ايديهم من ملابس ، ولكن المسألة في النهاية ليست مسألة طقس ، فالقيادة الالمانية قد اعدت جنودها لنزهة سريية تستغرق اسابيع او شهورا في روسيا . وذلك خطأ فسي التقديرات السياسية والاستراتيجية وقعت فيه الزعامة الفاشية .

لا .. ليس المطر او الثلج هو الذي اوقف القوات الفاشية على مشارف موسكو . فالمليون جندي الماني ، قد تحطموا على صخرة الدفاع الصلب ، الرجولي ، البطولي للقوات السوفياتية ، التي كان الشعب والوطن والعاصمة يشدون أزرها .

وفيما يتعلق بالاستيلاء على اوكرانيا اولا . فلولا ذلك لتمكن ان يصبح وضع قوات جيش « الوسط » النازي اسوأ بكثير مما كان في الواقع . وبوصفي قائدا سابقا للجبهة الغربية فأنني اريد ان اشترك في الرد على السؤال الذي كثيرا ما يطرح نفسه : كيف تمكنت القوات السوفياتية من تحطيم مجموعة القوات الالمانية - الفاشية الضخمة على مشارف موسكو ، وارغام فلولهم في ظروف الشتاء القاسي على الانسحاب غربا . ان القيادة الهتلرية العليا حين خططت تلك العملية الاستراتيجية المعقدة وذات الاهمية البالغة - عملية غزو موسكو التي كان يطلق عليها عملية

« طيفون » - قد وقعت في خطأ التهوين من قدرات الجيش الاحمر ،
والتهويل في قدرات قواتها .

ومن اخطاء القيادة الهتلرية ايضا ، انها لم تحشد قدرا كافيا من
المشاة . ولقد ظهر ان الاعتماد على المدرعات في هذه العملية لم يكن
صحيحا . فهي قد تكبدت خسائر فادحة شلت قدرتها على النفاذ
(الاختراق) ، ومن اخطائها ايضا انها قد ركزت ضرباتها على جناحي الجبهة
دون شن هجوم مركز على الوسط ، ولقد كانت قادرة على ذلك ، من ناحية
امكانياتها المادية . وقد استفدنا نحن من ذلك الوضع ، بأن سحبنا من
المنطقة « السلبية » قوات كبيرة دعمنا بها الجناحين .

وفي الايام الاولى من كانون الاول ، تلقت القوات الالمانية ضربات قوية
من فصائل الفدائيين الذين هاجموا بعنف خطوط مواصلات العدو التي كانت
تزيد عن ألف كيلو متر ، وبهذه الاعمال البطولية ، استطاع الفدائيون ان
يحدثوا ارتباكا خطيرا في وصول الامدادات الى القوات المقاتلة .

كذلك فان القتال العنيد للقوات السوفياتية على طول الطريق الذي
قطعته القوات الالمانية حتى مشارف موسكو كان قد اضعف الروح المعنوية
للجنود الالمان وجعلهم يتشككون في امكانية النصر .

بينما كان المقاتلون على الرغم من كل ما اصابهم من خسائر يتلقون
المعون من الوطن ، ولقد احتفظوا حتى نهاية القتال دفعا عن موسكو بروحهم
المعنوية العالية وثقتهم التي لا تتزعزع في النصر .

فرحة الانتصارات الاولى

كان الشعب السوفياتي وقواه المسلحة قد مروا باكثر الاوقات مرارة ،
وبدأوا يستشعرون فرحة الانتصارات الاولى . فالجيش السوفياتي قد حكم
بالفشل على خطة هتلر في الاستيلاء على ليننغراد ، والالتحام مع القوات
الفنلندية المسلحة (تقع ليننغراد على الحدود مع فنلندا) ، وفي الجبهة
الجنوبية كانت قواتنا قد استعادت مدينة روستوف ، الواقعة على نهر
الدون . وفي مناطق اخرى ايضا كان الهجوم المضاد قد بدا يحقق بشائر
النصر .

وفي ٢٩ تشرين الثاني ، اتصل زوكوف بالقائد الاعلى واطلعه على
الموقف وطلب منه ان يضم الى جبهته الجيشين الضاربين الاول والعاشر
(من قوات جبهات مجاورة) ، لكي يتسنى له توجيه ضربات اشد عنفا الى
العدو وطرده بعيدا عن مشارف موسكو . فسأله ستالين :

— وهل انت متأكد من ان العدو دخل في وضع متازم لم يعد معه قادرا على تحريك مجموعة كبرى جديدة من قواته ؟
— العدو منهك . ولكن قوات الجبهة لا تستطيع تصفية خطر اختراق العدو لخطوطنا .

وفي مساء نفس اليوم ابلغتنا القيادة بموافقتها على ان ينضم لقوات الجبهة الغربية الجيشان الاول والعاشر الضاربان ، وجميع وحدات الجيش العشرين .

ورغم هذا الدعم الجديد ، فلم يكن لدى الجبهة الغربية تفوق عددي على قوات جيش « الوسط » الهتلري ، (باستثناء الطيران) ، وكان العدو لا يزال متفوقا علينا في الدبابات والمدفعية .

وفي آخر ليل ٤ كانون الاول ، اتصل بي القائد الاعلى لتليفونيا وسألني :
— بماذا ايضا نستطيع دعم الجبهة علاوة على ما سبق ان قدمناه ؟

— لا بد من الحصول على دعم جوي من القوات الاحتياطية الخاضعة للقيادة العليا ، ومن قوات الدفاع الجوي ، وبأجدا لو امكن تزويدنا ولو بمائتي دبابة باطقمها ، فالجبهة تعاني من عجز في الدبابات ، ولذلك فهي لا تستطيع ان تطور هجومها المضاد على نحو سريع .

— لا توجد دبابات . نحن لا نستطيع توفيرها . القوات الجوية متوفرة . اتفق مع رئاسة هيئة اركان الحرب . سوف اتصل بهم الآن . في ٦ كانون الاول سوف تنتقل الى الهجوم المضاد مجموعة من الجناح الايمن للجبهة الجنوبية الغربية .

الهجوم المضاد

وها هو يوم ٦ كانون الاول قد اقبل ، وبدأت الجبهة الغربية تشن هجومها المضاد شمالي وجنوبي العاصمة .

وفي خلال عشرة ايام من المعارك الضارية ، سدّت قوات الجناح الايسر للجبهة الغربية ضربات بالغة العنف الى جيش الدبابات الثاني الالماني الخاضع لقيادة جودريان . كذلك فان جيش جودريان قد بدأ ينسحب تحت الضغط الشديد على قواته من الجناحين ، تاركا في ساحة المعركة عددا من السيارات والجرارات والدبابات والاسلحة الثقيلة .

وعلى يسار الجبهة الغربية ، كانت قوات جبهة براتسك التي اعيد تشكيلها تشن بنجاح هجومها المضاد على القوات الالمانية ، ورغمهما على التفهقر حتى لم تعد مدينة تولا مهددة .

بذلك انتهت المرحلة الاولى من معركة الدفاع عن موسكو ، واصبح على قوات الاتجاه الغربي الذي يضم الجبهات الغربية ، وبرانسك وكالينيك ، ان يستعيد مواقعها السابقة لبدا الخطة الالمانية المسماة عملية طيفون . ولم يكن لدى احد من اعضاء المجلس العسكري او اركان حرب الجبهة الغربية ادنى شك في ضرورة تطوير الهجوم المضاد فسي الاتجاه الغربي الاستراتيجي . ولكن مقاومة العدو كانت لا تزال قوية ، ليس فقط في الاتجاه الغربي ، بل بوجه عام .

وتحت تأثير تدمير قوات العدو على مشارف موسكو ، والنجاح الذي حقق في اثناء الهجوم المضاد ، اصبح القائد الاعلى يعيل الى التفاؤل . وكان يرى ان الالمان لن يصمدوا لضربات الجيش على الجبهات الاخرى . ومن هنا نشأت فكرة شن هجوم شامل يمتد من بحيرة لادوجا (بالقرب من ليننغراد) الى البحر الاسود .

استلم زوكوف بوصفه عضوا في القيادة العليا ، الى اجتماع في رئاسة الاركان ، وطلب منه ستالين ان يبدي رايه في الخطة التي وضعها لاحاق الهزيمة بالعدو في اكثر من جبهة ، واعترض زوكوف مطالبا بالاكتماء بتطوير الهجوم في الاتجاه الغربي ، حيث ان جيش الوسط الالمانى تحت ضغط القوات السوفياتية . اما في ليننغراد وغيرها ، فالقوات السوفياتية تواجه خطوط دفاع منيعة للعدو ، وسوف تكون خسائر القوات السوفياتية باهظة ودون مبرر .

وقال ستالين : لقد تحدثت مع تيموشنكو ، وهو يحب فكرة الهجوم المضاد ، حتى نستنزف قوى العدو طول الشتاء ، ونعجزه بذلك عن شن هجوم واسع في الربيع .

وابدى فولنيسينسكي اعتراضه قائلا :

— ليست لدينا الآن امكانيات تكفي لتأمين الهجوم على كل الجبهات .

فسال ستالين الحاضرين : هل يريد احد ابداء الراي ؟

ولم يرد . عندئذ قال ستالين . . اذن . . ننهي الحديث عند هذا

الحد .

وحين خرجت من حجرة الاجتماع قال لسي شابوشنيكوف (رئيس هيئة اركان الحرب) ، مبثا كنت تجادل فراي القائد الاعلى قد استقر على هذا .

اجبت : اذن ما الداعي لاخلد رأيي ؟

فعلق رئيس الاركان متنهدا . . لا ادري . . لا ادري يا عزيزي .

وبالفعل تم تنفيذ هذه الخطة ، وقد حققت عدة انتصارات في عدد من الاتجاهات ، لكنها ايضا كانت حافلة بعدة خسائر جسيمة . وقد وقعت في الحصار تجمعات كبيرة للقوات السوفياتية كان من بينها مجموعة الجنرال يفريموف الذي قاتلت قواته حتى أبيدت عن آخرها تقريبا ، أما هو فقد ظل يقاتل على رأس ما تبقى من قواته حتى أصيب بجراح خطيرة ، وحرصا على ألا يقع في قبضة الاعداء انتهى هذا الجنرال الباسل حياته باطلاق الرصاص على نفسه . ويشيد المارشال زوكوف بكفائه كعسكري، وشجاعته كإنسان ، ودوره الكبير في معركة الدفاع عن موسكو .

ويقول زوكوف : وكما أثبتت المعارك كانت قلة الدخيرة تحول دون شن هجوم مدفعي . ولم يكن من الممكن اسكات مدافع العدو . كذلك فان القوات السوفياتية المهاجمة بدون كثافة من النيران ، كانت تتكبد خسائر فادحة لا تتماشى مع النجاح الذي تحققه .

وفي نهاية شباط ، وبداية اذار سنة ١٩٤٢ ، قررت القيادة العليا تدعيم جبهات القتال ، الا ان القرار جاء متأخرا . ورغم مطالباتنا المتكررة بإيقاف الهجوم والانتقال الى الدفاع ، فقد استمر القائد الأعلى يصدر تعليماته بالاستمرار في القتال من اجل تحقيق الاهداف الموضوعة امام القوات .

وفي نهاية اذار واول نيسان حاولت جبهات الاتجاه الغربي تحقيق هذا الهدف دون جدوى . واخيرا اضطرت القيادة العليا الى الاخذ باقتراحنا فأمرت بالانتقال الى الدفاع . وكنا حين ذلك قد تقدمنا في فترة الشتاء ما بين ٧٠ ، ١٠٠ كيلو متر مما جعل وضع العمليات الاستراتيجية في الاتجاه الغربي افضل من ذي قبل .

لقد كانت النتيجة العامة للقتال دفعا عن موسكو ملهمة للبلاد السوفياتية ومفرجة للعدو .

وفي وصفه لمعركة موسكو اضطر الجنرال الألماني فستفال الى الاعتراف بأن الجيش الألماني الذي كان من قبل لا يقهر قد وقف في مشارف موسكو على حافة الفناء .

لقد خسر الفاشيست الألمان في معركة الدفاع عن موسكو ما يزيد اجمالا عن نصف مليون جندي ، ١٣٠٠ دبابة ، ٢٥٠٠ مدفع ميدان ، ١٥٠ ألف سيارة وكثيرا من المعدات المختلفة الأخرى .

لقد كانت معركة موسكو هي اول موقعة كبرى ينتصر فيها الجيش

الاحمر طوال شهور الحرب الستة على الحشود الرئيسية لقوات الفزو
الالماني .

ان الادارة القديرة للمعارك الدفاعية ، والتوجيه الموفق للضربات الحادة
ثم الانتقال السريع الى الهجوم المضاد قد ادى الى الفهم العسكري السوفياتي
واظهر نضج القادة العسكريين السوفيات فيما يتعلق بمسائل العمليات
التكتيكية والاستراتيجية ، وبرز نمو الكفاءة القتالية لمختلف انواع اسلحة
الجيش .

ان تدمير القوات الهتلرية على اعقاب موسكو قد اكتسب اهمية دولية
كبيرة . . ولفت نظر الدوائر الرجعية في اليابان وتركيا الى ضرورة اتخاذ
سياسة اكثر حكمة ازاء الاتحاد السوفياتي . . وجعل الرأي العام التقدمي
العالمي يطلق املا كبيرا على السلاح السوفياتي في قهر النازية . . واشهر
القوات السوفياتية بقوة الدولة السوفياتية واضف ثقتها في امكانية تحقيق
الاهداف التي رسمها هتلر .

كثيرا ما توجه الى اسئلة عن دور ستالين في ايام معركة موسكو .
كان ستالين طوال هذه الفترة في موسكو ينظم القوى والموارد
الضرورية لتدمير العدو . ولا بد من اعطائه حقه . وعلى رأس مجلس
الدفاع الوطني ومجلس الوزراء قام ستالين بجهد هائل في تعبئة الاحتياطيات
الاستراتيجية والوسائل المادية - التكتيكية . ويمكن القول انه بصرامته
القاسية قد حقق ما يشبه المستحيل .

عندما يسألني البعض : ما اكثر احداث الحرب رسوخا في ذاكرتك
فانني اقول : معركة الدفاع عن موسكو .

ففي الظروف العصيبة البائسة التعقيد والصعوبة انصهرت قوائنا
المسلحة وازدادت رجولة وخبرة . فهي اذ حصلت على الحد الأدنى من
المعدات التكتيكية استطاعت ان تتحول من قوة دفاعية ضعيفة الى قوة
هجومية كبيرة . ان ابناء الاجيال القادمة الاوفياء لن ينسوا مطلقا ذلك
العمل التنظيمي الجبار الذي قام به الحرب ، والمآثر البطولية للشعب
السوفياتي على جبهة الانتاج في تلك الفترة ، والملاحمة المجيدة للمقاتلين .

الفصل الثاني عشر

المحنة مستمرة

.. كل شيء .. من أجل المعركة - سقوط شبه جزيرة القرم .. - القرار رقم ٢٢٧ - هتلر يلح في الاستيلاء على ستالينغراد -

نتيجة لعنة اسباب تعرضت بلادنا من جديد لمحنة قاسية في عام ١٩٤٢ . ولكن كما كان الامر في معركة موسكو عام ١٩٤١ استطاع الشعب والجيش ، بقيادة الحزب ، ان يتغلبا على الصعوبات ببسالة وان ينتصرا على مجموعة كبرى من حشود القوات الالمانية فيما بين نهري الفولجا والدون ، وان يفسحوا بذلك بداية طرد القوات الالمانية - الفاشية خارج حدود الوطن .

في نهاية ربيع ١٩٤٢ قام تحالف عالمي بين ٢٦ دولة اتفقت فيما بينها على استخدام كل الجهود والموارد ضد الدول العدوانية ، وعلى الا توقع معها معاهدات صلح او هدنة منفردة .

وعلى الجبهة الالمانية السوفيتية ساد الهدوء الموقت الى حين .. اذ لجأ كل طرف الى الدفاع عن مواقعه . وفي داخل الاتحاد السوفيتي كانت القيادة تدرس تطور الاحداث بجدية ، وكان الشعب وقد الهمه النصر في معركة موسكو يعطى « كل شيء

.. من اجل الجبهة « وفي المؤخرة كان الانتاج الحربي يتضاعف ويتطور
كيفما مما سمح للقيادة بتشكيل فيالق بل وجيوش دبابات مستقلة . كما
تكفلت جيوش جوية بلغ عددها ثمانية في حزيران ١٩٤٢ ، وكان المصممون
قد انجزوا كثيرا من انواع السلاح الحديث واصبح تعداد القوات المسلحة
يزيد عن ٥٥٠ مليون جندي، مزودة ب ٤٩٥٩ دبابة ، ٤٠٧٩٨ مدفعا
ثقبلا ، ٢٤٨٠ طائرة . وازدادت القوات تدريبا .

ولكن العدو هو الآخر كان يستعد لحملة الصيف . وقد بلغت حشوده
على امتداد الجبهة كلها ٢١٧ فرقة ، ٢٠ لواء . وحتى ايار ١٩٤٢ كان
تعداد القوات الفاشية الالمانية والحليفة يزيد عن ستة ملايين ، ٣٢٣٠
دبابة ، ٥٧ الف مدفع ميدان وماكينة ، ٣٤٠٠ طائرة حربية . كان التفوق
في الافراد والمدفعية لا يزال الى جانب الالمان .

كانت الاستراتيجية السياسية والعسكرية لهتلر في عام ١٩٤٢ تسعى
الى قهر قواتنا في الجنوب والاستيلاء على منطقة القوقاز والوصول الى
الفولجا ثم الاستيلاء على ستالينغراد (ويسمى حاليا فولجو جراد) واستراخان
وبذلك يمكن خلق الظروف المواتية لتصفية الاتحاد السوفياتي كدولة .

في ربيع ١٩٤٢ كنت كثير التردد على القيادة العليا ، وكنت كثير
التفاهم مع القائد الاعلى على عدد من القضايا الاستراتيجية ، ولهذا كنت
اعرف جيدا اراءه فيما يتعلق بتقييم الظروف القائمة ومستقبل احداث
الحرب في عام ١٩٤٢ .

كان واضحا تماما ان القائد الاعلى لا يثق كثيرا في عود تشرشل
وروزفلت بفتح جبهة ثانية في اوروبا لكنه لم يكن يفقد الامل في ان يقوموا
بعمل ما في المناطق الاخرى . كان ستالين يثق في روزفلت اكثر مما يثق
في تشرشل .

حرب الاستنزاف

كان ستالين يرى اننا لم نبلغ بعد من القوة حدا يجعلنا نقوم بعمليات
هجومية واسعة ولذلك ففي المدى القريب ينبغي الاقتصاد على الدفاع
الاستراتيجي النشط مع القيام بعمليات هجومية محدودة في القرم
وخاركوف وفي اتجاه كورسك وسمولينسك .

وكان رئيس الاركان يرى انه ينبغي الاكتفاء بالدفاع الاستراتيجي لانهاك
العدو واستنزاف قواه حتى بداية الصيف ثم بعد حشد القوى المناسبة
يمكن القيام بعمليات هجوم مضاد واسعة .

وكننت بوجه عام اتفق مع القائد الاعلى ولكنني اختلف معه في التقدير الكمي للعمليات حتى لا نبدد امكانياتنا الاحتياطية في العمليات المحدودة مما يعطل الهجوم العام الشامل للقوات السوفيتية .

وكننت ارى ضرورة القيام بهجوم مضاد في الاتجاه الغربي بهدف اقناع العدو بعدم التفكير في عمليات هجومية واسعة على الاقل في المدى القريب .

وباقتراح ستالين عقد مجلس الدفاع الوطني جلسة لمناقشة الموقف وخطة العمليات المقترحة لعام ١٩٤٢ . واشترك في الاجتماع القائد الاعلى، فورشيلوف ، تيموشنكو ، شوبوشنيكوف ، فاسيليفسكي ، باحرميان وزوكوف . وتعارضت الاراء لكن زوكوف لم يجد من يتحمس لتأييد وجهة نظره . وبناء على ذلك اخذ براي ستالين .

« وجاءت احداث ايار وحزيران دليلا على خطأ تقديرات القيادة العليا فقد تعرضت قواتنا في الجنوب مرة ثانية لمحنة قاسية . وانتهى هجومنا في القرم الى الفشل والخسائر الفادحة مما جعل القيادة العليا تصدر اوامرها الى الجنرال كوزلوف بالانتقال الى وضع الدفاع المتين .

وفي ٨ ايار شن العدو على قوات جبهة القرم هجوما برياً مركزاً ومدعماً بالقوات الجوية مما هدم خطوط دفاع الجبهة وارغمها على التقهقر واخلاء مدينة كيرتس . . وبعد الاستيلاء على كيرتس وجهت القيادة الالمانية كل قواتها في اتجاه سيفاستوبول الذي كان حماه يدافعون عنه ببسالة منذ تشرين اول .

وفي ٤ تموز انسحبت قواتنا من سيفاستوبول ، بعد قتال يومي مرير طيلة ٩ شهور . وبذلك سقطت شبه جزيرة القرم باكملها تحت الاحتلال الالمانى مما زاد وضعنا سوءاً ، وزاد العدو - بالطبع - قوة .

وفي ٣ ايار ، شنت قوات الجبهة الشمالية الغربية هجوماً على مواقع الجيش الالمانى السادس عشر في منطقة ديميانسك ، ولم ينته الهجوم بالنجاح وان كان قد كبد العدو خسائر فادحة .

وذاث مرة كنت اتحدث مع ستالين تليفونيا عن جبهة القرم والجبهة الجنوبية الغربية . قال القائد الاعلى :

— هل ترى الى اي شيء يؤدي الدفاع ؟ لا بد ان نعاقب بشدة كوزلوف ، وميخيليس ، وكوليك على اهمالهم ، ولكي لا يتغافل غيرهم .

— كلا . اني ارى ان نبدا بضرب العدو بالطيران والمدفعية . ونلحق به الهزيمة بدفاعنا العنيد ثم ننتقل بعد ذلك الى الهجوم .

وفي ١٢ ايار ، شنت الجبهة الجنوبية الغربية هجوماً في اتجاه خاركوف موجّهة ضربتين قويتين في اتجاهين مختلفين .
وفي ١٧ ايار ، هاجمت الفرقة الحادية عشرة الالمانية قوات الجيشين التاسع والسابع والخمسين التابعين للجبهة الجنوبية ، واخترقت خط دفاعهما ، وتوغلت مسافة ٥٠ كيلومترا في خلال يومين ، واصبحت تشكل تهديدا لقوات الجبهة الجنوبية الغربية .

ويشهد المارشال زوكوف بانه كان شاهدا على تحديد ستالين لقائد الجبهة الجنوبية الغربية من خطورة هذا الوضع ولكن القائد طمأنه الى سلامة الموقف ، وانه كان شاهدا كذلك على مكالمة تليفونية بين القائد الاعلى وبين عضو المجلس العسكري للجبهة نيكيتا خروشوف الذي اكد لستالين - كما سبق ان اكد قائد الجبهة - بان الخطر مبالغ فيه جدا ، وان الوضع لا يستدعي ايقاف العمليات (بقصد العمليات الهجومية) ، وبناء على تقرير قائد الجبهة وعضو المجلس العسكري ، رفض ستالين اقتراح الجنرال فاسيليفسكي القائم باعمال رئيس هيئة اركان الحرب . « وان الرواية الشائعة عن التقارير المعبرة عن القلق التي بعث بها المجلسان العسكريان للجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية لهي رواية لا تطابق الواقع . وانا اؤكد هذا لانني كنت حاضرا مكالمات القائد الاعلى .

وحين ادركت قيادة الجبهة خطورة الوضع ، كان الوقت قد ضاع . ووقعت المجموعة المكونة من الجيشين السادس ، والسابع والخمسين ، وبعض وحدات الجيش التاسع في حصار محكم . ولم تستطع اختراق الحصار الا قوات محدودة ، اما غالبية القوات فانها لم تستسلم ، بل حاربت الى آخر قطرة من دمها . وفي هذه الماركة قتل قائد الجبهة بطل الحرب الاهلية والحرب الوطنية المظفي الجنرال كوستنكو ، وقائد الجيش السادس الجنرال بودلاس ، والجنرال بوبكين ، الذي كان زميلي في الدراسات العسكرية العليا . وكانوا قوادا عظماء وابناء مخلصين لحزبنا وشعبنا .

قلق في الجبهة

ويوما بعد يوم كان وضع جبهة برانسك يزداد سوءا . واتخذت القيادة العليا قرارا بتقسيم الجبهة الى جبهتين جديدتين هما جبهة فورونج تحت قيادة الجنرال فاتوتين (المساعد الاول للمارشال زوكوف حين كان رئيسا لهيئة اركان الحرب) ، وجبهة برانسك تحت قيادة الجنرال راكوفسكي .

ونتيجة لهذه الخسائر المتلاحقة في قواتنا ، استعاد العدو المبادأة الاستراتيجية . وحاول شق الطريق الى ستالينغراد . سقطت في ايدي العدو - نتيجة للانسحاب القهري - الدون ، والدورنياس البالغة الحيوية . واصبح هناك خطر مباشر من وصول العدو الى الفولجا ، وشمال القوقاز ، وخطر سقوط كوبان ، وكل طرق المواصلات مع القوقاز .

« اصدر القائد الاعلى قراره الشهير رقم ٢٢٧ . وبناء على هذا القرار اتخذت اجراءات قاسية لمقاومة مثيري الدمر والمخين بالنظام ، كما قمنا بحسم الاتجاهات الانهزامية » ، وقد اصبح للقرار فعاليته بالعمل السياسي الحزبي ، وكان عدد اعضاء الحزب في صفوف الجيش قد وصل الى ١٤٣ مليون .

كانت قوات الجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية عاجزين عن إيقاف زحف العدو . واذ كانت القيادة ترى الحيلولة دون وصول العدو الى الفولجا فقد قررت في ١٢ تموز سنة ١٩٤٢ ، تشكيل جبهة ستالينغراد . وكما حدث في موسكو ، هب الالاف في ستالينغراد للاسهام في اقامة التحصينات الدفاعية من حول المدينة .

وتلبية لتوجيهات لجنة الدفاع الوطني قامت المنظمات الحزبية في جمهوريات ارمينيا وجورجيا واذربيجان ، بتوفير الامدادات والمؤمن لقوات الجبهة ، كما نظمت حملة شعبية للتطوع في صفوف الجيش الاحمر . وبذلك فثلت مخططات هتلر المبنية على انفصال جمهوريات القوقاز عن الاتحاد السوفيتي بمجرد وصول قوات الاحتلال الفاشي .

وقد لعبت فصائل الفدائيين دورا كبيرا في النضال ضد العدو . فهي بعملياتها الشجاعة ، ومعرفتها التامة بطبيعة الارض قد حققت بالعدو خسائر جسيمة في الارواح والمعدات .

كانت الجبهة تتكون من ١٨٧ الف مقاتل ، ٣٦٠ دبابه ، ٣٣٧ طائرة ، ٧٩٠٠ مدفع ميدان وماكينة .

وفي مواجهة حشد العدو ٢٥٠ الف جندي ، ٧٤٠ دبابه ، ١٢٠٠ طائرة ، ٧٥٠٠ مدفع ميدان وماكينة .

وفيما بعد دفع العدو الى المعركة بمزيد من قواته وقوات حلفائه . ودارت ممارك طاحنة في كل الاتجاهات المؤدية الى ستالينغراد ، ولكن العدو كان يواصل التغلب على المقاومة العنيفة حتى وصل مشارف ستالينغراد

وبدأت تتصدى له الى جانب القوات المسلحة ، فصائل عمالية مسلحة الحقت به خسائر فادحة .

وفي الجبهة الغربية قامت القوات ، تحت قيادة زوكوف بعدة عمليات هجوم مضاد ، كان الهدف منها انهاء العدو حتى لا يتمكن من تدمير قواته المتقدمة على جبهة ستالينغراد . . . واذا كان هذا الهجوم لم يؤدي الى انتصارات حاسمة فهو باعتراف الجنرال الالماني ك . بيليسكيرخ « تمكنا من صد الهجوم فقط عن طريق استبقاء ٣ فرق دبابات وعدة فرق مشاة كانت معدة للانتقال الى مسرح العمليات على الجبهة الجنوبية . وهي قد اقيمت للتمكن من صد هجوم العدو ثم لدعم الهجوم المضاد » .

« وعلى العموم . لا بد ان اقول ان القائد الاعلى قد ادرك ان الوضع الحرج الذي نشأ في صيف عام ١٩٤٢ ، انما يرجع ايضا الى اخطائه الشخصية التي وقع فيها البناء اقرار خطة عمليات قواتنا المسلحة في حملة الصيف عام ١٩٤٢ . ولذلك فهو لم يكن يبحث عن مسئولين عن الهزائم بين اعضاء القيادة العليا وهيئة اركان الحرب .

وفي ٢٧ آب سنة ١٩٤٢ ، اتصل بي بوسكريشيف (سكرير ستالين) وافادني بان لجنة الدفاع الوطني قد عينتني مساعدا للقائد الاعلى وبعد ذلك بقليل اتصل بي ستالين :

– ينبغي عليك المجيء بأسرع ما تستطيع الى القيادة العليا . اترك محللك رئيس الاركان . فكر فيمن يجدر بنا تعيينه بدلا منك .

وانتهى الحديث عند هذا الحد دون ان يخبرني ستالين بتعييني مساعدا له ويبدو ان القائد الاعلى اراد ان يكشف لي عن ذلك في مقابلته شخصيا ، وعلى العموم ، فقد كان يلفت نظرنا دائما الى ضرورة الحذر في المكالمات التليفونية ، خاصة في مناطق العمليات حين يتعدى تدبير وسائل المخاطبة بالشفرة .

قال القائد الاعلى ان الوضع سيء في الجنوب ، وان تطور الاحداث يمكن ان يؤدي الى استيلاء الفزاة الالمان على ستالينغراد وشمال القوقاز ، وازاف ان لجنة الدفاع الوطني قد قررت تعيين زوكوف مساعدا للقائد الاعلى ، مع ارساله الى منطقة ليننغراد . ويوجد الان في ستالينغراد فاسيليفسكي ومالينكوف ، ماليشيف . سوف يبقى مالينكوف مع زوكوف ويعود فاسيليفسكي الى موسكو .

– متى تستطيع السفر الى هناك ؟ – احتاج الى ٢٤ ساعة للدراسة الموقف ...

كان واضحا ان معركة ستالينغراد ذات اهمية سياسية واستراتيجية كبرى . فبسقوط ستالينغراد تتمكن قيادة العدو من عزل جنوب البلاد عن وسطها . واذا فقدنا الفولجا ، فانا نفقد بذلك اهم طريق مائي للمواصلات نتلقى بواسطتها امدادات ضخمة من القوقاز .

ودفعت القيادة العليا الى ستالينغراد بكل ما كان تحت تصرفها فيما عدا القوات الاحتياطية الاستراتيجية الحديثة التشكيل والمدخرة لمستقبل الاحداث .

وبعد دراستي للموقف على الطبيعة اتصلت لاسلكيا بالقائد الاعلى وابلفته بان توجيه ضربات مضادة لا يمكن تحقيقه قبل ٦ ايلول ، فافادني بانه لا اعتراض لديه على ذلك .

الحالة في ستالينغراد

وفي ٣ ايلول تلقت برقية بتوقيع القائد الاعلى : « وضع ستالينغراد ازداد سوءا . قد تسقط ستالينغراد اليوم او غدا اذا لم تقدم قواتنا في الشمال مساعدة عاجلة . اطلب من قواد القوات المتمركزة في الشمال ، والشمال الغربي من ستالينغراد ضرب العدو فورا ، والتقدم لمساعدة ستالينغراد . ان اي تباطوء لا يغتفر . فالتباطوء الان جريمة . ادفع بكل الطيران الى ستالينغراد ، ففي داخل المدينة قوة الطيران محدودة » .

اتصل المارشال زوكوف بستالين واخبره بان الامر ببدا الهجوم ممكن . ولكن امكانيات الهجوم غير متوفرة ، فالمدفعية سوف تبدأ المعركة بلا ذخيرة على وجه التقريب ، كذلك فان تنسيق العمل بين الطيران والمدفعية والدبابات لا يمكن ان يتم قبل يوم ٤ ايلول . ولهذا استأذنه ان يبدأ العملية في ٥ ايلول كما هو متفق عليه من قبل . وانه سوف يأمر الطيران على الفور بقصف مواقع العدو .

— حسنا . . ولكن اذا شن العدو هجوما شاملا على المدينة ، فابدأ على الفور مهاجمته دون انتظار لاستكمال مستلزمات القتال .

وفي ٥ ايلول بدأ الهجوم العام على امتداد الجبهة بالقصف الجوي والمدفعي وباطلاق قذائف « كاتيوشا » ، بدأ الزحف . ومن موقع القيادة كنت اراقب المعركة ، فتأكد لي اننا لن نصل الى نتائج حاسمة لقلة كثافة نيراننا . وطوال اليوم الاول تقدمت قواتنا ما لا يزيد عن كيلومتر واحد .

وفي اليوم التالي نشب قتال أشد عنفا من سابقة . وفي اليومين الثالث والرابع استمر التراشق بالنيران والقتال الجوي . وفي ١٠ ايلول ، اتصلت بالقائد الاعلى . وقلت له ان مواصلة القتال بنفس القوات التي تحت سيطرة جبهة ستالينفراد لن تؤدي الى اختراق الحصار والالتقاء بقوات الجبهة الشرقية في داخل المدينة . ان مواصلة الهجوم بنفس القوى والتشكيلات سوف يكون بلا معنى . وسوف تتكبد قواتنا بلا شك خسائر جسيمة .

بناء على اوامر ستالين ، سافر المارشال زوكوف الى موسكو في ١٢ ايلول ، واجتمع في الكرملين في نفس اليوم بالقائد الاعلى ورئيس اركان الحرب الجنرال فاسيليفسكي ، وبعد ان قدم زوكوف تقريره سأل ستالين :

— ما الذي تحتاج اليه جبهة ستالينفراد من اجل تصفية قوات الحصار المعادي ، والانضمام الى قوات الجبهة الجنوبية الشرقية ؟
— على الاقل : جيش بري كامل ، فيلق دبابات ٣ ، الوية دبابات ، ٤٠٠ مدفع هاون . وعلاوة على ذلك فلا بد من حشد جيش جوي على الاقل للاشتراك في القتال .

وافق فاسيليفسكي على تقديري ، وفتح القائد الاعلى خريطة توزيع القوات الاحتياطية التابعة للقيادة العليا . ظل ينظر اليها طويلا وبضائقة . وتحدثت انا وفاسيليفسكي جانبا ، واخذنا بصوت خافت نناقش ضرورة البحث عن حل اخر .

— وما هو ذلك الحل الاخر ؟ — فجأة رفع ستالين رأسه ووجه الينا هذا السؤال ، لم اكن اتوقع مطلقا ان تكون حاسة السمع لدى ستالين قوية الى هذا الحد . ثم واصل القائد الاعلى كلامه :

— الان توجهنا الى رئاسة الاركان وابحثا مما امكانيات دم جبهة ستالينفراد ... بماذا ؟ ومن اين ؟ وبالمرة فكرا ايضا فيما ينبغي عمله على جبهة القوقاز . وموعدا لهذا هنا في التاسعة مساء .

طوال اليوم اخذ زوكوف وفاسيليفسكي يتدارسان موقف القوات الالمانية ، وامكانيات القوات الروسية ، وكل مايتصل بهذه الجبهة من عوامل عسكرية وسياسية وسيكولوجية ، ثم في الموعد المحدد التقيا بـ ستالين الذي حياهما ثم قال :

— ان عشرات ومئات وآلاف المواطنين السوفييت يضحون بحياتهم في النضال ضد الفاشية ، وتشرشل يتاجر في ٢٠ طائرة من طراز « هاريكين »

وهو نوع رديء لا يحبه طيارونا — وبعد دون اي تمهيد انتفل بلهجة هادئة جدا الى القول — ما الذي هداكم تفكيركم اليه ؟ من منكما سيقدم التقرير .
— من تأمره فراينا واحد — اجاب فاسيليفسكي —
واقترح الجنرالان على القائد الاعلى تكوين جبهة جديدة في منطقة سيرافيموفيتش ، فتسامل ستالين عن امكانية تحقيق هذه العملية الكبرى ، واجيب بان ذلك ممكن في غضون ١٥ يوما فعلق هو متسائلا :
— اليس من الافضل ان نكتفي بتوجيه الضربات من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال على امتداد نهر الدون ؟
واجاب زوكوف :

— في هذه الحالة قد يستطيع الاستدانة والتصدي لضربتنا . اما اذا سددنا الى العدو ضربة غربي الدون ، فانه لن يتمكن من ذلك نظرا لوجود العائق المائي .

وشرح الجنرالان للقائد الاعلى ان الخطة ذات مرحلتين :
— اختراق خط دفاع العدو ، ومحاصرة مجموعة قوات العدو المتمركزة في منطقة ستالينغراد ، وعزل هذه المجموعة عن القوات الالمانية الرئيسية .
— اباداة العدو المحاصر والقضاء على محاولاته للتخلص من الحصار .
فرد ستالين بان هذه الخطة تحتاج الى مزيد من التفكير وتقدير الامكانيات السوفيتية . وان الهدف الحالي هو الحيلولة دون سقوط ستالينغراد ، ومنع العدو من التقدم في اتجاه كاميشين .

وفي اثناء ذلك اتصل يمينكو بالقائد الاعلى وابلفه بان دبابات العدو تتحرك في اتجاه المدينة . وان الضربة الجديدة متوقعة غدا . وعندئذ امر ستالين زوكوف بالعودة الى مقر قيادته ، وامر فاسيليفسكي بتنفيذ بعض اجراءات الدم . وقال في الختام :

— ان ما ناقشناه هنا لا يعرفه احد غيرنا نحن الثلاثة . ومؤقتا لا ينبغي لاحد آخر ان يعرفه !

الايام العصيبة

كانت ايام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ايلول اياما عصيبة بالنسبة لاهالي ستالينغراد ... ايام محنة قاسية ، فالعدو لم يعبأ بشيء وهو يواصل تقدمه خطوة فخطوة على انقاض المدينة متجها ناحية الفولجا . كان يبدو ان الناس

على وشك الاستسلام . ولكن العدو ما ان انطلق الى الامام حتى قابله
الابطال من جنود الجيشين ٦٤،٦١ ملتحمين معه مباشرة في قتال ضار .
كانت انقاض المدينة قد تحولت الى قلعة . الا ان القوى كانت تضعف من
ساعة لآخرى .

وفي اللحظة المناسبة تغير الموقف ، بوصول الفرقة الثالثة مشر المدرعة،
بقيادة رودمتسيف، التي امر ستالين بارسالها . وقد جاءت ضربتها مفاجأة
للعدو .

وقد لعب الطيران دورا خطيرا في معركة الدفاع عن ستالينغراد .
وفي نهاية ايلول استسلماني ستالين ... دعانا الى مناقشة خطة
الهجوم المضاد ... وقد وقعت الخطة بامضاء زوكوف وفاسيليفسكي واصر
عليها ستالين « يعتمد » .

طوال تشرين اول لم تتوقف المعارك العنيفة في داخل المدينة وحولها .
فقد كان هتلر يلح على قيادة مجموعات الجيش «ب» وعلى الجنرال باولوس
قائد الجيش السادس ، في الاستيلاء على ستالينغراد في اقرب فرصة .

وفي منتصف تشرين اول شن العدو هجوما جديدا على امل تصفية
الموقف في صالحه نهائيا في ستالينغراد . ولكنه في هذه المرة التقى كما
حدث من قبل بمقاومة عنيدة من جانب القوات السوفيتية .

ولعدة ايام استمر القتال ليلا ونهارا في شوارع المدينة ، وبيوتها،
ومصانعها ، وعلى ضفاف الفولجا ، وفي كل مكان وموضع قدم . وتكبّلت
قواتنا خسائر جسيمة ، واصبحت تحتل جزرا صغيرة داخل ستالينغراد .
وفي ١٩ تشرين اول ، هبت الى نجدة ستالينغراد قوات جبهة الدون .
وفي نفس الوقت قام الجيش الرابع والستين بتسديد ضربة قوية الى العدو
من ناحية الجنوب .. ولولا ذلك لما تحسن وضع الجيش الثاني والستين،
ولسقطت المدينة نهائيا في قبضة العدو .

استمر القتال في ستالينغراد عنيفا وضاريا لمدة ثلاثة شهور متواصلة .
كانت شعوب العالم كله تتابع المعركة الكبرى في ستالينغراد بانفك
لاهثة . لقد كان انتصار القوات السوفيتية وقاتلها البطولي ضد العدو
مصدر الهام لكل البشرية التقدمية ، فهي قد بثت الثقة في النفوس بالانتصار
النهائي على الفاشية .

ولقد كانت معركة ستالينغراد مدرسة عظمى لتدريب قواتنا على انتزاع
النصر فقد تدربت القيادة ورئاسة الاركان على التنسيق بين المشاة والدبابات

والمدفعية والطيران . وتعلم المقاتلون اساليب الدفاع داخل المدن ، الى جانب المناورة على الجناحين . وارتفعت الروح المعنوية لقواتنا الى حد بعيد . ولقد كان لكل هذه العوامل مجتمعة اثرا كبيرا في اعداد الظروف الملائمة لانتقال القوات السوفيتية الى الهجوم المضاد .

وبهذه المعارك الدفاعية في ستالينغراد وشمال القوقاز، انتهت في منتصف تشرين الثاني المرحلة الاولى من الحرب الوطنية العظمى التي تحتل مكانا فريدا في حياة الشعب السوفيتي . فقد تميزت هذه الفترة بمحنة قاسية للشعب السوفيتي وقواته المسلحة ، وخاصة حين يؤثر الهتلريون على طريقهم الى موسكو ولينينغراد الدمار والموت . وحتى هذا الوقت كان العدو يحتل مساحة من بلادنا تقرب من مليون و ٨٠٠ الف كيلومتر مربع ، ويسيطر على قرابة ٨٠ مليون مواطن . واضطر ملايين المواطنين الى الهجرة من الاراضي المحتلة الى شرق البلاد . وكانت القوات السوفيتية انشاء انسحابها القهري الى الداخل تنكبد خسائر جسيمة في الارواح والمعدات .

ولكن العدو ايضا خسر الكثير بسبب المقاومة المستميتة التي واجهته، فحتى منتصف تشرين الثاني عام ١٩٤٢، بلغت خسائر العدو في الارواح ٢ مليون قتيل وجريح ومفقود .

مساعدة الحلفاء

ما هو الدور الذي لعبته المساعدة العسكرية - الاقتصادية من جانب حلفائنا في عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ . فالمؤلفات في الغرب تبالغ كثيرا في هذه المسألة .

يقول المارشال زوكوف ان هذه المساعدات من وقود ، وبارود ، وصلب ، والسيارات والمواد الغذائية كانت تصل اقل بكثير من الكميات التي وعد الحلفاء بها . وان هذه المساعدات قد لعبت ولا شك دور ايجابيا . الا ان حجمها كان محدودا للغاية بالنسبة لاحتياجات الاتحاد السوفيتي . ويقول ان الطيران واطعم الدبابات لم تكن راضية عن الانواع التي قدمها الحلفاء . ويخص بالذات تلك الدبابات التي تعمل بالبنزين ، والتي تحترق مثل شطلة .

ما هو العدو الذي واجهته القوات السوفيتية في الفترة الاولى من الحرب . يقول المارشال ان الاجابة على هذا السؤال ضرورية لكي تدرك الاجيال الفتية السوفيتية مدى النضال الشاق الذي خاضه الشعب

السوفيتي ضد عدو قوى محنك ، بعيد النظر .
ويتناول زوكوف بالتقييم الجماهير العريضة لقوات الغزو ، اي الجنود وضباط الصف والضباط . فيقول : ان القوات الالمانية قد اجتاحت بلادنا مخمورة بنشوة النصر الخاطف الذي حققته في بلدان اوروبا الغربية ، ومخمورة بدعاية جوبلز ، ومؤمنة بامكانية الانتصار السهل على الجيش الاحمر . . وفي الشهور الاولى من الحرب ، اثبتت فرصة استجواب الاسرى ، ولا بد ان اقول بانني كنت اشعر بايمانهم بكل وعود هتلر المغامرة .
وفيما يختص بتدريبيهم واستعدادهم القتالي ، فقد كان على مستوى رفيع في كل الاسلحة ، وخاصة الدبابات والطيران .

وفي المارك والخدمة الميدانية ، كان الجندي الالماني يعرف واجبه ، ويتميز بالانضباط والصناد ، والاعتداد بالذات . وبناء عليه ، فقد كان المقاتل السوفيتي يواجه عدوا قويا مجربا لا يمكن انتزاع النصر من ايديه بسهولة .
وكانت « اركان حرب » الوحدات والتشكيلات والجيش ملزمة باساليب الادارة الحديثة للقتال ، والممارك والعمليات . وكانت ادارة القوات فسي المعارك تجري عن طريق الاتصالات اللاسلكية التي كانت اجهزتها متوفرة لدى القوات . كما كانت على درجة عالية من الكفاءة في التنسيق بين القوات الجوية والقوات البرية .

وفي بداية الحرب ، كانت فكري حنة عن الرئاسات العليا لاركان حرب القوات الالمانية . فقد كان واضحا انهم اعدوا جيدا الضربات الشاملة واحسنوا اختيار اتجاهات الهجوم الاستراتيجية ، كما وفقوا في اختيار قادة التشكيلات الميدانية . وكثيرا ما كان النجاح يلزمهم في تحديد موعد وكثافة ونوعية الهجوم . ورغم ذلك كله فقد ظهر ان التقديرات السياسية - الاستراتيجية للقيادة العليا الالمانية هي تقديرات خاطئة من الاساس .

ومن بين التقديرات الخاطئة الاساسية ان الهتلريين لم يتوقعوا ان يجد الشعب السوفيتي نفسه بقيادة الحزب قادرا في فترة وجيزة على اعادة تنظيم الاقتصاد الوطني ، وانتاج ما تحتاج اليه القوات المقاتلة من دبابات وطائرات ومدافع وذخيرة وخلافه ، بحيث يصبح التفوق في جانب القوات السوفيتية على القوات الفاشية ، وبحيث ينتهي هذا التفوق بالنصر الحاسم وتحرير الارض المغتصبة مؤقتا .

الفصل الثالث عشر

هزيمة القوات الفاشية في منطقة ستالينغراد

- الشتاء الروسي الثاني ... - ٦٤١ مليون جندي آلماني على الجبهة - تقدير خاطئ
للمخبرات الألمانية -

في تشرين أول ١٩٤٢ أصبح واضحاً أن القيادة الألمانية سوف ترغب على الانتقال الاستراتيجي على امتداد الجبهة الشرقية كلها فبالخسائر الفادحة التي تكبدتها القوات الهتيرية قد سلبتها نهائياً قدرتها الهجومية . وكان هذا - بعد فشل أهداف المرحلة الأولى من الفزو - يعني الاخفاق الثاني لجميع خطط هتلر في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي .

وقادت الدعاية الفاشية حملة واسعة من أجل « الاستعداد لمواجهة الشتاء الروسي الثاني على نحو أكثر دقة وصحة توقيت » وطالبت القيادة الألمانية قواتها بأقامة دفاع حصين لا يقهر . بحيث تمهد الظروف لانتهاء الحرب بالنصر في عام ١٩٤٣ .

في بداية تشرين الثاني ١٩٤٢ كانت قوات الألمان على الجبهة الألمانية السوفيتية تتكون من : ٦٤٢ مليون جندي ، أكثر من ٧٠ ألف مدفع ميدان

وماكية ، ٦٦٠٠ دبابة ، ٣٥٠٠ طائرة ، ١٩٤ سفينة حربية .
وكانت قواتنا في نفس الفترة تتكون من : ٦٤١ مليون مقاتل ، ٧٢٠٥
الف مدفع ميدان وماكينة ، ٦٠١٤ دبابة ، ٣٠٨٨ طائرة حربية . وكانت
الاحتياطيات الاستراتيجية الخاضعة للقيادة العليا تتكون من ٢٥ فرقة ،
١٣ فيلق دبابات ومدركات ، ٧ ألوية مشاة ودبابات .
وعلى ذلك فقد بدأت المرحلة الثانية من الحرب وميزان القوى اخذ
في التغير لصالح الاتحاد السوفيتي .

كانت قيادة القوات البرية الالمانية تقول في القرار رقم ١ بتاريخ ١٤
تشرين اول ١٩٤٢ « ان الروس قد ضعفت قواتهم بشدة في خلال المصارك
الاخيرة ولن يكون في وسعهم هذا الشتاء ١٩٤٢ - ١٩٤٣ ان يحشدوا قدر
ما حشدوه من القوات في الشتاء الماضي » .

وفي قيادتنا العليا كانت العمليات النشيطة على الجبهة الغربية
تهدف الى تضليل العدو وايهامه بان مصدر الخطر هو على هذه الجبهة
بالذات ولقد وقع العدو فصلا في هذا الوهم . ولذلك فانه قد ركز تجميعاته
هنا . . بينما كانت القيادة العليا السوفيتية تعد في الحقيقة لهجوم
عام من ناحية ستالينغراد .

وقد ازداد وضع العدو سوءا نظرا لاختفاق مخابراتهم في تحديد مكان
الخطر . . فقد كانت حشودنا في منطقة ستالينغراد بلغ ١١ جيشا وعددا
من فيالق الفرسان والدبابات والمدركات .

بعد موت ستالين ظهر نوع من الضموض فيما يتعلق بواضع خطة
الهجوم المضاد البالغ الاهمية . لقد اشرت من قبل الى العمل الذي بذل في
وضع هذه الخطة ورغم ان هذه المسألة قد لا تكون اليوم ذات اهمية
خاصة الا انني لرى لزاما على ان اوضح الموقف :
يوجد تصور بان العملية الهجومية المقبلة قد وضعت خطوطها المبدئية
في القيادة العليا في آب ١٩٤٢ وان التصور المبدئي لخطة العملية كان
يحمل طابعا محدودا .

ولكن هذا لم يكن تخطيطا مبدئيا لعملية الهجوم المضاد بل مجرد
خطة لتوجيه ضربات مضادة بهدف تعويق تقدم العدو نحو ستالينغراد .
ويوجد تصور بان الخطة قد جاءت بناء على مبادرة ذاتية من جبهة
ستالينغراد . ويرد على هذا التصور الجنرال فاسيليفسكي في مذكراته بما

يؤكد ان الفضل في وضع هذه الخطة يرجع الى القيادة العليا ورئاسة هيئة اركان الحرب .

لكي توضع خطة عملية استراتيجية كبرى كتلك التي اشتركت فيها ثلاث جبهات في منطقة ستالينغراد ، لا يمكن الانطلاق فقط من المواقع المحدودة للعمليات . بل لا بد من الانطلاق من حسابات الامكانيات المادية - التكنيكية .

من الذي كان يستطيع تقدير الموارد والقوى اللازمة لعمليات على هذا المستوى ؟ لا شك انه تلك الجهة التي تسيطر على الموارد والقوى . وفي هذه الحالة لم تكن هذه الجهة غير القيادة العليا ورئاسة هيئة اركان الحرب .

ويشيد المارشال زوكوف ببطولة وشجاعة واستماتة القوات والقيادة في تحقيق هذه العملية الاستراتيجية الكبرى ثم يقول . وعلى ذلك فليس ينبغي ان يدور حديث حول « حق التأليف » لشخصي بالذات .

ويرى المارشال انه لا دامي لسرد تفاصيل الاحداث فكتب التاريخ في الاتحاد السوفيتي قد اقلت الضوء عليها على نحو صحيح بوجه عام . « وفي المرحلة الاولى من خطة الهجوم المضاد قامت الجبهة الجنوبية الغربية بقيادة الجنرال فاتوتين بالدور الاكبر » .

« وكان على جبهة الدون ان تسدد الى العدو ضربتين الاولى بهدف اختراق دفاع العدو على الضفة اليمنى من نهر الدون . . والثانية بمحاذاة الضفة اليسرى للدون بهدف عزل قوات العدو في هذه المنطقة عن قواته الرئيسية في منطقة ستالينغراد » .

« وكان على جبهة ستالينغراد ان تخترق دفاع العدو في المنطقة الواقعة ما بين ايفانوفكا والحدود الشمالية لبحيرة بارمنسك ثم تطوير هزباتها في الاتجاه الشمالي الغربي حتى تلتقى عند كالانش - خروتوسوفيتسكي بقوات الجبهة الجنوبية الغربية . وبذلك يتم تطويق العدو في منطقة ستالينغراد » .

ويقول المارشال ان الاعداد لهذه العملية قد تطلب تعبئة جبلة للقوى والمعدات والامدادات حتى انه في الفترة من ١ الى ١٩ تشرين الثاني قد نقل عبر نهر الفولجا ١٦٠ الف جندي ١٠ الاف جواد ، ٤٠٠ دبابة ، ٦٠٠ مدفع ميدان ١٤ الف سيارة ، وحوالي ٧٠٠٠ طن من الذخيرة .

« وفي نهاية تشرين الاول وبداية تشرين الثاني قمت بالاشتراك مع فاسيليفسكي وغيره من ممثلي القيادة بمجهود كبير داخل القوات بهدف مساعدة القيادات ورئاسات اركان الحرب على الاستيعاب الكامل لخطّة الهجوم المضاد واساليب تنفيذها . ولقد اظهرت اجتماعاتنا في قيادات الجبهات والجيوش والتشكيلات ان القيادات العسكرية والسياسية قد قامت بعملها الضخم المتعدد الجوانب بروح الشعور بالمسئولية الكبيرة والمباداة المبذولة » .

« وقد كانت المنظمات السياسية والحزبية والكسبوية تقوم بعمل سياسي واسع داخل الوحدات القتالية . ولقد كان هذا الجانب الخطير من الاعداد للقتال يجري باقتدار تحت اشراف المجلس العسكري والادارة السياسية برئاسة الجنرال روداكوف » .

« وفي تشرين الثاني احطت القائد الاعلى علما بالموقف وواجه النقص في الاستعدادات وما يترتب على ذلك من تأجيل موعد العملية » .

« ويجب ان اقول ان القائد الاعلى كان في العادة يظهر الاهتمام اللائق بالتأمين الجوي للعمليات . ولذلك فانه ما ان تلقى شكواي من القصور في الاستعداد الجوي لعملية حتى بعث الي بالرسالة الاتية :
« الى الرفيق كونستنتينوف (الاسم المستعار لروكوف) » .

اذا كان الاستعداد الجوي للعملية غير كامل لدى برمينكو وفاتونين فسوف تنتهي العملية بالفشل . فخبرة الحرب مع الالمان تؤكد ان كسب عملية ضد الالمان لا يمكن ان يتحقق الا في حالة واحدة . . وهي ان يكون لنا التفوق في الجو . . وعندئذ ينبغي على قواتنا الجوية ان تؤدي ثلاث مهام .

⊙ تركيز عمليات طيراننا في منطقة تقدم قواتنا الضاربة ، للقضاء على طيران الالمان ، وتحقيق غطاء جوي قوي لقواتنا .

● افساح الطريق لتقدم قواتنا المهاجمة عن طريق القصف المتواصل لقوات الالمان المتصدية لقواتنا .

● تعقب قوات العدو المنسحبة عن طريق القصف والانقضاض المتواصل لكي تتفرق نهائيا وتعجز عن التجمع والتمركز في اقرب خطوطها الدفاعية .

اذا كان نوفيكيوف يعتقد ان قواتنا الجوية عاجزة - حاليا - عن اداء

هذه المهام فالأفضل ان تؤجل العملية الى حين استكمال العشود الجوية .
التوقيع : « فاسيليف »

(فاسيليف هو الاسم المستعار لستالين ، الذي هو بدوره اسم مستعار
اكتسبه خلال العمل السري في الاعداد للثورة الاشتراكية واسمه الحقيقي
جيفاشيفللي) .

الخطوة الجديدة

وفي ١٣ تشرين الثاني عاد زوكوف وفاسيليفسكي الى موسكو واطلعا
القائد الاعلى شخصا على التخطيط النهائي لعملية الهجوم في ضوء
الظروف الواقعية وفي اثناء ذلك دخل اعضاء مجلس الدفاع الوطني وبعض
اعضاء المكتب السياسي للحرب وترتب عليه ان اوجر الجنرالان مرض
الخطوط العريضة من جديد .

وبعد مناقشة قصيرة تم اعتماد الخطوة .
« ولفتنا نظر القائد الاعلى الى ان القيادة الالمانية حين تواجه موقفا
حرجا في ستالينغراد سوف تدفع الى القتال بعض قواتها المتمركزة في
مناطق اخرى وعلى الاخص في منطقة فيازما لكي تدمم مجموعة القوات
الجنوبية .

ولكي لا يحدث ذلك ، لا بد من اعداد وتنفيذ عملية هجومية في منطقة
شمالي فيازما واقتراحنا تكليف قوات جبهة كالينين والجبهة الغربية
بتنفيذ هذه العملية » .

فرد ستالين :

— سوف يكون ذلك مناسباً . . فمنكم من سيتولى هذه المهمة ؟
وحيث انني وفاسيليفسكي كنا قد اتفقنا مقدما على ذلك فقد قلت :
— عملية ستالينغراد جاهزة من كل الجوانب . يستطيع فاسيليفسكي ان يتولى
مهمة التنسيق بين القوات في منطقة ستالينغراد واستطيع انا ان اتولى
الاعداد للهجوم المضاد من جانب جبهة كالينين والجبهة الغربية .

وافق القائد الاعلى على اقتراحنا ثم قال :

— سافرا غدا صباحا الى ستالينغراد تأكدا مرة ثانية من استعداد
القوات والقيادة للبدء في العملية .

في ١٤ تشرين الثاني عدت من جديد الى قوات فاتونين وتوجه

فاسيليفسكي الى قوات بريمنكو وفي اليوم التالي تلقيت من ستالين البرقية التالية الى الفريق كوفستنتيوف - شخصيا فقط - .

يوم رحيل فيدروف وايفانوف يمكنك تحديده بناء على ما تراه . ثم اخبرني عن ذلك عند عودتك الى موسكو . اذا جاءتك فكرة ان يسبق احدهما الآخر بيوم او يومين فاني افوضك في حل هذه المسألة وفقا لتقديرك الشخصي .

التوقيع : فاسيليف

١٥ - ١١ - ١٩٤٢ الساعة ١٣٤١٠

« وبالتشاور مع فاسيليفسكي استقر الرأي على ان يبدأ هجوم الجبهة الجنوبية الغربية والجيش الخامس والستين لجبهة الدون في ١٩ تشرين ثاني، وان تبدأ جبهة ستالينغراد هجومها في ٢٠ تشرين الثاني واعتمد القائد الاعلى قرارنا » .

وفي ١٧ تشرين ثاني عدت الى موسكو لاعداد عملية الهجوم المضاد المتفق عليها في الساعة ٧،٣٠ صباحا ١٩ تشرين الثاني بدأ الهجوم .
باحكام . . وبعد معارك عنيفة في كل الاتجاهات المحددة في الخطة تم اطباق الحصار على قوات العدو في الايام الاولى من كانون الاول وبذلك انتهت المرحلة وجرى الانتقال الى المرحلة التالية وهي تصفية القوات الفاشية المحاصرة .

وفي وقت متأخر من ليل ٢٨ تشرين الثاني اتصل ستالين بروكوف في مقر قيادة جبهة كالينين وسأله عن مدى معرفته بتطورات الاحداث في منطقة ستالينغراد وطلب منه تقديم مقترحاته بشأن تصفية القوات الالمانية المحاصرة في ضواحي ستالينغراد .

وفي ٢٩ تشرين الاول ارسل زوكوف الى القائد الاعلى برقية حدد فيها التطورات المحتملة للموقف ، واقترح اتخاذ اللازم للحيلة دون تقدم القوات الالمانية في منطقة نيجيتي تشرسكيا وكوتيلنيكوفو للاتحام بالقوات الالمانية المحاصرة وخلق ممر بري لانتهاء الحصار .

« وينبغي تقسيم القوات الالمانية المحاصرة الى مجموعتين منفصلتين . . وبعد فصل المجموعتين عن بعضهما لا بد من البدء بالقضاء على المجموعة الاضعف ثم يلي ذلك توجيه القوى لضرب المجموعة المتواجدة في منطقة ستالينغراد » .

« في النصف الاول من كانون الاول كانت عملية تصفية قوات المدو المحاصرة تجري على نحو بطيء جدا » .

ذلك ان القوات الالمانية - وقد وعدوا هتلر شخصا بالمساعدة - كانت تقاتل بشراسة في كل موقع . ولم تكن قواتنا تحقق في هجومها التقدم المنشود ، وذلك نظرا لان جانبها كبيرا منها كان يتصدى للقوات الالمانية القادمة من ناحية كوتيلينيكو .

« وبالنسبة للالمان كانت الهزيمة في موقعة ستالينغراد تهدد بخطر التصاعد لتصبح كارثة كبرى من الناحية الاستراتيجية » .

لانقاذ الوضع

ولانقاذ الوضع العام كانت القيادة الهتلرية تجري قبل كل شيء ضرورة اعادة التوازن الى قوات جبهتها الدفاعية في اتجاه ستالينغراد .

وتحت حمايتها يمكن سحب قوات الجيش (1) من القوقاز . ولهذا الغرض كونت القيادة الهتلرية مجموعة جديدة باسم « جيش الدون » تحت قيادة الفيلد مارشال مانشتين الذي يعتبره الزعماء الالمان اكثر القواد موهبة واستعدادا . ولتكوين هذه المجموعة سحب بعض القوات الالمانية من مناطق اخرى على الجبهة الالمانية - السوفيتية ، كما من فرنسا والمانيا .

« وكما اصبح معروفا فيما بعد ، اقترح الفيلد مارشال مانشتين لانقاذ القوات المحاصرة ، تكوين مجموعتين من القوات الضاربة . الاولى في منطقة كوتيلينيكوفو والثانية في منطقة تورموسين .

لكن القدر لم يتسم لمانشتين ولا للقوات الالمانية المحاصرة . فالقيادة العليا الالمانية كانت في ذلك الوقت تعاني من عجز في قواتها الاحتياطية . واما القوات التي امكن حشدتها فقد تقدمت ببطء شديد على خطوط مواصلات بالغة الطول . وكان فدائيونا في مؤخرة المدو يعلمون السبب الذي من اجله تسرع القوات الالمانية في تحركها نحو الجنوب ولذلك فانهم قد بدلوا كل المستطاع لتعطيل تحرك المدو . ودون وجل من الارهاب الدموي البالغ العنف ، ورغم اجراءات الامن المشددة من جانب القوات الالمانية ، استطاع الفدائيون البواسل تدمير عشرات القوافل من القوات الهتلرية .

كان الوقت يمضي، .. والفشل يلاحق خطط الخروج من الحصار
واذ شعر هتلر بدنو اجل قواته المحاصرة في ضواحي ستالينغراد ، فقد
اصدر تعليماته الى مانشتين ببدء العمليات دون انتظار التجمع الكامل
للقوات .

وفي ١٢ كانون الاول بدأ مانشتين عملياته فقط في منطقة كوبيلينكوفو
بمحاذاة خط السكة الحديد . وبعد معارك طاحنة تكبدت فيها القوات
الالمانية المهاجمة والقوات السوفيتية المدافعة خسائر باهظة استطاع
مانشتين ان يتقدم حتى اصبح على بعد ٤٠ كيلومترا من ستالينغراد .

« كان العدو - فيما يبدو - يظن ان النصر اصبح قريبا وواقعا . لكن
هذه الامال كانت سابقة لاوانها . فبناء على اوامر القيادة العليا دفع
فاسيليفسكي الى ساحة القتال بالجيش الثاني بقيادة الجنرال مالينوفسكي
(وزير الدفاع السوفيتي الذي توفى منذ عامين) ، وكان جيشا قويا التسليح
بالدبابات والمدفعية واستطاع هذا الجيش بضرباته ان يحسم مصير القتال
لصالح القوات السوفيتية .

وفي ١٦ كانون الاول بدأت قوات الجبهة الجنوبية الغربية والجيش
السادس التابع لجبهة قورنيج الزحف في اتجاه وسط حوض نهر الدون
للقضاء على القوات الالمانية هناك والانطلاق لمهاجمة مؤخرة قوات العدو
في تورموسين .

وازاء التقدم الجامح لهذه القوات اضطر مانشتين الى تشتيت قواته
المخصصة لتوجيه ضربتها في منطقة تورموسين . وهكذا وجدت قوات
جيش « الدون » الالمانى نفسها في مواجهة قوات الجبهة الجنوبية الغربية
التي تهاجمها من المؤخرة والجناحين .

وفي ٢٨ كانون الاول اتصل الجنرال فالوئين قائد الجبهة الجنوبية
الغربية بالقيادة العليا :

- يمكن القول بان كل القوات التي كانت في مواجهة الجبهة وقوامها
١٧ فرقة قد قضى عليها نهائيا . اسرنا من جنود العدو ما يزيد من ٦٠
الفا كما لقي حتفه في المعركة ما لا يقل عن هذا العدد تقريبا . وباستثناء
حالات نادرة لم تعد بقايا القوات المعادية ببدياي مقاومة تقريبا .

بطولات

ويتوقف المارشال زوكوف عند بطولة الفيلق الرابع والعشرين بقيادة الجنرال بادانوف فقد تمكن من اختراق دفاع العدو المحاصر وتوغل مسافة ٣٠٠ كيلومتر بعد معارك حامية قضى اثناها على ٦٧٠٠ جندي من قوات العدو واتجه ناحية محطة تاتسينسك ثم هاجمتها من كل الجهات « على الطائر » اي دون توقف حتى لا يعطي للعدو فرصة التاهب الكامل للمواجهة ، وفي اثناء ذلك استطاع النقيب فومين بقوة من الدبابات اقتحام المحطة وتدمير خط السكة الحديد ستالينغراد - ليخايا ، وابادة قوات المحطة ، والاستيلاء على شحنة من الطائرات التي تحتاج فقط الى التجميع ، وللأسف الشديد استشهد البطل النقيب فومين برصاصة غادرة ومات ميتة الإبطال . وبعد ذلك قامت قوة الدبابات بقيادة النقيب نيتشايف بمهاجمة المطار حيث كانت تقبع على الأرض ٢٠٠ طائرة نقل على وشك الانطلاق . لكنها لم تتمكن من ذلك فقد دهمتها دباباتنا . ولكن قوات العدو استطاعت ان تحاصر فيلق الدبابات الرابع والعشرين الذي ظل يقاتل خمسة ايام بلياليها . وفي ٢٩ تشرين الثاني خرج الفيلق من الحصار بفضل بسالة المقاتلين والقيادة القديرة للجنرال بادانوف .

« ونظرا للدور البارز للفيلق الرابع والعشرين في المعارك التي دارت على الفولجا والدون منح الجنرال بادانوف - لأول مرة في الاتحاد السوفيتي - وسام سوفوروف من الدرجة الثانية كما منح عدد كبير من ضباط وجنود الفيلق ميداليات وأوسمة مختلفة .

وبعد معارك ظافرة خاضتها قوات جبهة ستالينغراد والجبهة الجنوبية الغربية انتهت امال قائد جيش « الدون » الفيلدمارشال ماتشتين في رفع الحصار عن قوات باولوس الألمانية المحاصرة في منطقة ستالينغراد .

كانت القيادة والقوات الألمانية تدرك هذا ... ولذلك فقد حاولت المستحيل للخروج من الحصار حتى اصابتها خيبة الامل في النهاية .

اما القيادة العسكرية السياسية الهتلرية فبعد ان تاكدت من الفشل النهائي لرفع الحصار عن قوات باولوس ومن الموت المحقق لهذه المجموعة ، اصبحت ترى الهدف الرئيسي ليس في انقاذ حياة المحاصرين بل في ارغامهم على مواصلة القتال الى اخر المدى بهدف انهك القوات السوفيتية . فقد كانت في حاجة الى اقصى فسحة ممكنة من الوقت

لكي تسحب قواتها من القوقاز وتجميع قوات أخرى من الجبهات المختلفة.
من أجل فتح جبهة جديدة قادرة إلى حد ما على إيقاف الهجوم السوفيتي
المضاد .

تصفية القوات الألمانية

وكانت القيادة العليا السوفيتية تدرك أنه لا بد من تصفية القوات
المحاصرة في أسرع وقت ممكن حتى تتمكن قوات الجبهتين العاملتين في
هذه المنطقة من القضاء على القوات الألمانية المنسحبة من القوقاز والمتواجدة
في القطاع الجنوبي من الاتحاد السوفيتي .
وفي نهاية كانون الأول في اجتماع مجلس الدفاع الوطني قال القائد
الأعلى :

- ينبغي أن تسند إلى شخص واحد قيادة عملية تصفية العدو المحاصر .
حتى لا يتسبب وجود قائدين للجبهتين في تعويق مسير العملية .
وأيد أعضاء المجلس هذا الرأي .
- من هو القائد الذي سنكلفه بالقضاء النهائي على العدو ؟
ثم توجه القائد الأعلى إلى قائلاً :
- وانت .. لماذا تصمت ؟

- كل من القائدين جدير بالثقة .. ولكن بريمنكو سوف يحل في نفسه
أن يسلم قيادة قوات جبهة ستالينغراد إلى راكاسوفسكي .

- ليس هذا وقت الإخلد على الخاطر .. قاطعني بذلك ستالين ، وأمرني
بإبلاغ قرار مجلس الدفاع الوطني إلى بريمنكو .

« وفي نفس الليلة اتصلت باللاسكي بالجنرال بيمينكو وقلت له :
- أندريه إيفانوفيتش : قرر مجلس الدفاع الوطني إسناد قيادة التصفية
النهائية لمجموعة العدو المحاصرة في منطقة ستالينغراد إلى راكاسوفسكي ،
وعليه ينبغي عليك أن تسلم قوات الجيوش السابع والخمسين ، والثاني
والستين والرابع والرابع والستين التابعة لجبهة ستالينغراد إلى جبهة
الدون لتلحق بقواتها .

- ما الدافع لذلك ؟ سألتني بريمنكو .

وشرحت له دوافع هذا القرار .

ويبدو أن ذلك قد أغضب أندريه إيفانوفيتش ، وكان واضحاً أنه
ليس في حالة توهله لمواصلة الحديث بهدوء فاقترحت عليه أن يتصل
بي بعد قليل .

وبعد ١٥ دقيقة رن الجرس من جديد .
ايها الرفيق الفريق اول ، انني لا زلت فير قادر على فهم الدافع الى
تفضيل قيادة جبهة الدون ؟ انني ارجوك ابلاغ الرفيق ستالين برغبتي في
ابقائي هنا حتى التصفية النهائية للعدو .
وردا على اقتراحي بان يتصل هو بالقائد الاعلى شخصا فيما يتعلق
بهذه المسألة رد بريمنكو :
- لقد حاولت بالفعل ولكن يوسكريبيشيف (سكرتير ستالين)
اخبرني ان الرفيق ستالين قد امر بان يكون التفاهم في هذه المسألة معك
انت وحدك .

واضطرت الى الاتصال تليفونيا بالقائد الاعلى وابلاغه بما دار بيني
وبين بريمنكو . وانبني ستالين على ذلك بالطبع ثم قال انه لا بد على
الفور من اصدار امر باخضاع جيوش جبهة ستالينغراد الثلاثة لقيادة
راكاسوفسكي . وقد اصدر هذا الامر في ٣٠ كانون الاول ١٩٤٢ .

» وفي اول كانون الثاني ١٩٤٣ أصبحت جبهة الدون تتكون من ٣١٢
الف مقاتل نشيط ، وقراية ٦٥٠٠ مدفع ميدان وماينة ، واكثر من ٢٥٠
دبابة ، وحوالي ٣٠٠ طائرة ، في كانون الثاني ١٩٤٣ ، نتيجة للمبارك التي
خاضتها الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة ستالينغراد كان خط الجبهة
الخارجي في منطقة الدون قد انتقل قراية ٢٠٠ - ٢٥٠ كيلومترا . واصبح
وضع القوات الالمانية المحاصرة اكثر سوءا من اي وقت مضى .

وحرصا على عدم اراقة الدماء امرت القيادة العليا السوفيتية بقيادة
جبهة الدون بان توجه اندارا الى القوات الالمانية المحاصرة بان تسلم نفسها
كأسرى حرب طبقا للقواعد المعترف بها . ولكن القيادة الالمانية - رفضت
هذا الانذار وامرت جنودها بالقتال حتى اخر طلقة واعدة اياهم
بالخلاص الذي لم يكن ممكنا . وكان الجنود الالمان يدركون ذلك .

في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٣ بعد التمهيد للهجوم بقصف مدفعي مركز
تحركت قوات جبهة الدون بهدف اختراق دفاع العدو وتفريق حشوده
تمهيدا للقضاء عليها على مراحل . لكن الهجوم لم يحقق الهدف .

وفي ٢٢ كانون الثاني بعد تمهيد بالقصف المدفعي الكثيف النيران
تحركت قوات جبهة الدون في هجومها الثاني . لم يحتمل العدو قوة
الضربة فبدأ في التفرق وفي هذا القتال حقق الجيش السابع والخمسون
بقيادة الجنرال تالبوخين ، والجيش السادس والستون بقيادة الجنرال

جادوف افضل النتائج .

وفي مذكراته بعنوان « كارثة على الفولجا » يقول ١. فيدير ضابط المخابرات السابق في جيش باولوس السادس الالماني : « كنا مضطرين الى بدء الانسحاب على امتداد الجبهة كلها .. الا ان الانسحاب تحول الى فرار .. كان طريقنا مفروشا بالجثث التي غطتها العاصفة الثلجية وكانها تشفق بنا ... كنا ننسحب بلا اي اوامر .. وفي السباق مع الموت ، الذي كان يلحق بنا دون عناء، منتزعا من صفوفنا حرما من الضحايا ، اخذ الجيش ينزوي في بقعة صغيرة » .

وفي ٣١ كانون الثاني قضى نهائيا على المجموعة الجنوبية من القوات الالمانية واستسلمت بقاياها وعلى رأسها الفيلد مارشال باولوس . وفي ٢ شباط ١٩٤٣ استسلمت بقايا المجموعة الشمالية . وبذلك انتهت تماما المركة العظمى التي دارت على ضفاف الفولجا . حيث انتهت وجودها اكبر تجمعات القوات الالمانية وقوات حلفاء المانيا الفاشية (كانت تشارك في القتال مجموعة كبيرة من القوات الرومانية .. غير انها استسلمت بسهولة في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٣ وبلغ عدد الاسرى اكثر من ٣٠ الف جندي) .

المركة الفلرية

كانت معركة ستالينغراد بالغة الفزارة . وانا شخصا لا اقلانها الا بمعركة الدفاع عن موسكو . ففي الفترة من ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢ الى ٢ شباط ١٩٤٣ تم تدمير ٣٢ فرقة ، ٣ الوية ، وفقدت الفرق الست عشرة الباقية ما يتراوح بين ٥٠ بالمئة و٧٥ بالمئة من تشكيلها .

وبلغت جملة خسائر العدو في منطقة الدون والفولجا وستالينغراد قرابة ١٦٥ مليون جندي ، ٣٥٠٠ دبابة وغيرها من الاليات الهجومية ، ١٢ الف مدفع ميدان وماكنة ، ٣ الاف طائرة وقذرا هائلا من المعدات الحربية الاخرى .

ما هي الظروف التي ادت الى الهزيمة الماساوية للقوات الالمانية ، والتي ساعدت على تحقيق انتصارنا التاريخي ؟

ان فشل كافة الخطط الاستراتيجية الفلرية في عام ١٩٤٢ قد تروى على التهوين من قوة وامكانيات الدولة السوفيتية ، والقوى الروحية

الجسارة الكامنة في الشعب السوفيتي ، كما ترتب على التهويل في قوة وقدرات القوات الالمانية .

ان المقدمات الهامة للنصر قد تحققت في عمليات « اورانوس » و« زحل الصغير » ، « الطوق » (اسماء سرية للعمليات الكبرى التي قامت بها القوات السوفيتية عام ١٩٤٢) . وكان ذلك يرجع الى التنظيم الماهر لعملية المفاجأة التكتيكية ، والاختيار الموفق لاتجاه الضربات الرئيسية ، والتحديد الدقيق لنقاط الضعف في دفاعات العدو . كما ان التقدير السليم للاحتياجات الى القوى والوسائل الضرورية لسرعة اختراق الدفاع التكتيكي للعدو ، والتطوير النشط للاختراق بهدف التطويق النهائي للقوة الرئيسية للعدو ، هذا التقدير السليم قد لعب دورا كبيرا جدا . وقد اكتسبت الدبابات والطائرات اهمية كبرى في جموح العمليات ، وفي التطويق النهائي للعدو .

ان الاعداد العملي للهجوم المضاد قد تم من جانب القيادة واركان الحرب بمنتهى الدقة ، والتفكير العميق ، وفي اثناء الهجوم كانت ادارة القوات على كافة المستويات تتميز باليقظة والصلابة والانطلاق العنيد نحو الهدف .

وكان للعمل السياسي دوره البارز في تربية الجنود على الثقة بقوتهم ، والشجاعة ، والرجولة ، والبطولة الجماعية اثناء القتال . لقد كان انتصار قوائنا في معركة ستالينغراد نقطة تحول جلري في الحرب لصالح الاتحاد السوفيتي ، وبداية لطرد القوات المعادية من اراضيها .

« ان الهزيمة في ستالينغراد - كما قال الجنرال الالماني فيستفال - قد ارهبت الشعب الالماني وجيشه القوي . فطوال تاريخ المانيا كله لم يوجد ابدا مثل هذا الفناء البشع لقوات بهذه الضخامة .

وفي اواسط الجنرالات والضباط وكذلك في صفوف الشعب الالماني اخذت تظهر بشكل اكثر حدة مظاهر العلاقة السلبية نحو هتلر شخصيا . بدأ الالمان يدركون ان هتلر والمحيطين به قد قادوا البلاد الى مفاسرة مكشوفة ، وان الانتصارات التي وعدهم بها قد قتلت مع قواتهم في الكارثة على الدون والفولجا وشمال القوقاز .

وبعد هزيمة القوات الالمانية والايطالية ، والمجرية ، والرومانية على

الدون والغولجا انهار نفوذ المانيا على حلفائها وبدأت الخلافات فيما بينها ، كما ظهرت في هذه الدول بعض المحاولات لايجاد مخرج ما من شباك الحرب التي اوقعهم فيها هتلر .

وفي البلدان المحايدة كما في البلدان التي كانت لا تزال تتبع سياسة الترقب ، لعبت هزيمة الالمان في ستالينغراد دور الايقاظ ، والاقناع بعظمة الاتحاد السوفيتي ، وحتمية القضاء على المانيا النازية .

ومعروف للكل كيف انتقلت اخبار هزيمة القوات الالمانية في ستالينغراد عبر العالم كله ، وكيف ألهمت الشعوب الى مواصلة الكفاح ضد الاحتلال الفاشي .

وبالنسبة لي شخصيا فقد كانت هناك اهمية كبرى لعملية الدفاع عن ستالينغراد ، واعداد الهجوم المضاد ، والاشتراك في حل المسائل المتعلقة بالعمليات في جنوب البلاد ، فهنا تلقت تدريبا على الاعداد للهجوم المضاد اكبر بكثير مما تلقيته في منطقة موسكو عام ١٩٤١ . حيث لم تكن الامكانيات تسمح بتنظيم هجوم مضاد يهدف الى تطويق حشود العدو .

وتقديرا للنجاح في القيادة العامة للهجوم المضاد في منطقة ستالينغراد وما تروى على ذلك من انتصارات كان لها اعرق الاثر في مستقبل النضال المسلح ضد الغزو النازي منحت الحكومة السوفياتية عددا من الاوسمة لبعض الجنرالات ومنهم زوكوف ...

كما ادت هزيمة الالمان في منطقة ستالينغراد والدون والقوقاز الى خلق الظروف المناسبة لتوسيع الهجوم المضاد على كل جبهات القتال في الاتجاه الجنوبي الغربي .

في فترة الشتاء طورت القوات السوفيتية عملياتها غربا فاستطاعت تحرير روستوف ، نوفوتشركسك ، كورسك ، خاركوف ، وعدد من المناطق الهامة الاخرى ، واصبح الوضع الاستراتيجي سيئا للغاية بالنسبة للقوات الالمانية على امتداد الجبهة الالمانية - السوفيتية .

« وفي بداية كانون الثاني ١٩٤٣ كلفته القيادة العليا بالاشتراك مع فورشيلوف في تنسيق الجهد المشترك بين جبهة لينغراد وجبهة فولخوف من اجل رفع الحصار عن لينغراد من ناحية بحيرة لادوجا » .
وتم وضع الخطة المناسبة . وفي ١٢ كانون الثاني بدأ الهجوم

على دفاع القوات الالمانية بقوات برية وجوية تابعة للجبهتين وبالتعاون مع القوات الجوية التابعة لاسطول البلطيق .

وفي ١٨ كانون الثاني بعد قتال ضار التقت قوات جبهتي لينغراد^٤ وفولخوف في منطقة المدن العالمية « رقم ١ » .

« كنت في هذا الوقت في منطقة المدينة رقم ١ ورأيت كيف اندفع مقاتلو الجبهتين ليعانقوا بعضهم البعض فرحا برفع الحصار ، ودون اكرات بالقصف المدفعي لقوات العدو المتلية للال سينيافينسك . كانت بحق فرحة طال انتظارها . لقد كان لرفع الحصار عن لينغراد اهمية سياسية وعسكرية كبرى بالنسبة للشعب السوفيتي . لقد فشلت خطة هتلر لابادة اهالي لينغراد بالموت جوعا .

وهنا اود ان اشيد بالعمل الكبير الذي قامت به منظمة لينغراد الحزبية في ايام محنة الحصار » .

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٤٣ . . . يوم انتهاء الحصار قررت رئاسة مجلس السوفيت الاعلى منحي رتبة مارشال الاتحاد السوفيتي .

وفي ٢٠ كانون الثاني دخلت انا وفورشيلوف مدينة لينغراد . وهناك شعرنا بغبطة عميقة لان احدا ممن التقينا بهم لم يشك من الحرمان الذي تروى على الحصار . كانت كل الاحاديث تدور عن ضرورة التعجيل بتوريد الوسائل المادية - الاشتراكية اللازمة لانتاج وتصليح المعدات الحربية التي تحتاج اليها قواتنا المسلحة .

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الفصل الرابع عشر

هزيمة الالمان في مناطق كورسك واريول وخاركوف

- تعديد لحظة الانتقال للهجوم - تحرير منطقة الكوبان - التعبئة لعملية كورسك - تنظيم
اللوخنة وتأمين الجبهة -

» منذ لحظة الانتقال الى الهجوم المضاد فسي منطقة
ستالينفراڤ (تشرين الثاني ١٩٤٢) حتى اذار ١٩٤٣ دمرت
القوات السوفيتية ما يزيد عن ١٠٠ فرقة معادية . بالطبع
لم تحقق قواتنا هذه الانتصارات الكبرى بسهولة . فنحن
ايضا قد تكبدنا خسائر جسيمة .

بدأ زوكوف يستعد للهجوم وكان اول ما بدء بالاستعداد لمركة كورسك
كما يصف لنا كيف قامت المخابرات السوفيتية بالتجسس على الالمان
وحركاتهم حتى لا يؤخذوا على حين غرة منهم ..

كما اشداد باعمال الفدائيين الروس الذين اضطر الجيش الالمانى الى
تخصيص قوات خاصة من جيشه لمطاردتهم وحربهم ..

عملية كورسك

وعلى وجه العموم فقد حققت القوات السوفيتية قبيل نشوب معركة كورسك تفوقا كميا وكيفيا على القوات الالمانية الفاشية .
وللقيام بعملية كورسك حشدت القيادة الالمانية ٥ فرق ، ١٠ الاف مدافع ميدان وماكينة ، ٢٧٠٠ دبابة واكثر من الف طائرة اي حوالي ٦٠ بالمئة من القوة الجوية الالمانية في الشرق ، ٩٠٠ الف جندي على اسم استعداد لخوض القتال .

« كانت القيادة الالمانية واثقة في النصر . وبدلت اجهزة الدعاية قصارى جهدها لرفع الروح المعنوية للقوات واعدة بالنصر الاكيد في المعركة القادمة » .

« وكان على قيادتنا العليا ان تختار : الدفاع او الهجوم ؟ .. وبعد مناقشات طويلة قرر ستالين بحسم في منتصف ايار تقريبا مواجهة هجوم العدو بنيران كافة انواع اسلحة الدفاع النشط ، وضربات الطيران المركزة ، وبضربات مضادة من جانب الاحتياطيات التكتيكية والاستراتيجية وبعد انهالك العدو واستنزاف قواه يبدأ تحطيم المدو بهجوم مضاد قوي في اتجاهات بلجوراد - خاركوف واربول وبعد ذلك يشن هجوم شامل على العدو في كافة الاتجاهات » .

وفي اثناء اعداد العدو لهجومه قام بعدة عمليات تحويرية لاختفاء نواياه الحقيقية مثل عمل تشكيلات وهمية وغير ذلك من اساليب التضليل المعروفة .. وكان ينبغي على هيئة اركان الحرب العليا ان تفهم ذلك جيدا وتستطيع التمييز بين ما هو حقيقي وما هو زائف .

مثل هذا العمل لا يمكن تنظيمه الا على نطاق واسع تحت اشراف مركزي يوحد كل الجهود وليس على اساس هذه او تلك من الافكار والمقترحات المنفردة » .

« بالطبع ، حتى على المستوى العالمي يمكن الوقوع في بعض الاخطاء وعلى سبيل المثال فقد توقعت القيادة وهيئة اركان الحرب . ان تكون اقوى تجمعات العدو في مواجهة الجبهة الوسطى في منطقة اربول بينما اظهر الواقع فيما بعد ان اقوى التجمعات كانت في مواجهة جبهة لورونيغ » .

« في الايام الاخيرة من حزيران ١٩٤٣ اتضح الموقف نهائيا . وثأكد لنا ان العدو سيقوم بالهجوم في اقرب فرصة في منطقة كورسك بالدات وليس في اي منطقة اخرى غيرها » .
وقام العدو بهجومه فعلا وكان من الفاشلين ..
فقد وقفنا امامه لا نتحرك ولا نتراجع ونصب عليه كل ما نملك من الاسلحة ، والايمان حتى تكسر هجومه وتوقف ..
وبدا الروس يهاجمون بعد ان وقفوا موقف الدفاع اولا ..

بدا الهجوم

في صباح ٢ آب بدأ الهجوم .. وفي النصف الثاني من اليوم استطاعت قوات جبهة فورنيج ان تحطم الدفاع التكتيكي للعدو وتتوغل مسافة ٣٠ - ٣٥ كيلومترا وفي السادسة صباح ٦ آب دخلت طلائع قواتنا مدينة بيلوجراد وفي ٧ اب حررت قوات جبهة فورنيج مدينة يوجودخوف ، وبعد معارك حامية كانت الغلبة فيها للقوات السوفيتية اصبحت جيوش جبهة البراري على ابواب مدينة خاركوف . وفي ضواحي خاركوف اجاد الجنرال ماناجاروف « اللب » المدفعي الذي كان قد وعد به المارشال زوكوف .

ويبدو ان روح الجنرال كانت ايضا سائدة بين جنوده اذ يقص المارشال زوكوف كيف استطاعت فصيلة قوامها ١٦ فردا ان تحتل التبة ٢٠١٧ .
وحين سيطرت الفصيلة على هذه القمة كان الباقون على قيد الحياة سبعة ابطال فقط صاح فيهم قائدهم الملازم اول يتريشيف :

— بارفاق . سوف نصمد على القمة تماما كما وقف « البنغيلونيون عند دوبروسيكوف » نموت ولا نتراجع !

واضطرت القوات الالمانية خوفا من تطويقها الى الانسحاب من مدينة خاركوف فدخلتها قوات جبهة البراري ومن بينها قوات ماناجاروف .
وفي ٥ اب استطاعت قوات جبهة برانسك تحرير مدينة اريول ...
وعندما اتصلنا بالقائد الاعلى واخبرناه بان في امكاننا تطويق مجموعة كبيرة في منطقة اريول والقضاء عليها قال لنا :

— ان هدفنا هو اخراج الالمان من بلادنا باسرع ما يمكن اما التطويق والتصفية فسوف نفعلها فيما بعد حين يصبح العدو اكثر ضعفا .
لم نصر على اقتراحنا . ولقد اخطانا في عدم الاصرار . فقد كان

ينبغي عليّ وفاسيليفسكي وانتونوف ان ندافع عن راينا بصلاية اكبر . فقواتنا في ذلك الوقت كانت قادرة على القيام بعمليات التطويق والتصفية . ونتيجة لبطء هجومنا المضاد على الجبهات الثلاث ، تمكن العدو من اعادة تجميع قواته ودعمها بقوات جديدة ، وسحب قواته بانتظام من منطقة اريول وبتحرير خاركوف انتهت هذه المعركة العظمى في ٢٣ اب ١٩٤٣ . ما هي النتائج العامة لمعركة كورسك ؟ بعد ٥٠ يوما من القتال الضاري تمكنت قواتنا من القضاء على ٣٠ من افضل فرق العدو من بينها ٧ فرق دبابات . وبلغت جملة خسائر العدو ٥٠٠٠ فرد ، ١٥٠٠ دبابة، ٣٠٠٠ مدفع ثقيل ، وعدد ضخم من الطائرات . وفي تلك الفترة لم تكن القيادة الالمانية تستطيع تعويض خسائر كهذه باي حال من الاحوال .

وثناء القتال في منطقة كورسك اظهرت قواتنا رجولة فريدة ، وبطولة جماعية ، وفنا قتاليا راقيا . وقد قدرت الحكومة والحزب دور ابطال المعركة فوزعت الاوسمة والنياشين والميداليات على ما يزيد عن مائة الف جندي وضابط وجنرال . كما حصل كثيرون على لقب بطل الاتحاد السوفيتي .

وشعرت المانيا الفاشية بشبح الهزيمة التي لا مفر منها ، ووجد الهتلريون انفسهم مضطرين لان يدفعوا الى الجبهة السوفيتية - الالمانية في صيف ١٩٤٣ باربع عشرة فرقة وقوات اخرى كبيرة ، تم سحبها من جبهات اخرى مما اضعف جبهاتها في فرنسا وايطاليا .

انتهت الى الفشل التام محاولة هتلر لانتزاع المبادرة من القيادة السوفيتية . ومنذ ذلك الحين وحتى النهاية كانت المانيا الفاشية تخوض معارك دفاعية فحسب . كانت قوة المانيا قد استنزفت ولم يعد هناك من يستطيع انقاذها من المصير المحتوم . . كانت هذه القضية محسومة . . وكانت المسألة مسألة وقت فقط .

واكتسبت القيادة السوفيتية خبرة كبيرة فسي قيادة العمليات الاستراتيجية والتكتيكية وارتفعت الى مستوى رفيع في فن القتال .

وكانت معركة كورسك تختلف عن معركتي موسكو وستالينغراد بانها اول معركة كبرى جرى كسبها بضربة ساحقة وتم تنفيذها طبقا لمخطط موضوع من قبل ومعد اعدادا جيدا .

وفي معركة كورسك استخدمت الدبابات والوحدات والتشكيلات المدرعة وعلى نطاق واسع لأول مرة ...

وقد لعبت الدور الحاسم في المناورة أثناء العمليات وفي التطوير السريع للانتصارات في عمق العدو ، وفي قطع الطريق بين قوات العدو والمؤخرة .

ان جيوش الدبابات وفرق وفيالق المدفعية ، والجيوش الجوية للجبهات قد نمت امكانياتها بشكل حاسم وبالتالي غيرت من طبيعة العمليات التي تقوم بها جبهات القتال من حيث المدى كما من حيث الاهداف . ففي صيف ١٩٤٣ . كان بوسعنا ان نحشد في الكيلومتر الواحد من الجبهة من ١٥٠ الى ٢٠٠ مدفع ثقيل ومن ١٥ الى ٢٠ دبابة .

ولقد لعب الغدائيون دورا كبيرا ساعد على تحقيق النصر في ممالك كورسك - خاركوف - اوبول . فقد خاضوا حربا ضروسا ضد قوات العدو في بيلوروسيا ، سمولينسك ، وغيرها .

ومن العوامل الحاسمة التي صنعت النصر يمكن ان نعد الروح المعنوية والسياسية العالية في صفوف القوات . ويرجع ذلك الى العمل السياسي . الحزبي الكبير والشاق الذي قام به القادة العسكريون والسياسيون ومنظمات الحزب والشباب ، وذلك في فترة الاستعداد للمعركة كما في أثناء القتال . فقد بذلوا كثيرا من قواهم الروحية لكي يرفعوا اكثر فاكثر من القدرات القتالية للقوات .

وفي ٢٥ اب استندميت الى القيادة العليا لمناقشة الموقف والمسائل المتعلقة بمستقبل الهجوم الشامل للقوات السوفيتية التي اخذت بعد النصر في منطقة كورسك ابعادا جديدة .

تحرير اوكرانيا

وكان ستالين يرى ان المانيا لا تزال قادرة على مواصلة الحرب ضد الاتحاد السوفيتي خاصة ان الولايات المتحدة وبريطانيا لم تكونا بعد عازمتين على شن عمليات هجومية واسعة في اوروبا . فعملية ازالة القوات في جنوب ايطاليا لم تكن قادرة على احداث تغيرات جوهرية في الموقف وان كانت قد سببت لهتزر بعض الاهتمامات الاضافية .

وكنتم اوافق هيئة اركان الحرب على ان المانيا غير قادرة على القيام بعملية هجومية واسعة في الشرق ، ولكنها تملك من الامكانيات المادية والتكنيكية ما يكفي للقيام بعمليات دفاعية نشيطة . . ولقد ظهرت

بالفعل قدرة القوات الالمانية على تسديد ضربات مضادة محسوسة الى حد كبير وحقت في ذلك بعض الانتصارات المؤقتة .

الانتصارات

في ١٩٤٣ كان الاتحاد السوفيتي قد وصل بانتاج الطائرات الحربية الممتازة الى ٣٥ الفا ، و بانتاج الدبابات والمدفعية المتحركة ذاتيا الى ٢٤ الفا وبذلك كنا قد احرزنا تفوقا على المانيا في الكم والكيف .

وفي ٢٥ اب انعقد في القيادة العليا اجتماع لاستعراض الموقف على كل الجبهات ، وانا الان لا اذكر كل ما دار فيه ، لكنني اذكر ان اهم شيء كان الحاج القائد الاعلى على ضرورة الاسراع بالسيطرة على نهري الدنيبر ومولوتشنيا حتى لا يتمكن العدو من تحويل اوكرانيا الى صحراء .

وكان القائد الاعلى محقا فيما يراه فالهتلريون في انسحابهم كانوا يوحشية شريرة يحرقون ويدمرون كل ذي قيمة . كانوا ينسفون الغبارك والمصانع ، ويحيلون المدن والقرى الى خرائب ، ويهدمون محطات الكهرباء والافران المالية وخلافه ، ويشعلون النيران في المدارس والمستشفيات، ويهدمون الاف الاطفال والنساء والشيوخ .

وفي ٦ ايلول تلقيت من القيادة العليا تعليمات بتوجيه الجبهات الخاضعة لقيادتي العامة في اتجاه الدنيبر . كان الهجوم يسير ببطء شديد، وكان العدو يبدي مقاومة شديدة ولكنه تحت وطأة خسائره اضطر في منتصف ايلول الى سحب قواته من منطقة الدنياس وبولتافا في اتجاه الدنيبر . واتخذت الجبهات كل الاجراءات التي تضمن مطاردة العدو حتى الدنيبر والاستيلاء على رؤوس جسر في عدة مواقع ثم العبور فورا لهذا العائق المائي الكبير .

ولتحطيم معنويات العدو وقت الجبهات في المعركة بكل ثقل قواتها الجوية ، كما انشأت لهذا الغرض وحدات صغيرة سريعة الحركة كلفت بالتحرك السريع الى مؤخرة العدو بهدف السيطرة على المواقع التي يمكن ان يلجأ العدو اثناء انسحابه الى اتخاذها لاقلمة خط دفاعه .

ومن اجل رفع الروح المعنوية للقوات اثناء عبور العوائق المائية اعلنت القيادة العليا في ٩ ايلول عن منح وسام سوفوروف لقادة عملية عبور نهر دسنس ولقب بطل الاتحاد السوفيتي لقادة عملية عبور نهر الدنيبر .

وفي شمال كييف استطاعت قوات الجنرال تشيبسوف التابعة لجهة البراري ان تعبر الدنيبر بعد معارك دامية . وقد امتازت بتجاعة خارقة احدى الوحدات بقيادة الرقيب نيفيدوف الذي منح لقب بطل الاتحاد السوفيتي .

وعلى جبهة البراري نشبت معارك ضارية لعبور النهر انتهت بانتصارات كبرى .

وقد تم العبور في ظل السيطرة الجوية لقواتنا التي قامت بجهود كبرى للدمم القوات البرية ، واشترك في القتال طيران الجبهات المقاتلة والطيران البعيد المدى التابع للقيادة العليا مباشرة واستطاع الطيران اثناء العملية ان يوجه ضربات بالغة العنف الى مطارات العدو ومواقعه الدفاعية واحتياطياته .

وحتى نهاية ايلول كانت قواتنا قد دمرت دفاعات العدو وعبرت النهر في منطقة تمتد الى ٧٥٠ كيلومترا من لوف الى زابوروجي وسيطرت على رؤوس جسور على الجانب الاخر من النهر ، اتخذت كمناطق انطلاق لتحرير الضفة الغربية .

وتقديرا للعبور الظافر لنهر الدنيبر وما اظهرته القوات خلال ذلك من بطولة ، ورجولة ، وفن ، وتقديرا لتدمير دفاع العدو على الدنيبر منحت القيادة العليا لقب بطل الاتحاد السوفيتي لأكثر من ٢٥٠٠ جندي وضابط وجنرال .

وقد تم تغيير اسماء الجبهات بعد عبور الدنيبر فاصبحت جبهة فورنيج تسمى الجبهة الاوكرانية الاولى واصبحت جبهة البراري تسمى الجبهة الاوكرانية الثانية . وفي الفترة من ١٢ تشرين اول الى ٢٣ كانون الاول قامت الجبهتان بعملية كييف الاستراتيجية .

وفي فجر ٥ تشرين الثاني ١٩٤٣ كانت قوات الجيش الثامن والثلاثين بقيادة الجنرال موسكولينكو قد وصلت ظافرة بعد معارك عديدة عنيفة الى مشارف كييف وفي الرابعة صباح ٦ تشرين استرجعت قوات موسكولينكو وفيلق دبابات كرافتشينكو .

وعلى التو ارسلت الى القائد الاعلى برقية جاء فيها : « بسعادة طافية بلفكم بان قوات الجبهة الاوكرانية الاولى قد حققت مهمتها في استرداد مدينتنا الرائعة كييف عاصمة اوكرانيا . ثم تطهير مدينة كييف

من المحتلين الفاشيست . وتواصل قوات الجبهة الاوكرانية الاولى تنفيذ المهام المقررة » .

وفي تخطيط وتنظيم عملية الاستيلاء على كييف والقضاء على مجموعة القوات المعادية في كييف ، لعب المجلس العسكري للجيش الثامن والثلاثين دورا كبيرا وهاما بقيادة الجنرال موسكولينكو وعضوية الجنرال بيشوف وكانت اعادة تجميع القوات للاستيلاء على كييف وتوسيع « رأس جسر » كييف تجري تحت القيادة المباشرة للجنرال اندريه جريتشكو نائب قائد الجبهة (وزير الدفاع الحالي للاتحاد السوفيتي)

وفي ٣٠ ايلول عبرت قوات الجبهة الاوكرانية الثانية نهر الدنيبر وسيطرت على رأس جسر بطول ٣٠ كيلومترا وعمق ١٥ كيلومترا . وقد علمت القيادة العليا من مصادر المخابرات بان هتلر قبل بدء العمليات قد حضر الى مقر اركان حرب جيش « الجنوب » واعلن مطالبته الحاسمة للقوات بالدفاع عن الدنيبر حتى اخر فرد والاحتفاظ به بأي ثمن .

كان الهتلريون يدركون ان ضياع اوكرانيا من ايديهم يؤدي الى الانهيار النهائي لجبهتهم في جنوب بلادنا ، وضياع شبه جزيرة القرم، ويمكن القوات السوفيتية في فترة قصيرة من الوصول الى حدود الاتحاد السوفيتي،

ولكن برغم التعليمات التي اصدرها هتلر والفيلد مارشال مانشتين خسرت القوات الالمانية المعركة على الدنيبر وكذلك لم تفلح محاولات الالمان لاقامة خط دفاعي جديد في كيرمنتشوج - دنيبر وبتروفك زابورجي . طبقا لتقارير هيئة اركان الحرب استطاعت القوات السوفيتية تحرير اكثر من نصف الاراضي التي استولى عليها العدو في عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ . ومنذ بداية الهجوم المضاد في ستالينغراد ابادت القوات السوفيتية او اسرت ٥٦ فرقة المانية بالكامل ، والحقت هزيمة مريعة ب ١٦٢ فرقة معا اضطر العدو الى اعادة تشكيلها او تعويض خسائرها الفادحة ، كما خسر العدو اكثر من ٧٠٠٠ دبابة واكثر من ١٤ الف طائرة ، واكثر من ٤٠ الف مدفع ميدان وماكينة وعددا هائلا من افضل جنوده وضباطه وجنرالاته .

وبينما كانت المانيا الفاشية ترداد عجزا كان الاتحاد السوفيتي يرداد قوة . ففي عام ١٩٤٣ تكونت ٧٨ فرقة جديدة وفي نهاية العام كان لدينا ٥ جيوش دبابات ، ٣٧ فيلق دبابات ومدركات ، ٨٠ لواء دبابات مستقل ١٤٩٦

كتيبة دبابات ومدفعية ذاتية الحركة ، ٢٦ فرقة مدفعية ، ٧ فرق صواريخ
ومعددا كبيرا من وحدات المدفعية الاخرى .

كان نتيجة للتحويل النهائي للحرب لصالح الاتحاد السوفيتي ، وانزال
قوات الحلفاء في ايطاليا وخروجها من الحرب ، ونمو قوي المقاومة في
جميع البلاد المحتلة ، ان تعمقت الأوضاع في البلدان الحليفة لالمانيا الفاشية .
وكان سخط الشعوب على الفاشية ينمو ، ورغبتها في اناة الحرب تزداد .
وفي ولندا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وفرنسا هبت مواصف
حركات التحرير الوطني .

وبدأت في داخل المانيا تغيير النظرة الفاشية واخذت القوى المعادية
للفاشية تجد من يتعاطف معها .

وفي بلادنا تعاضمت الثقة بالذات - لا بد ان نخوض الحرب حتى النصر
النهائي . كانت خسائرنا جسيمة . . لكن الشعب السوفيتي يدرك جيدا
واجبه نحو الوطن .

الفدائيون

وكانت حركة الفدائيين في الاتحاد السوفيتي قد تحولت الى قوة هائلة
تهدد العدو تهديدا خطيرا . ففي ١٩٤٣ التحقت الحركة الفدائية بالعدو خسائر
جسيمة فقد فجرت ١١ ألف قطار ، ٤٠ ألف عربة سكة حديد ، ٦ الاف
قاطرة ، اكثر من ٢٢ ألف عربة واكثر من ٩٠٠ جسر سكة حديد .

وفي ١٩٤٣ اتخذ الحزب عدة قرارات لاعادة الانتاج في المناطق المحررة .
كما اصبحنا نتلقى من الولايات المتحدة مساعدات اكبر منها في عام ١٩٤٢
ولكنها كانت اقل بكثير من القدر الموعود بل ان حجمها قد تناقص في نهاية
سنة ١٩٤٣ .

ولقد فرحنا بلا شك للانتصارات التي تحققت في ايطاليا والعلمين
وتونس والمناطق . لكن هذا على اي حال لم يكن ما طال انتظارنا له من
جانب الحلفاء لكي نشعر بدورهم الجدير بالتقدير .

وبعد عودته من مؤتمر طهران قال ستالين :

« قطع روزفلت على نفسه وعدا جادا ببدء عمليات واسعة في فرنسا عام
١٩٤٤ واعتقد انه سيفي بوعده . وحتى اذا لم يف بوعده فان قوتنا الذاتية
تكفي للاحاق الهزيمة بالمانيا الفاشية » .

في نهاية ١٩٤٣ كانت قواتنا قد حققت في هذين الاتجاهين نتائج هامة فهي قد حررت بالكامل اقليمي كالينين وسمولينك وجزءا كبيرا من بيلورسيا الشرقية .

وفي الاتجاهين الجنوبي الغربي والجنوبي كان خط الجبهة قد اصبح يمر عبر بوليسيا ، جيتومتير - فاستوف - كيروفوجراد - زابوروجي - خرسون . اما شبه جزيرة القرم فقد كانت لا تزال تحت الاحتلال الماني . وفي منطقة ليننغراد والشمال كان الوضع قد تحسن كثيرا عن ذي قبل . كان اعضاء مجلس الدفاع الوطني كما كنا نحن اعضاء القيادة العليا نرى اننا قد حققنا انتصارات باهرة وان العدو قد مني بهزائم مريرة لكنه مع ذلك كان لا يزال قويا . ولقد استطاع العدو في عام ١٩٤٤ دخول معارك دفاعية قوية نظرا لعدم وجود جبهة ثانية في اوروبا . ففي بداية ١٩٤٤ كانت القوات الالمانية في الاتحاد السوفيتي تتكون من قرابة ٢ مليون جندي ، ٥٤٠٠٠ الف مدفع ميدان وماكينه ، ٤٥٠٠ دبابة واكثر من ٣ الاف طائرة .

وبعد دراسة شاملة وعميقة للموقف قررت القيادة العليا شن هجوم شتوي شامل على العدو من ليننغراد حتى القرم وقد كلفت وفاسيليفسكي باعداد الشكل النهائي للاهداف الموضوعه امام جبهات القتال المختلفة واستغرق هذا العمل جهدا متواصلا في هيئة الاركان طوال خمسة ايام .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٤ تم تطويق مجموعة كبيرة من حشود العدو في منطقة كورسون - شيفشينكوفسكي . وقد استماتت القوة في فك الحصار فهي بخلاف مجموعة ياولوس في ستالينغراد لم تكن في رفع الحصار بواسطة قوات اخرى كما كان ياولوس يأمل في جهود مانشتين ولهذا فهي قد بدلت كل ما في وسعها لاختراق خطوط القوات السوفيتية التي تحاصرها .

وفي ٨ شباط ١٩٤٤ قدمت القوات السوفيتية الى القوات الالمانية اندارا بالتسليم لكن قيادة القوات الالمانية المحاصرة رفضت الانذار فسي ٩ منه .

وفي ١٧ شباط تمت تصفية قوات العدو ، بمد معركة عنيفة واسرت الجبهة الاوكرانية ١٧ الف جندي الماني . وبالاتصار في هذه المعركة تهيأت الظروف لتحرير اوكرانيا الشرقية بأسرها . .

الفصل الخامس عشر

هزيمة القوات الفاشية في بيلوروسيا وانسحابها النهائي من اوكرانيا

- انتصارات الجيش الاحمر تحول الشعب كله الى كتيبة مقاتلة - معاصرة الجيش
الثاني الرابع - كيف لم تحرير مدينة « مينسك » - اصبح السؤال الان : متى نبدأ في تحرير
بولندا - جندي سوفياتي يلقى بالنبلة فوق دبابة ويقتل بجسده تحت جنائز دبابة اخرى
فتفجر .

عاش شعب (روسيا البيضاء) تحت نير الاحتلال
ثلاث سنوات . كان الهتلريون خلالها يقتصبون ويدمرون
ثروة الشعب البيلوروسي ، فقد احرقوا ١٢٠٠ مبنى في
القرى ، ونسفوا ٧ آلاف مدرسة ، وابدوا ٢ مليون و ٢٠٠
الف شخص من المدنيين والاسرى . ولستم تكن هنالك اسرة
واحدة لم تمان من بشاعة الحرب . ولكن بيلوروسيا برغم
كل المعنى ظلت صاعدة رافعة الراية في مواجهة العدو .

وحين وصلت اخبار انتصارات الجيش الاحمر فسي تحرير اوكرانيا
استمد الفدائيون البواسل قوة جديدة في تحدي العدو . وحتى صيف
١٩٤٤ بلغ عدد الفدائيين في روسيا البيضاء ٣٧٤ الف مقاتل . وكانت
القيادة العامة للنضال الفدائي تجري تحت اشراف اللجنة المركزية للحرب

في جمهورية بيلوروسيا وعلى رأسها السكرتير الاول بونومارينكو الذي كان في نفس الوقت رئيسا لاركان حرب الحرب الفدائية في الاتحاد السوفياتي .

كانت عملية روسيا البيضاء تجري على مساحة تزيد في الطول عن الف كيلو متر ، وتزيد في العمق عن ٦٠٠ كيلو متر ، وفي مواجهة ٩٠٠ الف من خيرة جنود العدو المسلحين ٩٥٠٠ مدفع ميدان وماكينة ، ٩٠٠ دبابة ، ١٣٠٠ طائرة ، وكان خط دفاع العدو بعمق ٢٥٠ - ٢٧٠ كيلو مترا . كانت بداية العملية في ظروف الدكرى الثالثة للحرب بعد ان كانت قواتنا قد حققت انتصارات ساحقة على العدو مما جعل جنودنا يدخلون المعركة وهم على ثقة بالنصر .

ولا شك ان معنويات المقاتلين قد زادت ارتفاعا حين جاءهم الانباء بان الحلفاء قد انزلوا قواتهم في نورماندي من اعمال فرنسا . وفتحوا بذلك جبهة جديدة في اوربا . ورغم ان مصير المانيا الفاشية كان قد تحدد نهائيا الا ان القوات السوفياتية قد ابتهجت لفتح جبهة جديدة لعلها ان ذلك من شأنه ان يعجل بانتهاء الحرب قريبا .

في ٢٣ حزيران بدا الهجوم العام . كان على جبهة البلطيق الاولى ان تحرر بولوتنسك وتواصل زحفها نحو جلوبوكيا . وكان على الجبهتين الثانية والثالثة تحرير مدينة يفسك عاصمة بيلوروسيا ، وكان على جبهة بيلوروسيا الاولى ان تتجه بقواتها الرئيسية نحو سلونسك وان توجه بعض قواتها لتسديد ضرباتها في اتجاه مينسك لكي تحتله من الجنوب والجنوب الغربي وكان هذا التخطيط يجري تحقيقا لرغبة القيادة العليا لتطويق جميع مجموعات جيش « الوسط » الالماني وتصفيته بالكامل .

ولقد حققت القوات السوفياتية اهدافها طبقا لما ورد في الخطة وكان تحقيق الخطة تعبيرا عن نضج وبعد نظر القيادة السوفياتية واتقانها المتعاضم للفن العسكري الاستراتيجي .

كانت الظروف قد اخذت تنضج لاطباق الحصار على جميع وحدات الجيش الالماني الرابع ، وكنا جميعا في القيادة العليا وهيئة اركان الحرب والجبهات نشغل بالنا كثيرا بالقرار الذي يمكن ان تتخذه القيادة الالمانية . وكما هو المتبع في مثل هذه الحالات ركزت القيادة على جهد المخابرات في استطلاع تفكير العدو والاجراءات العملية التي يمكن ان يلجأ اليها . لكن جهودنا لم تفلح في معرفة اي شيء ذي قيمة . وافادنا الفدائيون بان العدو قد بث الالغام حول مقر الحكومة ومقر

اللجنة المركزية للحزب في مدينة مينسك المحتلة ، وحفاظا على هذه المباني الضخمة من التدمير قررنا ارسال قوة من الدبابات لتحاول الوصول سريعا الى داخل المدينة دون اشتباك مع قوات العدو فسي مشارف العاصمة ، وزودنا القوة بوحدات من سلاح المهندسين لرفع الألغام .

وقد تمت العملية بنجاح . ففي فجر ٣ تموز اقتحم فيلق الدبابات الثاني بقيادة بورديني المدينة من الشرق . وفي نفس الوقت احتل الفيلق الاول للدبابات التابع لجبهة بيلوروسيا الاولى اطراف المدينة من ناحية الجنوب الشرقي . ثم اخذت تتوالى بقية التعزيزات . وتم تحرير مينسك نهائيا في مغيب يوم ٣ تموز .

وتم تطويق قوات العدو قوامها ١٠٠ الف جندي . كانت المدينة قد تغيرت كثيرا . لقد عشت فيها من قبل ٧ سنوات وكنت اعرف كل شارع فيها . ابن المسارح والجسور والاستاد والعمارات .. كان ذلك كله قد تحول الى انقاض .

وكان اكثر ما يؤلم النفس هو رؤية وجوه الناس .. كان معظمهم يلوح لي كاشباح .. وكانت الدموع تسيل على الخدود بغير حدود .

وفي ٨ تموز صفيت المجموعة المحاصرة فقتل من قتل ووقع في الاسر من تبقى . وكان عدد الاسرى ٥٧ الفا من بينهم ١٢ جنرالا . ثلاثة منهم قواد فيالق وتسعة قواد فرق . وكان بعض الاسرى قد تمكن من الفرار لكنهم لم يلحقوا بقواتهم المنسحبة لانها كانت تتقهقر بسرعة كبيرة . وقد وقع هؤلاء في قبضة الفدائيين .. اسياذ غابات بيلوروسيا الحقيقيين .

« كانت مسألة هزيمة المانيا في الحرب مسألة محسومة ليس لدى احد شك فيها . فقد حسمها القتال على الجبهة السوفياتية الالمانية في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . ولكن التفكير كان فقط في موعد انجاز هذه المهمة كما في النتائج العسكرية - السياسية » .

كان ستالين يفهم الامور بعمق ، وكان يعتقد - ولقد كان على حق - ان الاتحاد السوفياتي قادر على خوض الحرب منفردا حتى الحاق الهزيمة النهائية بالمانيا الفاشية بالاعتماد على القوى الذاتية للاتحاد السوفياتي . ورغم ذلك فقد كان القائد الاعلى يرحب بفتح جبهة جديدة في اوروبا لما يمكن ان يؤدي اليه من انتهاء الحرب سريعا .. وهو امر بالغ الحيوية بالنسبة للشعب السوفياتي الذي ضحى كثيرا طوال هذه السنوات .

« ثار سؤال : ما الذي يمكن ان تطمع فيه المانيا في هذه الظروف ؟ رد ستالين على هذا السؤال بما يلي :

— يطمع فيما يطمع فيه اي مقامر حتى يخسر كل ما معه ، واضاف
مولوتوف — هتلر — فيما يبدو — سوف يحاول التوصل الى اتفاقيات
منفردة مع الدوائر الحاكمة الامريكية والبريطانية فرد ستالين :
— هذا محتمل من جانبه . . لكن روزفلت وتشرشل لن يقبلا الاتفاق
مع هتلر . سوف يحاولان تحقيق مصالحهم السياسية في المانيا ليس عن
طريق التعاون مع الهتلريين الذين فقد الشعب ثقته بهم ، وانما عن طريق
البحث عن الطريق الى تشكيل حكومة المانية موالية لهم .
ثم سألني القائد الاعلى :

— هل تستطيع قواتنا البدا في تحرير بولندا والزحف دون توقف
حتى فيسلو .
فاجبته : ان قواتنا ليست فقط قادرة على ذلك بل ملزمة بالاستيلاء
على رؤوس جسور على النهر لكي تؤمن عملية الهجوم الاستراتيجي فسي
اتجاه برلين .

واصلت القوات السوفياتية زحفها حتى قضت على ثلاثة من جيوش
« الوسط » الالمانى وهي جيش الدبابات الثالث وجيشي المشاة الرابع
والثاسع . وتكونت نتيجة لذلك فجوة في الارض التي يسيطر عليها العدو . .
فجوة (١) بامتداد ٤٠٠ كيلو متر وعمق ٥٠٠ كيلو متر . ولم تستطع القوات
الالمانية ان تغطي هذه الفجوة بوحدات اخرى .

ووصلت القوات السوفياتية الى فيسلين فسي منطقة ديمبلين حيث
حررت من بقي على قيد الحياة في معسكر الابادة النازي في ميدانيكا حيث
اباد النازيون مليوناً ونصف المليون من الناس .

وفي ٢٨ تموز قضت قوات جبهة روسيا البيضاء على قوات العدو في
منطقة بريست وحررت المدينة وقلمة بريست البطلة التي كانت اول ارض
روسية تعرضت للعدوان الفاشي في ٢٢ تموز ١٩٤١ .

وقد لعب الفدائيون دوراً مجيداً في القضاء على مجموعة جيوش
الوسط بالمساعدات التي اودها للقوات المسلحة النظامية . —

وفي ٢٧ تموز بدأت القوات السوفياتية عبور نهر فيسك الامر الذي
لعب دوراً هاماً في تحرير بولندا فيما بعد . واذا كان الالمان يدركون خطورة
العبور فقد وجهوا مزيداً من قواتهم لمواجهة الجيشين العابرين الثامن
والثاسع والستين . . ودارت معارك طاحنة صدت فيها القوات السوفياتية
جميع هجمات العدو وكبدته خسائر جسيمة .

كان البقاء على الشاطئ الاخر عملية قتالية تفوق فسي ضراوتها اي

وصف . وهذا ما قاله لي احد الابطال الجرحى :

« صدرت الاوامر لفصيلتنا بعبور فيسلو في الشروق . كنا اكثر قليلا من خمسين بقيادة الملازم بوربا . وبمجرد وصولنا الى الشاطئ اطلق العدو نيرانه علينا ثم شق هجومه فتصدينا لهجومه الاول ثم الثاني ثم الثالث . وفي اليوم التالي بدأ العدو يهاجمنا بالدبابات والمشاة . وكان الهجوم الاخير بالدات عنيفا للغاية . لم يبق منا على قيد الحياة غير ١٢ فردا » .

وقبل الهجوم الاخير للعدو قال لنا الملازم بوربا : « عددنا قليل » يا اولاد » . في المساء سوف يجيئنا التعزيز .. وحتى المساء لا بد ان نقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا . لن نستسلم !

وبعد قليل هاجمنا العدو بالدبابات وفصيلة مشاة اقتربت منا جدا بضمة دبابات . القى الملازم قنبلة على دبابة فدمرها ثم القى بنفسه تحت دبابة ثانية وفي يده قنبلة . لقد ردعنا العدو .. لكن القائد استشهد . بقي من الفصيلة ٦ افراد فقط حين جاءتنا نجدة ولم يستطع موقعنا في ايدي العدو » .

« كان الجندي يقص بطولة قائده ورفاقه عاجزا عن حبس الدموع في مقتلته . وانا ايضا لم اقل على سماع روايته دون تأثر بالغ وحزن عميق .. هذه قصة هؤلاء الرجال الشجعان . وقد منح لقب بطول الاتحاد السوفياتي للملازم الشهيد بوربا » .

المخابرات

« وهنا اريد ان اتحدث عن المخابرات مرة ثانية بوصفها عاملا خطيرا في النضال المسلح . فخبرة الحرب تؤكد ان معلومات المخابرات وتحليلها الصحيح لا بد ان تتخذ اساسا لتقدير الموقف والقرارات المتخذة والعمليات المرسومة . واذا لم تتمكن المخابرات من تقديم معلومات صحيحة او حدثت اخطاء جوهرية في تحليلها فلا بد في هذه الحالة ان تنحرف قرارات القيادة والاركان في جميع المستويات عن الاتجاه السليم . ونتيجة لذلك فان سير العمليات لن يتم كما هو متصور في اثناء التخطيط » .

وهكذا ، في خلال شهرين من القتال الشنيف المتواصل ، تم القضاء على اثنين من اكبر التجمعات الاستراتيجية لالمانيا الفاشية في الاراضي السوفياتية وتحررت جمهورية بيلوروسيا كما تم تحرير جمهورية اوكرانيا ، وتطهير جانب كبير من جمهورية ليتوانيا مع تحرير شرق بولندا .

الفصل السادس عشر

في الطريق الى برلين

- زوكوف وقيادة الزحف على برلين - الحلفاء يهرون فرنسا وبلجيكا وهولندا ويقتربون من الحدود الألمانية - حمامات الدم التي اثلها رجال البستابو - سحق البرابرة الفاشيون مدينة وارسو - ستالين يراجع عملية فرو برلين .

في نهاية ايلول ١٩٤٤ عدت الى القيادة العليا من بلغاريا وبعد ايام قلائل كلفني القائد الاعلى بالسفر الى منطقة وارسو حيث تجتمع قسوات الجبهتين الاولى والثانية البيلوروسيتين - روسيا البيضاء - .
قبل كل شيء كنت اود ان اعرف الموقف في وارسو ذاتها . فالقيادة الألمانية قد صبت نقيتها بوحشية خاصة على اولئك الذين اشتركوا في انتفاضة المدينة . اباد الالمان عددا هائلا من المدنيين ودمروا المدينة حتى الاساس . وتحت الانتقاض لقي الالف البولنديين حتفهم .

ادرك المارشال زوكوف ان القوات السوفياتية لم تحط علما بموعده انتفاضة وارسو ولهذا لم تستطع تقديم اي عون للمقاومة الشعبية وحين حاولت القوات دخول المدينة تكبدت خسائر فادحة واقنع المارشال بان مواصلة الهجوم لن يؤدي الى نتيجة ايجابية وان الخسائر الفادحة ليس لها ما يبررها وكان يشاركه الرأي الجنرال واكوسوفسكي .

وعاد المارشال والجنرال الى موسكو ليطالبا ستالين بالامر بالانتقال من وضع الهجوم الى وضع الدفاع في الجبهة البلوروسية الاولى وكان ستالين يصر على دأيه بينما كان زوكوف هو الآخر يصر على رأيه المعارض .
- ارى ان الهجوم لن يؤدي الا الى التضحيات . وفي النهاية اقتنع ستالين .

وفي اليوم التالي سال ستالين زوكوف :
- ما رأيك في ان تكون قيادة كل الجبهات خاضعة في المستقبل للقيادة العليا مباشرة .

وفهمت انه يعني اعفاء مندوبي القيادة العليا للتنسيق بين كل مجموعة من الجبهات . وان هذه الفكرة قد راودته ليس فقط نتيجة لحدث الامس .
- توجد امكانية تامة لادارة الجبهات مباشرة من القيادة العليا فعدد الجبهات قد تناقص ، وتناقص كذلك امتداد الجبهة العامة كما تناقص عدد القواد .

- هل تقول ذلك دون استياء ؟
- وفيم الاستياء . اعتقد انني وفاسيليفسكي لن نصبحا عاطلين .
وفي مساء نفس اليوم استدعاني القائد الاعلى وقال لي :
- الجبهة البلوروسية الاولى تشق طريقها الى برلين . نحن نفكر في وضحك في هذا الاتجاه .

فاجبته بانني مستعد لان اقود اي جبهة .
- وسوف تظل في المستقبل نائبا لي سوف اتصل الان براكاسوفسكي واقترح عليه الانتقال الى الجبهة الثانية البلوروسية .

كانت الانتصارات الاقتصادية للاتحاد السوفياتي تتيح توفير الامكانيات الضرورية ليس فقط للقوات المسلحة السوفياتية ، وانما ايضا للشعوب المناضلة في وسط وجنوب شرق اوربا وعلى سبيل المثال فقد قدم الاتحاد السوفياتي الى قوات التحرير البولندية ٣٥٠٠ مدفع ميدان ، ١٢٠٠ طائرة ، ١٠٠٠ دبابة ، ٧٠٠ الف بندقية ومدفع رشاش ، ١٨ الف سيارة ، وقدم الى قوات التحرير اليوغسلافية ٤٤٢٩ مدفع ميدان وماكينة ، ٥٠٠ طائرة ، واكثر من ١٣٢٩ محطة اذاعة وكثير جدا من المعدات الحربية المختلفة .

في هذه الفترة كان الاتحاد السوفياتي قد حرر اراضيه من قوات الاحتلال الالماني واسترد حدوده الدولية باستثناء كورلياندا ، ونقل العمليات الحربية الى اراضي دول اوربا الشرقية والماتيا الفاشية .
وكانت القوات البلغارية قد اتخذت مواقعها على الجبهة . كما كانت

قوات جيش التحرير الشعبي بقيادة المارشال تيتو قد وصلت الى بحر الادرياتيك .

وكانت قوات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قد حررت فرنسا وبلجيكا وجزءا من هولندا واقتربت من حدود المانيا الفاشية عند ما يسمى بخط زيجفريد .

المانيا في حرج

واصبحت المانيا في وضع حرج فقدرتها على انتاج السلاح قد انخفضت جدا في نهاية ١٩٤٤ وكان الضغط على المانيا يتزايد من جميع الجهات . من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب والغرب . وبذلك وقعت في حصار استراتيجي كان من الصعب جدا ايجاد مخرج منه .

وفي ذلك الوقت كان رجال الجستابو يسحقون بلا هوادة اي مظهر لعدم الثقة بنظامهم او الاختلاف عنهم في التفكير ، وخاصة بمسد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وتكونت بقيادة هتلر قوات احتياطية خاصة تضم الرجال من ١٨ الى ٦٠ سنة . بل كون الهتلريون كذلك فيلقا نسائيا . كانت المانيا الفاشية تستجمع في ياس آخر قواها . محاولة التغلب على الكارثة المحققة .

ومع ذلك فقد كانت المانيا لا تزال قادرة على خوض مباركة دفاعية قوية فقد كان لديها في ذلك الوقت جيش قوامه ٧٥ مليون جندي من بينهم ٣٠ مليون في الجيش العامل . وحتى ذاك الوقت كانت المانيا تحتفظ بقواتها الرئيسية على الجبهة الشرقية : ٣١ مليون جندي ، ٢٨٥ ألف مدفع ميدان وماكينة وحوالي ٤٠٠٠ دبابة ، حوالي الفين طائرة . ويجب مراعاة ان خط الجبهة السوفياتية الالمانية كان اصبح اقصر كثيرا من السابق ويضي ذلك ان كثافة القوات الالمانية كانت لا تزال عالية .

لكن القوات السوفياتية كانت وقتذاك تتفوق على القوات الالمانية من جميع النواحي : حوالي ٦ ملايين جندي في الجيش العامل ، اكثر من ٩١٠٤ ألف مدفع ميدان وماكينة ، حوالي ١١ ألف دبابة ومدفع ذاتي الحركة ، واكثر من ١٤٠ ألف طائرة .

وكانت الى جانبنا قوات بولندية وتشيكوسلوفاكية وبلغارية ورومانية قوامها ٣٢٠ ألف جندي .

وفي صفوف قوات الجبهة الثالثة البلوروسية قاتلت ببطولة كتيبة الطيارين الفرنسيين « نورمانديا - نيمان » .

وفي الغرب كانت القوات الامريكية والانكليزية والفرنسية تتكون من ٨٧ فرقة جيدة التسليح ٦٥٠٠ دبابة ، واكثر من ١٠ آلاف طائرة . وفي مواجهة هذه القوى حشدت المانيا ٧٤ فرقة صغيرة العدد ، ١٦٠٠ دبابة ، ١٧٥٠ طائرة بعد دراسة دقيقة للموقف وامكانيات جميع القوى المتحاربة قررت القيادة العليا السوفياتية ان تقوم في بداية ١٩٤٥ بعدة عمليات هجومية واسعة في عدة اتجاهات :

- تصفية حشود العدو في بروسيا الشرقية والاستيلاء عليها .
- تصفية قوات العدو في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر والنمسا .
- الوصول الى خط نهر فيسلو - برومبيرج - بوزنان - برسلاو - جرر موارفيا .

في ذلك الوقت كانت قد تكونت علاقات مرضية بين القيادة العليا السوفياتية وبين قيادات الحلفاء .

« ولا بد هنا ان اذكر احد الحقائق الهامة وهو ان برلين كانت على بعد واحد من الجبهة السوفياتية وجبهة الحلفاء . وليس صدفة ان ونستون تشرشل في مذكراته قد تحدث عن برلين في اكثر من موضع كهدف رغب الحلفاء في الاستيلاء عليه رغم ان رؤساء الدول كانوا قد اتفقوا على ان تتولى القوات السوفياتية احتلال برلين » .

« لا بد ان اقول ان ستالين كان يشق بالمعلومات الواردة من ايرنهاور . ومن المكائبات المتبادلة بين ستالين وروزفلت يتضح انه كان هناك وضوح تام في تنفيذ الاتفاق المبرم بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في مجال التوريدات كما في مجال المسائل الاستراتيجية » .

« ولكن هذا لا يمكن قوله فيما يتعلق بونستون تشرشل . فخطاباته لم تكن تتسم بالصراحة بل كان يحسن المرء في ثناياها بنوع من المعاطلة . والسعي باصرار الى الاستيلاء على المناطق الوسطى من المانيا . مما جعل الحكومة السوفياتية تصبح اكثر حلرا » .

« في نهاية تشرين الاول كلفتني القيادة العليا بالعمل على وضع الخطوط الرئيسية للعمليات النهائية للحرب وفي مقدمتها العمليات في اتجاه برلين » . وامرت باجراء « مباراة حربية » على مستوى الجبهة والجيوش وفي هذه المباريات كانت تجري عملية موازنة بين القوات السوفياتية وقوات

العدو وكانت لهذه المباريات فائدة كبرى في ادراك جميع الوحدات المقاتلة لدورها في المعركة القادمة .

وقبل توجيه الضربة الى برلين ذاتها كان المقرر اجراء عمليتين هجوميتين واسعتين في الاتجاه القربي الاستراتيجي الاولى في بروسيا الشرقية والثانية في اتجاه وارسو - برلين .

كانت الجبهة الاولى بروسيا البيضاء مكلفة بتسديد ضربتها في الاتجاه العام نحو بوزنان ، والجبهة الاولى الاوكرانية مكلفة بالوصول الى نهر اودير شمال شرقي جلوجاو ، برسلاو ، رايبور . اما الجبهة البولندية الثانية بروسيا البيضاء فكانت مكلفة بمواجهة مجموعة حشود العدو في بروسيا الشرقية .

في مذكراته عن معركة فيسٹو يقول الجنرال الالماني تيبيلسكرنج : « كانت الضربة قوية الى حد انه قذف الى الوراء ليس فقط بفرق خط الدفاع الاول ولكن ايضا بقوات احتياطية كبيرة ومتحركة كانت قد انضمت الى القوات بناء على التعليمات المشددة لهتلر شخصيا . وقد تكبدت هذه القوات ما تكبدت من خسائر اثناء « الاعداد المدفمي » للروس (قصف تمهيدي يسبق الهجوم) . وفيما بعد لم يعد يمكن استخدام هذه القوات اثناء الانسحاب الشامل .

ويضيف زوكوف ان استخدام هذه القوات لم يكن ممكنا لان قوات الجبهة الاوكرانية الاولى كانت قد قضت عليها . وفي ١٧ كانون الثاني دخلت الجيوش السوفياتية وارسو .

تدمير فرسوفيا

وكما بعد كل هزيمة كبرى اجري هتلر حركة تغييرات جديدة للقواد فاستبدل الجنرال جاريي بالجنرال شيرنر ، واستبدل الجنرال لوبوفيتش بالجنرال يوسي .

وحين دخلت القوات السوفياتية وارسو وجدتها انقاضا . وقد ارسل المجلس العسكري للجبهة برقية الى القائد الاعلى :

« سحق البربريون الفاشيست وارسو .. عاصمة بولندا . فبتفنن سادي متوحش هدم الهتلريون احياء وارسو واحد اثر واحد ... لم يعد هناك اثر على سطح الارض للمنشآت الصناعية الكبرى . العمارات السكنية

نسفت بالالغام او تلتهمها النيران . اقتصاد المدينة مدمر . عشرات الالوف ابيدوا والباقون طردوا .. ماتت المدينة !

وقد ارسلت القيادة الالمانية ٦ فرق لايقاف زحف الجبهة الاولى (روسيا البيضاء) لكن هذه القوات ابيدت قبل ان تتخذ مواقعها بضربة قاسمة بددت امل المانيا الفاشية في الاحتفاظ ببولندا . وفي ٢٣ كانون الثاني استولت القوات السوفياتية على مدينة برومبيرج ثم استولت في ٢٥ كانون الثاني على مدينة بوزنان .

واتصل زوكوف بستالين وابلفه بانتصار قواته وطلب الاذن له بمواصلة الزحف حتى نهر اودير لكن ستالين حذره من ان قوات الجبهة البيلوروسية الثانية لم تحقق بعد مهمتها ... وان وصول الجبهة البيلوروسية الاولى منفردة الى نهر اودير سوف يجعل جناحها مكشوفاً وأنه يفضل ان يؤجل الزحف قرابة عشرة ايام حتى تستطيع قوات الجبهة الثانية الانتهاء من تصفية العدو في بروسيا الشرقية وتجميع حشودها على الجانب الاخر من نهر فيسلو .

وتحت الحاح زوكوف وافق ستالين بعد عدة ايام مع تكرير التحذير بضرورة التفكير الجدي في تأمين الجناح الايمن . ويعترف المارشال زوكوف بان ستالين كان على حق فقد اثبتت الاحداث صحة رايه . وقد كان الخطر يتعاظم اثناء القتال الا ان الجبهة استطاعت من ١ الى ٤ شباط الوصول الى النهر وعبره واتخذ رأس جسر في غاية الاهمية في منطقة كوستريمد .

ومن اتصالاتي بالقائد الاعلى كنت اعلم ان قوات جبهتنا الاوكرانية الثانية والثالثة والرابعة كانت في غمار المعارك العنيفة من كانون الثاني حتى منتصف نيسان قد ظهرت من القوات الالمانية الفاشية اراضي المجر ، وجانب كبير من تشيكوسلوفاكيا ، ودخلت النمسا وحررت فيينا ، وشقت طريقها الى المناطق الوسطى من تشيكوسلوفاكيا .

وعلى الجبهة الغربية كانت قوات حلفائنا في شباط واذار قد عبرت نهر الراين وحاصرت مجموعة كبيرة من القوات الالمانية فسي منطقة رور ، استسلمت للحلفاء في ١٧ نيسان .

ونتيجة لتصفية القوات الالمانية الرئيسية على الجبهة السوفياتية الالمانية ، ولعبور الحلفاء نهر الراين . حلت بوادر الكارثة التي لا مفر منها . لم تكن المانيا قادرة على مواصلة الحرب . كانت نهاية الحرب قد دنت وفي

ملاقاتنا مع الحلفاء اخذت بعض المسائل السياسية تتخذ شكلا حادا . كان هذا ابعد ما يكون من الصدفة .

فالبط الشديد في تحرك القيادة الاميركية الانكليزية تحول الى عجل شديد . وكانت الحكومتان الاميركية والبريطانية تتعجلان قيادة قوات الحلفاء في أوروبا للاسراع في احتلال المناطق الوسطى من المانيا قبل ان تتمكن القوات السوفياتية من الوصول اليها .

وفي اول نيسان ١٩٤٥ كتب تشرشل الى روزفلت : ان الجيوش الروسية سوف تستولي بلا شك على النمسا كلها وتدخل فيينا . فاذا استولت كذلك على برلين . افلا يكون لديهم تصور - مبالغ فيه للغاية - بانهم هم الذين اسهموا بالقسط الاكبر في انتصارنا العام . افلا يمكن ان يؤدي ذلك بهم الى اطار من التفكير يخلق في المستقبل متاعب بالغة الاهمية والجدية ولهذا فانهي ارى من وجهة النظر السياسية انه ينبغي علينا ان نتوغل شرقا في المانيا الى ابعد مدى مستطاع واذا حدث ان اصبحت برلين في نطاق منالنا ، فبلا شك ، لا بد ان نستولي عليها .

وكما علمت فيما بعد ، اتخذت القيادة البريطانية ، وعدد من الجنرالات الامريكيين كل الاجراءات للاستيلاء على برلين والاراضي الواقعة شمالها وجنوبها .

ابن ستالين الاسير

في ٧ وربما ٨ اذار سافرت الى موسكو باستدعاء عاجل من القائد الاعلى ومن المطار توجهت فورا الى « داشا » ستالين حيث كان معتل الصحة نوعا ما .

وبعد ان وجه الي بعض الاسئلة عن الموقف في الجبهة قال القائد الاعلى :
- هيا نتجول قليلا . . فانهي اشعر باعياء .

في مظهره العام ، وحركاته ، وحديثه كان يبدو عليه الارهاق الشديد . لقد انهكت سنوات الحرب ستالين الى ابعد الحدود ، فطوال الحرب كان يعمل بتوتر شديد ، وينام وقتا قليلا جدا ، ويعانسي بشدة مرارة الهزيمة خاصة عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ . ولم يكن من الممكن الا ينعكس هذا كله على صحته واعصابه .

ابن ستالين

وفجأة بدأ ستالين - بينما كنا - ننزله يحكي لي عن طفولته واستمر حديثه قرابة ساعة ثم قال لي :

- هيا نشرب الشاي فثمة موضوعات ينبغي ان نتناولها .

- وفي طريق العودة سألته :

- يا رفيق ستالين منذ وقت طويل وانا اريد ان اعرف اخبار ابنك

ياكوف .. اليس هناك معلومات عن مصيره ؟

لم يجب فوراً على السؤال .. وبعد ان سار قرابة مائة خطوة قال بصوت محتبس :

- لن ينجو ياكوف من الاسر . سوف يقتله السفاحون . طبقاً

لمعلوماتنا فانهم يعزلونه بعيداً عن بقية الاسرى ويحاولون التأثير عليه ليخون الوطن وبعد دقيقة صمت :

- لا .. ياكوف سيفضل الموت بأي طريقة على خيانة الوطن احسنت

انه يعاني كثيراً من جراء ما حل بولده . وقد جلس الى المائدة صامتاً ولمدة طويلة لم تقرب يده الطعام .

ثم وكأنه يتابع تفكيره قال بحزن :

- ما اقساها من حرب ... كم أودت بحياة البشر ... يبدو انه لم

تعد هناك اسيرة لم تفقد عزيزاً عليها ...

وتحدث ستالين مع زوكوف عن مؤتمر يالتا وعن احترامه لروزفلت ،

وعن الاتفاق على ادارة المانيا بعد التسليم ، وعن تقسيم المانيا الى مناطق

احتلال ، وعن الخطوط التي اتفق على وقوف قوات الحلفاء والقوات

السوفيات عندها ، وعن مستقبل حدود بولندا ، ونشأت خلافات كبيرة على

تشكيل الحكومة البولندية القادمة قال ستالين :

- تشرشل يريد ان تكون على حدود الاتحاد السوفياتي بولندا

بورجوازية غربية علينا ، ونحن نريد مرة وإلى الأبد ان تكون بجوارنا بولندا

صديقة . وذلك ما يريده الشعب البولندي ايضا .

وفي اثناء الحديث دخل بوسكريشيف وقدم لستالين بعض الاوراق

فالتقى القائد الاعلى نظرة عليها ثم قال :

- اذهب الى هيئة الاركان وراجع معهم حسابات عملية برلين . وموعداً

هنا غداً في الساعة الثالثة عشرة .

وفي اليوم التالي اقر القائد الاعلى عملية برلين .

الفصل السابع عشر

عملية برلين

- الأهمية التاريخية لمعركة برلين - الحلفاء يستولون على نهر الراين دون مقاومة -
ضربة قاصمة للدو على نهر الأودير - الغطة الهتلرية لانقاذ برلين .

« تحتل معركة برلين مكانة خاصة ، بصفتها العملية
الختامية للحرب العالمية الثانية في أوروبا . وفي أثناء
الاستيلاء على برلين ، تم التوصل إلى حلول عدد من المسائل
السياسية والعسكرية الهامة التي حددت - إلى مدى بعيد -
تكوين ألمانيا بعد الحرب ودورها في أوروبا » .

وكانت القوات المسلحة السوفياتية في أعدادها لعملية برلين ، تنطلق
من روح الاخلاص للاتفاق المبرم بين الحلفاء على استسلام ألمانيا بدون قيد
ولا شرط في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية . وكان الهدف
الرئيسي لنا في هذه المرحلة هو التصفية النهائية للفاشية في نظام الحكم في
ألمانيا ، وتحميل جميع المجرمين النازيين الاساسيين المسؤولية الكاملة عن
فظائعهم ، وجرائم الإبادة والتدمير ، والطفيان في البلدان المحتلة ، وخاصة
في بلادنا التي عانت الكثير .

وقد ظهرت فكرة عملية برلين لدى القيادة العليا في تشرين الثاني سنة
١٩٤٤ . وتم اعداد الخطوط النهائية في أثناء عمليات « فيسلو - أودير »
« بروسيا الشرقية » و « بوميرانيا » .

وفي اعداد الخطة ، اخذ في الاعتبار جهد قوات الحلفاء في أوروبا ،
الذي ادى الى وصول الحلفاء الى نهر الراين في اذار - نيسان سنة ١٩٤٥ .
ورغم ان مؤتمر يالتا كان يحدد منطقة الاحتلال السوفياتي قرب برلين
بكثير ، ورغم ان القوات السوفياتية كانت على نهري اودير ونيسي (٦٠ -
١٠٠ كيلو متر من برلين) ، فان القوات البريطانية لم تتخل عن حلمها في
الوصول الى برلين قبل الجيش الاحمر .

ورغم عدم وجود وحدة بين الزعماء السياسيين والعسكريين في
بريطانيا وامريكا على الخطط الاستراتيجية في المرحلة الختامية من الحرب ،
فقد كانت القيادة الموحدة لقوات الحلفاء في أوروبا تميل الى احتلال برلين لو
سنت لها الفرصة .

وفي ٧ نيسان سنة ١٩٤٥ ، حين ابلغنا القيادة الموحدة للحلفاء بقرارنا
فيما يختص بالعملية الختامية ، قال الجنرال دوايت ايزنهاور :

— بعد اخذ ليبزغ ، اذا ظهر انه من الممكن اخذ برلين ، فاني اريد ان
افعل ذلك . وفيما بعد :

— انني اول من يوافق على ان الحرب تجري لتحقيق اهداف سياسية .
واذا رأت القيادة الموحدة ان جهود الحلفاء للاستيلاء على برلين اهم على هذا
المسرح من الاعتبارات العسكرية البحتة ، فاني بسرور سوف أقيسر خططي
وتفكيري على نحو يكفل تحقيق هذه العملية .

كان يوسف ستالين يعرف ان القيادة الهتلرية تقوم ذاك الوقت بنشاط
كبير من اجل التوصل الى اتفاقيات انفصالية مع الحكومتين الامريكيتين
والبريطانية .

واخذا في الاعتبار بالوضع اليائس للقوات الالمانية ، كان يمكن توقع ان
يكف الهتلريون عن ابداء المقاومة على الناحية الغربية ، وان يفتحوا الطريق
الى برلين امام القوات الامريكية والانكليزية حتى لا يسلموها للجيش الاحمر .
كيف جرى تقدم القوات الامريكية والبريطانية في منطقة الراين ؟

معروف ان الهتلريين لم تكن لديهم تغطية قوية في المنطقة ، كان الالمان
يستطيعون ان ينسحبوا وراء الراين وينظموا مقاومة عنيفة ، لكنهم لم يفعلوا
لان قواهم الرئيسية كانت في الشرق على خط المواجهة مع الجيش الاحمر .
وفي بداية الحملة الامريكية البريطانية كانت قوات المانيا في الغرب ٦٠
فرقة ضعيفة ، تعادل ٢٦ فرقة كاملة في مواجهة ٨٠ فرقة كاملة ، من بينها
٢٣ فرقة دبابات .

وكان للحلفاء تفوق جوي ساحق ، مما جعل عملية عبور الراين تجري

في ظروف سهلة ، حتى يمكن القول بأنهم في الواقع قد استولوا على الراين دون مقاومة المانية .

السبيل إلى برلين

ومن المقابلات العديدة بعد الحرب مع عدد من الجنرالات الأمريكيين والبريطانيين ومن بينهم ايزنهاور ومونتغمري ، وروبرتسون ، وسميث ، ظهر أن مسألة استيلاء الحلفاء على برلين قد صرف النظر عنها فقط ، بعد أن وجهت القوات السوفياتية على الأودير والنيس ضربة قوية بالمدفعية والطيران والدبابات والمشاة ، كان من نتيجتها تحطيم الدفاع الألماني من أساسه .

عندما تلقت القيادة العليا بلاغا من الجنرال ايزنهاور ، عن قراره بتوجيه ضربتين في شمال شرقي ، وجنوب ألمانيا وعن اعتزام القوات الأمريكية الوقوف عند الخط المتفق عليه في اتجاه برلين ، وصف ستالين الجنرال ايزنهاور ، بأنه رجل مخلص للالتزام الذي أخذه على عاتقه . ولقد ظهر أن هذا الرأي كان سابقا لأوانه .

في ٢٩ كانون الثاني ، استدعاني ستالين من الجبهة ، وقابلته منفردا في مكتبه في الكرملين ، فمد يده إلي صامتا ثم قال كعادته ، وكأنه يتابع الحديث :

— الجبهة الألمانية في الغرب سقطت نهائيا ، والألمان — فيما يبدو — غير راغبين في اتخاذ أي إجراءات لايقاف زحف قوات الحلفاء . وفي نفس الوقت فإنهم يدعمون مقاومتهم لقواننا على كل الاتجاهات .

— اعتقد أن المعركة ستكون حامية . وسألني عن تقديري للعدو فسي اتجاه برلين ، وعن موعد بدء العملية فأخبرته بأن جبهة بيلوروسيا الأولى ، وجبهة أوكرانيا الأولى تستطيعان بدء العملية في غضون أسبوعين ، أما جبهة بيلوروسيا الثانية ، فسوف تتأخر حتى منتصف نيسان .

وسلمني ستالين رسالة جاءته من أحد فاعلي الخير ، وفيها يقص كيف تجري من خلف الكواليس عمليات اتصال بين عملاء هتلر وبين الممثلين الرسميين للحلفاء ، حيث يعرض الألمان على الحلفاء إيقاف النضال ضدهم في مقابل عقد صلح منفرد . وجاء بالرسالة أيضا أنه على الرغم من رفض الحلفاء ، فإن الألمان مع ذلك قد يفتحون الطريق أمام الحلفاء إلى برلين .

قال ستالين : ما رأيك في هذا . ولم يمهلي حتى أرد ، بل أجاب هو قائلا : « اعتقد أن روزفلت لن ينقض اتفاقية يالتا . أما تشرشل .. فأنسه يمكن أن يفعل أي شيء » .

في اول نيسان سنة ١٩٤٥ ، وقع ستالين اوامر تكليف الجبهات الثلاث بادوارها في عملية برلين .

« طوال الحرب اشتركت في عمليات هجومية كثيرة كبرى ، لكنها جميعها تختلف من عملية برلين ... ولقد عدت بذاكرتي الى معركة موسكو ، واخطاء كل من الجانبين ، وحاولت ان استفيد من ذلك لعلمي بان معركة برلين ستكون بالغة العنف والضراوة . وفي اثناء التفكير فيما يمكن ان نفعله لكي نفاجيء العدو ونشل قدرته على المقاومة ، وهنا ولدت فكرة الهجوم الليلي على ضوء الكشافات، وقد تم تدريب الجنود عليها وحظيت بموافقتهم . في ١٤ نيسان قال هتلر في ندائه الى الشعب الالماني :

لقد توقعنا هذه الضربة من العدو وحشدنا في مواجهته جبهة قوية . فسوف يستقبل العدو بنيران مدفعية بالغة العنف ... سوف تبقى برلين الماتية » .

تجهيز برلين

كانت الطرق المؤدية الى برلين من الناحية الاستراتيجية ، تحت سيطرة قوات مجموعة « فيسلو » الفاشية التي تحمي الطريق الى برلين من ناحية الشرق والشمال الشرقي ، ومجموعة « الوسط » التي تحمي سكوفيا والمناطق الصناعية التشيكوسلوفاكية من ناحية الشمال الشرقي ، ومجموعة الجنوب التي تحمي النمسا والمداخل الجنوبية الشرقية لتشيكوسلوفاكيا . اما المداخل المباشرة الى برلين ، فقد كان الدفاع عنها تحت قيادة هملر وجنرالات الجستابو .

وفيما بعد ، وفي اثناء استجوابه ، صرح رئيس غرفة عمليات القيادة العليا الالمانية ، الجنرال جوديل بقوله : « وبهدف تدعيم الجبهة الشرقية ، قبل الهجوم الروسي العاسم ، اضطررنا ان ندفع الى المعركة بكل الجيش الاحتياطي ، اي جميع وحدات المدفعية والمشاة والدبابات والقوات الخاصة والكتليات العسكرية » .

وقد تم تدعيم الجيش التاسع تحت قيادة الجنرال بوسي بالافراد والمعدات لتغطية المدينة ، وفي مؤخرتها تكونت فرق والوية جديدة ، وقد اعطت القيادة الالمانية أهمية خاصة لتعزيز الدفاع بالدبابات والمدفعية الصاروخية .

ومن اودير حتى برلين ، اقيمت شبكة دفاعية في منتهى القوة ، تتكون من خطوط دفاع متوالية ، على كل خط منها سلسلة من الخنادق المتراسة في صفوف متعاقبة يبلغ عددها خمسة ، كما استغل العدو كل المواقع

الطبيعية من أنهار وبحيرات وقنوات ووديان . كذلك فقد كانت جميع المناطق السكنية محصنة ومعدة للدفاع الدائري .

وفي المنطقة شمال شرقي المدينة ، تكونت مجموعة جيش شتينير ، التي كانت مكلفة بتوجيه ضربتها الى جناح الجبهة البلوروسية الاولى ، وقد عززت هذه المجموعة بوحدات مشاة الاسطول . وعلاوة على ذلك ، فقد اتخذت « اجراءات خاصة » للدفاع عن برلين ، فقد انقسمت المدينة الى ٨ قطاعات دفاعية تحيط بالمدينة ، وقطاع خاص تاسع لحماية قلب المدينة ، حيث كانت توجد مباني الحكومة ، وقصر الامبراطورية ، والجستابو ، والرايخستاج .

وعلى حدود المدينة مباشرة ، كانت توجد ثلاثة خطوط دفاعية : المنطقة الوقائية الخارجية ، طوق الدفاع الخارجي ، طوق الدفاع الداخلي ، وفي الشوارع اقيمت المتاريس الثقيلة ، والعوائق المضادة للدبابات والستائر الخرسانية وخلافة .

وانشئ مجلس دفاع عن برلين ، كان يعد السكان لخوض معارك الشوارع الدموية ، وللقاتل في البيوت ، على الارض وتحت الارض ، ونصح الاهالي باستخدام انفاق المترو . واصبح كل شارع وبيت وجسر وحديقة تشكل عنصرا من عناصر الدفاع العام عن المدينة . ودربت عشرين كتيبة من القوات الخاصة على خوض معارك الشوارع . وقد دهم دفاع المدينة بستمائة مدفع مضاد للطائرات لاستخدامها ضد الدبابات والمشاة ، كما استخدمت الدبابات المعطلة والسليمة مدافعها ، وقد تلقى الشباب الهتلري تدريباً انتحارياً خاصاً لمقاومة الدبابات .

لقد اشترك في تحصين برلين ما يزيد عن ٤٠٠ الف فرد ، وحشدت قوات البوليس والجستابو . وتولى مونكيه رئيس الحرس الخاص لهتلر قيادة القوات المدافعة عن قطاع قلب المدينة .

كانت القيادة الفاشية تتصور ان في امكانها الدفاع عن برلين ، كما دافعنا نحن عن موسكو . لكن حساباتهم قدر لها بالفشل .

وقد تطورت الاحداث ، بحيث لم تكن لدينا فرصة لاختفاء نوابنا عن العدو . فقد كان حتى ابعد الاشخاص عن العلم العسكري ، يدرك ان مفتاح برلين يقع على نهر اودير ، وان عبور النهر يعني الانطلاق نحو برلين .

« كانت هيئة الاركان تدرك ان مصير معركة برلين سوف يحسم على نهر اودير - كما ظهر ذلك من استجواب الجنرال جوديل - ولذلك فان الحشود الرئيسية للجيش التاسع الذي يدافع عن برلين قد وجهت الى

الشمال من برلين ، تمهيدا لكي توجه ضربة مضادة الى جناح قوات المارشال روكوف » .

و حين اعداد الهجوم ، كنا ندرك تماما ان الالمان يتوقعون ضربتنا في برلين ، ولذلك فان قيادة الجبهة قد عكفت على دراسة كل التفاصيل التي تجعل للضربة المتوقعة اقصى قدر ممكن من المفاجأة .

قررنا ان ننقض على دفاع العدو بقوة تكفي لاثارة ذهول العدو ، وهزه حتى الاعماق ، باستخدام الطيران والمدفعية والدبابات . ولكننا كنا نحتاج الى جهود عملاقة لكي نحشد بالقرب من مسرح العمليات كل هذه الحشود الجبارة من الوسائل والمعدات على نحو غير مكشوف .

ولمدة يومين قبل بدء المعركة ، قامت ٣٢ كتيبة من قواتنا المشاة بعملية استطلاعية (طوال ١٤ ، ١٥ نيسان) الغرض منها اكتشاف التوزيع النهائي لشبكة نيران مدفعية العدو . كما كان الغرض منها ايضا استدراج العدو الى دفع المزيد من افراده ومعداته الى خط المواجهة ، حتى يمكن التخلص من اكبر قدر منها ، اثناء التمهيد المدفعي للهجوم .

ابتداء الهجوم

وبدا الانقراض التاريخي على عاصمة المانيا الفاشية .

وفي ٢١ نيسان بدأت وحدات الجيوش : ٥٤٧،٤٤٢، تقتحم اطراف برلين وفي اجزاء داخل المدينة ، واسرعت بعض الوحدات في تحركها نحو نهر البالي حيث كان المكان المحدد للالتقاء بالحلفاء .

وفي ٢٣ - ٢٤ نيسان ، دمرت قوات الجبهة البلوروسية الاولى قوات العدو في المداخل المؤدية الى قلب المدينة .

وفي ٢٥ نيسان التقت وحدات جبهة بلوروسيا الاولى بوحدات جبهة اوكرانيا الاولى في القطاع الغربي من مدينة برلين .

وأصبحت القوات المدافعة من برلين وقوامها ٤٠٠ الف جندي منشقة الى مجموعتين .

ومضى القتال بنجاح في داخل برلين ، وظهر ان الدفاع في داخل المدينة قد ضعف كثيرا اثناء عملية الاقتحام ، حيث ان القيادة الالمانية كانت قد سحبت بعض وحدات المدفعية لتدعم بها القوات المتمركزة على التلال المحيطة بالمدينة من الخارج .

ولكن المقاومة اتخذت شكلا عنيفا ، بالاقتراب من قلب المدينة . وظهرت الضراوة في القتال من الطرفين . وقد استغل الالمان بالطبع معرفتهم بالمدينة

فكانوا من البيوت والمباني يوجهون اسلحتهم الى المهاجمين ، كما كانوا يلوذون بالمخابيء والانفاق وينتقلون من حي الى حي تحت الارض ، ويظهرون فجأة في مؤخرة المهاجمين في بعض الاحوال .

وقد كان نهر شبريه يقسم المدينة الى نصفين ، ويحمي مباني الوزارات في قلب المدينة ، وفي كثير من الاحوال كانت كتية باكملها تدافع عن بيت واحد .

وكنا قد اعدنا بالتفصيل مسؤولية كل جيش عن الهجوم في احد القطاعات من المدينة . ومع ان القتال في المدينة كان يبدو عفويا وفوضويا ، الا ان الواقع كان غير ذلك ، فالقتال كان يجري من جانب الطرفين طبقا لخطة دفاع وهجوم محددة .

كان الهدف الرئيسي لنا من قتال الشوارع هو الحيلولة دون استجماع العدو لقواه وحشدتها من جديد .

ومن ٢١ الى ٢ ايار ، بلغت عدد القذائف المدفعية التي اطلقت على برلين مليوناً و ٨٠٠ الف .

وتعلم دفاع برلين .

وفي اثناء استجوابه قال المارشال كيتيل : في ٢٢ نيسان ، اصبح واضحا ان برلين سوف تسقط ما لم تسحب اليها جميع قواتنا على نهر البا . وبعد الاجتماع الذي عقده هتلر مع جوبلز وجوديل وانا ، تقرر سحب الجيش الثاني عشر من مواقعه في مواجهة الامريكيين - مع ابقاء وحدات رمزية - وتوجيهه للتصدي للروس المهاجمين لبرلين .

وقال جوديل :

« سألني جوبلز : هل يمكن عسكريا الحيلولة دون سقوط برلين » .

فاجبته : « يمكن اذا سحبنا الجيش الثاني عشر ودفعنا به الى مواجهة الروس . فإشار جوبلز علي بأن أقدم هذا الاقتراح الى الفوهرر الذي وافق وامرني أنا و كيتيل بالخروج من برلين وقيادة الهجوم المضاد » .

وقال قائد ثكنات برلين :

« قال لي هتلر في ٢٥ نيسان ان الوضع سوف يتحسن (١) ، فالجيش التاسع سوف يقترب من برلين ويشارك مع الجيش الثاني عشر في توجيه ضربة الى العدو . . سوف تجيء هذه الضربة من الجنوب ومن الشمال سوف توجه قوات شتينير » .

كانت هذه الخطط مجرد اوهام لدى هتلر ومعاونيه الذين كانوا قد فقدوا القدرة على التفكير .

الفصل الثامن عشر

استسلام المانيا الفاشية بلا قيد او شرط

- كريس يطلب التفويض من اجل الصلح . . - اللحظات التاريخية العاسمة لاستسلام
المانيا الهتيرية - انتهت الحرب وبلات عملية تدمير الجراح .

في الساعة الرابعة يوم اول ايار اتصل بسي الجنرال
تشوكوف وابلفني ان رئيس اركان حرب القوات البرية
الامانية الجنرال كريس قد جاء الي قيادته وطلب التفويض
من اجل الصلح . وان كريس افاده بان هتلر قد انتحر في
الساعة ١٥.٥٠ يوم ٣٠ نيسان ، ويحمل كريس معه رسالة
من غوبلز بها :

بناء على وصية الفوهرر الراحل تفوض الجنرال كريس في ابلاغ
زعيم الشعب السوفياتي بأن الفوهرر قد فارق الحياة بارادته في الساعة
١٥.٥٠ يوم ٣٠ نيسان . ولقد كلفت بورمان بالاتصال بزعيم الشعب
السوفياتي . وهذا الاتصال ضروري للمفاوضات السلمية بين الدول التي
تكدت اكبر الخسائر .

توقيع : غوبلز

وكانت وصية هتلر مرفقة بخطاب غوبلز .
واصلت فوراً بالقائد الاعلى وكان نائماً فاستيقظ واحطته علماً بما

جرى وطلبت منه الامر بما يتبع فقال :
- خسر الوفد اللعبة . المؤسف أننا لم نأخذه حيا .
اين جثة هتلر ؟
- يقول كريس ان الجثة احرقت .
- لن تكون هناك مفاوضات مع كريس او غيره من الهتلريين . لا شيء
غير الاستسلام بلا قيد ولا شرط .

وحين ابلغت القيادة السوفياتية رايها الى (غوبلز) جاء رد غوبلز في
اليوم التالي برفض التسليم بلا قيد او شرط .

وردت القوات السوفياتية على ذلك بقصف مركز عنيف لم يسبق له
مثيل . وفي الساعة ١٥٠٠ يوم ٢ ايار قضي على اخر معاقل العدو في
برلين واستسلمت بقايا قوات برلين تسليما جماعيا وكان عددها يبلغ اكثر
من ٧٠ الف جندي . ويبدو ان كثيرين ممن قاتلوا بالسلاح قد آثروا الهرب
في الايام الاخيرة .

وبعد الاستيلاء على مقر الامبراطورية ذهبت الى هناك ومعها الجنرال
برزارين اول قومندان لبرلين المحتلة ، والجنرال بوكوف وآخرون .

وحين كدنا نفادر قصر الامبراطورية قيل لنا انه قد عثر في البldroom
على جثث اطفال غوبلز الستة . واعترف بانني لم اجد في نفسي القدرة على
رؤية جثث اطفال اقتيلوا بايدي والديهم . وغير بعيد من المخبأ عثر الجنود
على جثتي غوبلز وزوجته . وللتأكد من شخصية المنتحرين استدعى الدكتور
فريتشي نائب وزير الدعاية النازي (نائب غوبلز) فأكد صحة ذلك .

ولقد كنت في بادئ الامر اشك في ان يكون هتلر وبورمان قد تمكنا
من الفرار لكن التحقيق فيما بعد جعلني اتخلى عن هذا الشك واعتقد انه
لا اساس للشك في انتحار هتلر .

كان القادة الفاشيون شأنهم كالمقامرين لا يفقدون الامل في « الورقة
السعيدة » . فقد ظلوا حتى النهاية يماطلون تحت ستار السماح لحكومة
ديونتسي (التي سلمها هتلر الحكم) بدخول برلين لاجراء المفاوضات
الخاصة بالتسليم .

« وفي ٧ ايار اتصل بي القائد الاعلى وقال لي :
- وقع الالمان اليوم في مدينة رايسس وثيقة الاستسلام غير المشروط
مع الحلفاء ان الشعب السوفياتي هو الذي قدم اعظم التضحيات في الحرب

وليس الحلفاء ولذلك فان توقيع وثيقة الاستسلام ينبغي أن يتم في حضور القيادات العامة لجميع الدول المعادية للهتلرية وليس فقط في حضور قيادة قوات الحلفاء .

كذلك فأنني لا اوافق على توقيع وثيقة الاستسلام في غير برلين - مركز العدوان الفاشي . لقد اتفقت مع الحلفاء على اعتبار التوقيع السابق توقيعاً مبدئياً ، وغداً سوف « يتوافد على برلين ممثلو القيادة الالمانية وقيادة قوات الحلفاء » .

تم تعيينكم ممثلاً للقيادة العليا للقوات السوفياتية » . وفي منتصف نهار ٨ ايار وصلت الى مطار تيمبيلجوف وفود الحلفاء وكان مارشال جو آرتر تيدر يمثل بريطانيا والجنرال سباتس قائد القوات الجوية الاستراتيجية الامريكية يمثل الولايات المتحدة ، والجنرال ديلاتر دي تاسينيه يمثل فرنسا . وفي المطار استقبلهم نائب الجنرال سوكولوفسكي وقومندان برلين الجنرال برزارين وآخرون .

وفي القطاع الشرقي من برلين في مبنى من طابقين كان من قبل مطعماً لطلبة كلية الهندسة العسكرية تم توقيع وثيقة الاستسلام . دخلنا القاعة في تمام الساعة ٢٤.٠٠ يوم ٨ ايار .

وافتح الاجتماع بقولي :

« نعلن نحن ممثلي القيادة العليا للقوات المسلحة السوفياتية : والقيادة العليا لقوات الحلفاء عن تفويضنا من قبل حكومات التحالف المعادي للهتلرية في قبول الاستسلام غير المشروط لالمانيا من قيادة القوات الالمانية . ادعوا الى القاعة ممثلي القيادة الالمانية .

وإدار الجميع رؤوسهم نحو الباب ليروا أولئك الذين أعلنوا بفرور على العالم كله عن قدرتهم على الحاق الهزيمة بفرنسا وانكلترا وسحق الاتحاد السوفياتي في غضون شهر ونصف شهر او شهرين على الاقصى .

وجلس الجنرالات الالمان في المكان المخصص لهم . ثم توجهت انسا اليهم بقولي :

— هل تحملون في ايديكم وثيقة الاستسلام بدون قيد او شرط ؟ هل درستوها جيداً وهل لديكم تفويض لتوقيعها ؟
رد المارشال . كيتيل تصوت متحسرج .
— نعم . درسناها ، ومستعدون لتوقيعها .

وفي تمام الدقيقة الثالثة والأربعين من بعد منتصف ليل يوم ٨ ايار ١٩٤٥ انتهى توقيع الوثيقة. وطلبت من ممثلي القيادة الألمانية مغادرة القاعة.

كانت المادة الاولى من الوثيقة كما يلي :

« نحن الموقعين ادناه ، بوصفنا ممثلين للقيادة الألمانية العليا نوافق على الاستسلام غير المشروط لكافة قواتنا المسلحة في البر والبحر والجو وكذلك جميع القوات الموضوعة حاليا في القيادة الألمانية ، للقيادة العليا للجيش الاحمر ، وفي الوقت ذاته ، للقيادة العليا لقوات الحلفاء » .

هكذا انتهت الحرب الدموية .

قضى نهائيا على المانيا الفاشية وحلفائها .

وفي منتصف ايار ١٩٤٥ دعا المجلس العسكري للجبهة السى عقد اجتماع جماهيري اشتركت فيه الهيئات الشعبية والمسؤولون عن قطاعات الصناعة والمواصلات والصحة ، والثقافة وخلافه حيث نوقشت المسائل المتعلقة باعادة الحياة العادية الى المدينة وحضر الاجتماع انستاس ميكويان نائب رئيس الوزراء السوفياتي ووالتر اولبريخت سكرتير الحرب الشيوعي الالماني .

لو لم ... لما كان النصر

في خاتمة مذكراته يقول المارشال زوكوف ان الحرب الوطنية العظمى كانت « اصطلداما عسكريا مروعا بين الاشتراكية والفاشية ، ومعركة شعبية عامة ضد عدو طبقي شرير امتدى على اقدس مقدسات الشعب السوفياتي وهي منجزات ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى » .

« واقول مباشرة انه لو لم يكن لدينا حزب قوي ذو نفوذ ، ولو لم يكن لدينا نظام اشتراكي لما كان النصر تحقق . فالامكانيات المادية والروحية للنظام الاشتراكي السوفياتي هي التي اتاحت الفرصة لاعادة تنظيم حياة البلاد - في فترة وجيزة - على نحو امكن معه الحاق الهزيمة بالقوات المسلحة لالمانيا الامبريالية » .

« ولقد ضاعفت من قوتنا وحدة الامم والشعوب الاشتراكية (في الاتحاد السوفياتي اكثر من مائة قومية) ، وحدة العمال والفلاحين والشباب والمثقفين من حول شعار :

« كل شيء من اجل الجبهة » .. كل شيء من اجل النصر » .

« ومحت تأثير طابع الحياة السوفياتي والعمل التربوي الكبير للحزب ، تكون في بلادنا انسان يؤمن بعدالة قضيته، ويشعر اعمق الشعور بمسؤوليته الشخصية عن مصير الوطن الاشتراكي » .

ويقول المارشال ان الحرب ليست مخيفة اذا احسن الاستعداد لها ، واذا كان كل فرد اثناءها يعلم دوره في الدفاع عن بلاده .

ويتناول التقدم العلمي الحديث وما ادخله ذلك على فن القتال من اساليب جديدة في التسليح والتنظيم العسكري ثم يقول :

« وترتفع الآن بعض الاصوات زاعمة انه قد اقبل عصر حرب «الازرار» حيث يلعب الانسان فيها دورا ثانويا . ذلك رأي خاطيء . فرغم كل اهمية الاسلحة اللرية والصاروخية يبقى الانسان ابدا صاحب الدور الرئيسي . فالحرب مهما كانت مقاييسها واساليبها وطبيعتها لا بد ان تحتاج الى الجماهير الشعبية اما للاشتراك المباشر في النضال المسلح واما للانتاج الحربي الذي لا غنى عنه للنضال المسلح » .

وآخر كلمات المارشال في كتابه الطويل « ذكريات وتأملات » :

● فكرت طويلا فيم اختتم به ذكرياتي فلم اجد افضل من كلمات لينين : « مستحيل ان يقهر شعب تدرك وتشعر الغالبية العظمى من عماله وفلاحيه ان انتصار القضية التي يدافعون عنها انما يتيح لهم ولدريتهم فرصة الاستفادة من كنوز الثقافة وثمار العمل الانساني » .. (١)

موسى يوسف (المرشال)

انتهت المذكرات

(١) الاهرام المصرية مع بعض الاختصار ..

مذكرات

فصل الصفحة

تقديم هذه المذكرات

٥

القسم الاول

ستالين	٨	١
هتلر في حياته الخاصة والعامه	٢١	٢
آخر من شاهد هتلر حيا	٥٤	٣
ما لا ينسى عن هتلر	٦٣	٤
تشرشل حياته وكفاحه	٧١	٥

القسم الثاني

مذكرات زوكوف	٨٣	
الطفولة والصبا	٨٤	١
الخدمة العسكرية	٩١	٢
الاشتراك في الحرب الاهلية	٩٨	٣
قيادة كتيبة ... فلواء	١٠٤	٤
قيادة الفيلق الثالث فالسادس	١١٤	٥
الحرب غير المعلنة على النهر	١١٧	٦
قيادة القوات الخاصة	١٢٢	٧
قبل الحرب الوطنية العظمى	١٣٠	٨
بداية الحرب	١٤٤	٩
من يلين الى ليننغراد	١٦٩	١٠
معركة الدفاع عن موسكو	١٧٧	١١
المحنة مستمرة	١٩٤	١٢
هزيمة القوات الفاشية في منطقة ستالينغراد	٢٠٦	١٣
هزيمة الالمان في مناطق كورسك واريول وخاركوف	٢٢١	١٤
هزيمة القوات الفاشية في بيلوروسيا وانسحابها	٢٣١	١٥
في الطريق الى برلين	٢٣٦	١٦
عملية برلين	٢٤٤	١٧
استسلام المانيا الفاشية بلا قيد او شرط	٢٥١	١٨

مطابع دار الفد - شارع سوريا - تلفون ٢٣٠٥١٢

عماد يوسف اللبدي

مذكرات زوكوف

مذكرات اعظم القادة الروس (زوكوف) في الحرب العالمية الثانية .. مع دراسات ومقدمات مثيرة حول الزعماء الثلاثة الذين شاركوه في الحرب العالمية الثانية ، هتلر وتشيرشل وستالين .

قصة الحرب الروسية يكتبها القائد الروسي الاشهر ، كيف تراجع الروس وكيف هزموا مرة وثانية وثالثة ، ثم كيف تمكنوا من الوقوف على اقدامهم ، وتعزيز سلاحهم ، والكر على العدو وقهره ، واجباره على اخلاء الارض التي احتلها ..

وعندئذ بدأ الروس يطاردون الغزاة الالمان النازيين في بلادهم حتى دخلوا الى عاصمتهم (برلين) وانتحر هتلر على الاثر .

المذكرات مثيرة تأمل يصف فيها (زوكوف) جميع الحوادث والاحبار التي كانت تجري في روسيا وفي الكرمليين اثناء الحرب ..